رهبنة دير مار جرجس الحرف

أصول الحياة الروحية

«وجهك يا رب أنا ألتمس» (مزمور ٢٦: ٨)

الحياة الروحية عالم في حـــد ذاته
لا بد لنا ان ندخله ونسير فيه قـدماً
لا ليس هـــذا الكتاب للرهبان
بل لكل من يبتغي وجـــه الله

مقدمة

الصفحات[1] التي نريد ان نقدّم لها في هذه السطور القليلة هي قبل كل شيء **قطعة حياة** . ووجهها هذا — على خفائه ، كما ينبغي كلما تعلق الأمر بحياة في الروح — هو الذي يحمل قيمتها الصحيحة . ذلك لأنها نُسجت من التوق ذاتـه الذي أوحته حينذاك نفوس ساعيـة وراء الاله الحيّ — في شركة تفتيش وثقة ورجـاء . وليست « الدروس » المنشورة فيما يلي سوى مراحل هذا « التعرّف » ، في النعمة ، على مسيرة حية في درب الروح .

على ضوء ذلك ما يسمّونه « الحياة الرهبانية » تظهر ، فقط لا غير ، ولكن بجدّ كلي ، المغامرة الخفية للقلب الذي **يؤمن ويحسّ ويعلم بأن** الله موجود ، وبأن كل ما تبقى — « جيداً » قيل عنه أو غير جيد — يأتي منه تعالى ، ولكن بأنه هو ، الراهب ، انما يودع وجوده الحقيقي ويخفيه في مشيئة الله ، بقدر ما يودعه في أفراح الآخـــرين وآلامهم ، وخدمتهم .

الاّ انه لا يمكن ان تكون لنا حياة في الله بدون معرفة حقيقته .

---

١ ـ هذه الصفحات دروس أعطاها الأب أندره سكريما الى أخوة دير مار جرجس الحرف ، شركة رهبانية صغيرة وبادئة ، في ربيع وصيف عـــام ١٩٥٩ . أعطيت بشكل حي (لم تكن مكتوبة الا كرؤوس أقلام) وباللغة الفرنسية . فنقلناها الى العربية ولشرنا القسم الأكبر منها في نشرة الدير ورأينا الآن جمعها في كتاب واحد يبقى مستنداً في خدمة النفوس والكنيسة .

فلكي نشق طريقنا في الله ونتيح له ان يأتي فينا دون انقطاع يقتضي معرفة علامات الطريق ، أعني كلام الله وقديسيه ، علم حياة الانسان العميقة – في ذاته وبين الجماعة . وفوق كل شيء يقتضي ان نتعلم كيف « نبدع » جدّة الحياة التي ينبعها الروح على الدوام في الذين يَدَعونها تُفعمهم . فهذه « الدروس » تتكلم اذاً عن هذا « العلم » ، عن هذا « التعليم » الذي يأتينا من بعيد ولكن الذي يغتني أيضاً باستمرار بخبرة الذين يلتزمونه شخصياً : هذا الكتيّب ، بنوع ما ، يودّ ان يكون « احتفالاً » متواضعاً بالتقليد الروحاني الشرقي الذي ينحدر الينا منذ فجر اليوم الذي ظهر فيه قصد الله وتحقق بين الناس. وهو أخيراً علامة وفاء وأمانة ، متواضعة جداً ، موضوعة أمام الرب الآتي ..

الاخ اندره سكريما

التأمل والعمل

التأمل والعمل هما الدعامتان اللتان ترتكز عليهما الحياة الرهبانية ويؤلفان محوريها .

التأمل : ان لفظة تأمل بالفرنسية (Contempler : con - templare) مشتقة من لفظة templum وهي قطعة من السماء محددة فلكياً كان يرصدها الأقدمون على الدوام لمعرفة المستقبل من وراء حركة مرور الطيور فيها . فالتأمل بالتالي هو رصد المبادىء الأساسية والحقائق الأخيرة لايماننا وحياتنا الرهبانيين ومعرفتها والشخوص الدائم اليها متأملين أسرارها . ويسمى ايضاً « المعرفة » و « النظر » او « الثاوريا » وهي معرفة الله ومعاينته تعالى (باليونانية theoria) .

العمل : هو تطبيق المبادىء وتجسيد الحقائق . انه الجهاد الروحي (باليونانية praxis) الذي يسبق التأمل بمعنى ان معاينة الله تتطلب اولاً حفظ الوصايا ومجاهدة الأهواء وممارسة الفضائل . فما كنا نعرفه نظرياً نعرفه بعد تطبيقه معرفة اخرى بالكلية. واذا كان التأمل أساس الطريق وغايتها فالعمل هو الطريق ذاتها التي لا بد منها : «لقد وجدتَ بالعمل مرقاة الى الثاوريا ايها اللاهج بالله..» هكذا تنشد طروبارية بعض القديسين .

والعمل والتأمل لا ينفصلان بل يكمل كل منهما الآخر في توازن

فاعل حي . فالتأمل دون العمل سيء نظري مجرد يؤدي الى الكبرياء والعقم : حبة الحنطة ان لم تمت « وتتجسد » في الارض تبقى وحدها ولا تثمر ... اما العمل بدون التأمل فهو كمن يحارب ضارباً الهواء غير عارف اين يسدد ضرباته ... وقد جمع الرب بين الاثنين معاً حين قال: طوبى لمن يعمل ويعلّم..هذا وفي السير الواقعي للحياة الروحية العمل والتأمل متداخلان مترافقان (مع صحة القول بأن التأمل بالنهاية لا يأتي الا بعد العمل) .

طبقاً لما تقدم ستحتوي دروسنا بابين : الباب الاول باب التأمل ، وغايته ان نعي الماهية الكيانية للحياة الرهبانية ، ان نعي ذواتنا كرهبان ، أعني هدفنا الاسمى الاخير ومكاننا في هذا الكون ، وفيه نستعرض الرهبانية في حـــد ذاتها وذلك في حياة الكنيسة والعالم والتاريخ ..

والباب الثاني باب العمل ، غايته معرفة الاطار الذي تتحقق داخله معاني الرهبانية ، اعني شرح العالم الرهباني الواقعي في تركيبه وسيره . وينقسم هذا الباب الى ثلاثة أقسام تتناول حياة الراهب في **الشركة الرهبانية والقلاية والكنيسة** :

١ – **في الشركة** : اي الحياة المشتركة التي يعيشها الراهب مـــع اخوته . ويبحث هذا القسم في: آ – معنى الشركة البعيد واسسها العميقة. ب – هيئتها وادارتها . ج – سيرها الخارجي (المبني على الداخلي) .

٢ – **في القلاية** : اي حياة الراهب الداخلية الخاصة . فليس المقصود بالقلاية الغرفة وحسب . ان القلاية بالنسبة للراهب بمثابة بيت البزاقة ، يحملها معه اينما ذهب . القلاية كغرفـــة هي المكان الذي ينزوي فيه الراهب ليعيش حياته الخاصة ويمارس نسكه الشخصي (بالاضافـة الى

نسك الشركة العام) . اما حياة القلاية فهي تلك اليقظة الداخلية ، هي سهر الراهب على ذاته **وحضوره لذاته** على الدوام . حياة القلاية مثل اتون الفتية الثلاثة : تجمع بين نار الجهاد الروحي المستمر وندى الروح المعزي .. ويتناول هذا القسم مراحل حياة القلاية الاربع : آ – التحرر من الاهواء – ب – عدم الهوى – ج – الاستنارة – د – الاتحاد بالله .

٣ – **في الكنيسة** : اي حياة الليتورجيا والتسبيح لله : لأن الراهب ملاك متجسد وبالتالي « حيوان مسبّح » حسب تعبير القديس اثناسيوس الكبير (animal hymnologique) فالليتورجيا هي المصدر والينبوع الذي تتغذى منه حياة الراهب الشخصية وحياة الشركة في آن واحد. ويتناول هذا القسم نظام الليتورجيا الرهبانية ومعانيها وفحواها . واذا كان الراهب في حياة القلاية حـــاضراً **لذاته** على الدوام فهو في حياة الشركة حاضر **لاخوته** وفي حياة الليتورجيا حاضر **للكنيسة**، وبواسطة هذا الحضور الثلاثي يكون الراهب **حاضراً لله على الدوام** .

طابع الشهادة في الحياة الرهبانية

الحياة الرهبانية حياة شهادة . هي تشهد بالمسيح . انه طابعها الاول.

الشهادة كدافع ظرفي

وهذا الطابع يجعل اولاً ان الحياة الرهبانية ليست ملجأ ومأوى للكسالى والفاشلين ، أو مهنة لعديمي المهن . وهو أيضاً الذي يبعد عن الحياة الرهبانية الفتور والانتهاء الى الضجر واللامعنى . ولذلك لا بد للمرء لكي يصبح راهباً من ان يكون دافع الشهادة أساساً لاختياره الحياة الرهبانية أو لاستمراره فيها حتى النهاية .

الشهادة كسبب مبدئي جوهري في الحياة الرهبانية

ولكن للشهادة في الحياة الرهبانية مكاناً أعمق من مجرد دافع ظرفي ، أي ان الحياة الرهبانية بحد ذاتها شهادة للمسيح رغم انعزالها مادياً عن العالم وعن الاهتمام بالعالم. الحقيقة ان وظيفة كل مسيحي هي ان «يشهد» بالمسيح بالمعنى القوي العميق ، أي ان يكمل عمل المسيح في العالم ، ان يكمل في جسده آلام المسيح (كو ١ : ٢٤) متشبهاً بموته وعارفاً قوة قيامته (في ٣ : ١٠) وان ينوب عن المسيح ، عن تدبير المسيح الرامي من وراء تجسده وصلبه وقيامته ، الى تجلي الخليقة بأسرها في المكان والزمان (رو ٨ : ١٩ — ٢٢) : نحن في مجابهة وحرب مع العالم ، أي مع روح هذا العالم ، ضد رئيس هذا العالم وجنوده حتى انتهاء التاريخ ،

الى ان يأتي بمجده ويصبح الله الكل في الكل .. (٢ بطرس ٣ : ١٢ و١ كور ١٥ : ٢٨) . ولكن لما كان الرهبان جنود المسيح الى أبعد حد وطليعة جيشه فعليهم أكثر من غيرهم ان يشهدوا بغلبة المسيح على العالم ، لأن المسيح فيهم غالب لكل شيء وليس في قلبهم وحياتهم شيء آخر ... فالراهب بهذا المعنى هو الكائن « المسيحي » الاول (L'être christique par excellence) أي انه يتمثل المسيح الى أبعد حد ويصبح « من معدن » المسيح اذا جاز القول ، اذ يخلي ذاته من كل شيء ليصبح المسيح فيه كل شيء (غلا ٢ : ٢٠) . لقد قال أحد الآباء ان على كل امرىء ان يكون راهباً ، على الأقل ساعة موته : اذ يكون حينذاك في وضع العفة والفقر والطاعة ، كالراهب .. وقال القديس يوحنا السلمي ان الرهبان « يدينون » العالم ، بمعنى انهم يحققون مثال الانسان الكامل فيكونون بذلك « المقياس » الذي يدان على أساسه البشر ... (بهذا المعنى قال الرب يسوع لرسله انهم « سيدينون » أسباط اسرائيل الاثني عشر — متى ١٩ : ٢٨) . واذا كانت عظمة الحياة الرهبانية في ذلك ففيه أيضاً مسؤوليتها الرهيبة .

شهادة الرهبان عملياً في التاريخ

والرهبان عملياً هم الذين دعموا المسيحية ونشروها في التاريخ . هم الذين ، بعد الشهداء ولما انقضى عهد الاضطهادات ، خلفوا الشهداء في عمل الشهادة وفي نوع آخر من الشهادة اذا صح القول ، فتحمّلوا الصدمة الاولى بين العالم والمسيحية الطالعة على العالم . ذلك لأنه ليس قسطنطين الكبير الذي وطّد المسيحية بالفعل في العالم بل انطونيوس الكبير ، معاصره ، الذي صارع في البرية ابليس في جهاد بطولي طوال الليالي والسنين . لا يحارَب ابليس ويصرع حقاً في القصور والمدن بل وجهاً

توجه في البرية حيث صرعه انطونيوس الكبير ودريته في إثر المسيح...
وانطونيوس الكبير هو ابو الرهبان وهم الى الآن ذريته يعيشون من تراثه ويكمّلونه في تقليد حي مستمر عبر رهبنات وأديرة التاريخ ، ذلك التراث الذي هو الحياة الروحية ، أساس وجوهر كنيسة المسيح .

ولا مجال هنا لذكر ما حققه الرهبان في مختلف الاصقاع والأزمنة من تثبيت الحضارة واحيائها واطعام الجياع في المجاعات الكبرى واعطاء الكنيسة القسم الأكبر من لاهوتها وصلواتها ومدبريها القديسين العظام.. انما يكفي القول بأن عدم وجود الرهبان الآن في كثير من البلدان في العالم يضيّع فرصة الشهادة للمسيحيين كما ان عدم وجود الرهبان في كثير من الكنائس يجعل تلك الكنائس فاترة لا تشهد بالمسيح . يروى ان أسقفاً فرنسياً طلب من رؤسائه ارسال رهبان حبساء ليعيشوا في أبرشيته في الصين ويصلّوا من أجل نجاح إرساليته التي لم يكن يجديها نشاطها نفعاً ... ان تأثير الرهبان يتم ويشع عن طريق صلاتهم قبل كل شيء . صلاة الرهبان وحياتهم حياة صلاة هو الأساس والأصل ، وكل شيء آخر يزاد بعدها للكنيسة . ولذلك فلكي يشهد الرهبان للمسيح يجب ان تصبح كل حياتهم صلاة وقد قيل : « اذا كان الراهب لا يصلي الا عندما يصلي فهو لا يصلي ابداً » ...

الشهادة بحسب ضرورات الظرف

واذا دعي الراهب الى خدمة الكنيسة عملياً وفقاً لظروف خاصة ماسة فعليه عندئذ احياء طابع الشهادة الرهبانية وجعله ملموساً ظاهراً دون ان ينكر في الوقت نفسه بقية مقومات حياته أي الشهادة الداخلية بالدرجة الاولى والصلاة . جهاد الراهب ضمن السور يجب عندئذ ان يتجاوز السور . ان ظفر الراهب في صومعته هو ظفر للبشرية جمعاء .

ولكن يُطلب منه أحياناً الظفر أيضاً في خدمة الكنيسة والآخرين في المجال المنظور . وقد تتخذ هذه الخدمة أشكالاً مختلفة متنوعة . فانطونيوس الكبير اضطر الى ترك عزلته في برية مصر والحضور الى مدينة الاسكندرية لمحاربة بدعة آريوس التي كانت تهدد الكنيسة حينذاك . ونساك سوريا غادروا صوامعهم ومغاورهم من كل صوب الى انطاكية ، اجابة لدعوة القديس يوحنا الذهبي الفم لانقاذ المدينة من غضب الامبراطور ثيودوسيوس على أثر تحطيم السكان تمثالاً للامبراطور. والكسندروس مؤسس الرهبان الذين لا ينامون ، في القرن الرابع ، أوفد سبعين راهباً دفعة واحدة من رهبان ديره الواقع على شاطىء الفرات ليجولوا في بلاد ما بين النهرين كارزين بالمسيح في «دير سيار ومجاهد».. هذا عدا الحالات العادية والنشاط في مجال أعمال الرحمة والتعليم والنشر ، وخدمات الكهنة من الرهبان الخ ..

وعلى كل حال فان دعوة الراهب للشهادة خارج الدير لا يقررها هو ، بل يترك أمر اقرارها الى الله تعالى الذي يعلن مشيئته بطرقه الخاصة .. وانما على الراهب ان لا ينساها وان يكون مستعداً لان يستخدمه الله عند اللزوم .

تجربة الفعالية في الشهادة

وعلى الراهب ان يحذر حينذاك تجربة « الفعالية » التي توحي اليه بوجوب تحقيق أعمال ومشاريع ذات شأن وبسرعة وتدفعه الى رغبة الحصول على نتائج ظاهرة حسيّة لعمله وتؤدي به الى فراغ الصبر . فيجب عندئذ ان يتسلح بفضيلة الاعتدال والتمييز لكبح ذلك. ان عمل الراهب مهما كان شأنه ينبغي ان يتم يوماً فيوماً بعناية وجد موجهين كلياً الى عمل كل يوم فيوم ودون ما قلق بل بهدوء النفس وفرحها . والا

فالحماسة الزائدة تنقلب عاجلاً أم آجلاً الى حزن وايضاً يبدا الراهب فيهمل الامور الصغيرة التي تبـــدو له حينئذ تافهة ، وليس في حياة الراهب شيء تافه بل كل أعماله هي لمجد الله وطاعة له ، ويجب انتؤدى كلها بشكل طبيعي وان يصبح كل تصرفه الرهباني تصرفاً « طبيعياً » يومياً ، فالمستقبل لله لا لنا .

الباب الاول : التأمل

الفصل الاول

معنى الحياة الرهبانية

تجد الحياة الرهبانية معناها الحقيقي في ثلاثة أوجه رئيسية هي التالية :

اولا – الحياة الرهبانية حياة تاملية

لا شك ان الحياة الرهبانية حياة خاصة مختلفة عن غيرها. فالراهب يترك الناس والعالم وينعزل في ديره أو صومعته ، وهذا يبدو غريباً في نظر العالم . ذلك لان الحياة الرهبانية تعني قبل كل شيء حياة **تاملية** ، حياة **داخلية** . الحياة الداخلية هي الحياة مع الله والحياة الخارجية هي حياة الحواس دون رؤية الله . والراهب يفتش عن الله لأنه على الانسان ان يجد الله قبل أي شيء آخر : ولكن الله حاضر في كل مكان، والحياة الخارجية تعكس الله عن طريق الاشياء والحواس والعقل . « السماوات تذيع بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه . نهار يبث عنه الى نهار خطاباً وليل يعلن عنه الى ليل تعليماً » (مزمور ١٨) . ولذلك فالحياة في العالم على أنواعها ليست محتقرة : ولكنها تعكس الله بصورة **غير مباشرة** ، أما الراهب فيتوق الى معرفة الله المباشرة . « اني اعجب

الحياه الرهبانية ليست لنا انما تأتينا من الله[1] . انها نداء من الله . لقد ميز الآباء ثلاثة أشكال لنداء الله : ١ – **النداء المباشر** ومثال على ذلك : كان القديس انطونيوس الكبير في الكنيسة يوم أحد فسمع انجيل ذلك اليوم « ان كنت تريد ان تكون كاملاً فاذهب وبع كل شيء لك واعطه للمساكين ... وتعال اتبعني » (متى ١٩: ٢١)فأحس في نفسه بالدعوة المباشرة وقال ان هذا الكلام هو لي فترك لساعته كل شيء وتوحد في البراري وصار ابا الرهبان . ٢ – **النداء غير المباشر** : وهو نداء الله من خلال الكوارث والصدمات او الظروف التي يرتبها الله للمرء حتى يأتي بـــه الى الحياة الرهبانية التي يريـــدها له . ٣ – **اخيراً** : الدعوة الرهبانية التي تجيء بالمرء الى الدير نتيجة لتفكير واستصواب من العقل دون ما حماسة كبيرة بادىء الأمر ، ولكن بعد انخراطه في الحياة الرهبانية تتضح له دعوته وتتجلى . هـذا ولا فضل لأي من هذه الدعوات الثلاث على الاخرى انما العبرة لما بعد وكثيراً ما يسبق أبناء الدعوة الثالثة الآخرين في تحقيق غاية الرهبانية .

ثانياً – الحياة الرهبانية حياة توبة

التفتيش عن الله لا يتم دفعة واحدة ، بل في جهد متواصل ، أي في التوبة . لا خلاص بدون توبة . « لا تستطيع شجرة فاسدة ان تثمر

١ – من الطبيعي ان الحياة الرهبانية ليست لجميع الناس ، بل للذين يدعوهم الله فقط . فالله بحكمته يوزع المهمات ويعين لكل انسان دعود خاصة به . والمدعوون الى الحياة الرهبانية لا يخلصون الا في الحياة الرهبانية ، والرهبان يختبرون ذلك جيداً . وقد قال بعض الآباء القديسين ان الراهب يطالب باكثر مما يطالب به الرجل العلماني ، اذ ليس لدى الله قياس واحد يدين به البشر بل أقيسة مختلفة على عدد كل من البشر وعلى حسب ما يريده منهم .

بالأعمال ولكني متعطش الى خالقها »(اوغسطينوس المغبوط) .ولان الراهب يرى العالم « أحسن » مما يراه غيره اى لأنه يرى العالم « بالله » فهو يسعى الى الله معتزلا العالم . لأنه رأى من خلال العالم انعكاساً بسيطاً من نور الله ومجده فهو يحنّ الى الرؤية المباشرة[1] . « بالنسبة للرجل البار **الاشياء تنير الله** ، أما القديس فيرى الله داخل الاشياء ، **الله ينير الاشياء** » . والوصول الى هذه النظرة للكون لا بد من الرجوع للذات بصورة كاملة . « قبل كل شيء يا اخـوة لنتجه الى أنفسنا » : هكذا يبدأ نيقيفورس المتوحد تعاليمه لتلاميذه . في أنفسنا نلتقي مـــع الله وليست الحياة الرهبانية حياة تأمل في عزلة إلا لأنها تصبو الى لقاء الله في أعماق الانسان[2] .

١ – لا يدخل في موضوعنا بحث كيف يمكن للانسان رؤية الله الفائق الادراك . ان اللاهـــوت الارثوذكسي قد أوضح هـــذه الناحية أحسن ايضاح بلسان القديس غريغوريوس بالاماس (١٢٩٦ – ١٣٥٩) ونحـــن نشير على من يهمه الامر بمطالعة الكتابـــين الصادرين بقلم الاب جـــان مايندورف باللغة الفرنسية :
(St. Grégoire Palamas et la mystique orthodoxe. Introduction à l'étude de St. Grégoire Palamas, Editions du Seuil, Paris 1959)
واللذين يتناولان هذا الموضوع،الاول من الناحية التاريخية والثاني من الناحية اللاهوتية.

٢ – قد يستطيع المرء الوصول الى هذا اللقاء مع الله وهو في العالم.ولكن الامر صعب جداً ونادر وقد سئل مرة أحد آباء البرية عن سبب تركه العالم فأجاب بأنه ليس من أجل الفضيلة ترك العالم بل من أجل الضعف . وعلى كل حال اذا استطاع أحد ذلك فيكون عندئذ راهباً وان بقي في العالم .

ثمراً جيداً » (متى ٧ : ١٨) . التوبة (باليونانية metanoia تعني **تحوّلا** في الانسان ، تغييراً ، انتقالاً من حالة الى حـــالة . فحياة الراهب حياة توبة داخلية دائمة بهذا المعنى . انها سعي نحو الله لا ينقطع ، سعي يستمر كل الأيام . ان أفضل وصف لحالة الراهب قول بولس الرسول : « أنسى ما ورائي **وأمتد** (epectasis) بكل نفسي الى ما أمامي » (فيلبي ٣ : ١٣) . الحياة الرهبانية **امتداد الى الامام لا يعرف الوقوف:** لأن « بلوغ » الكمال سقوط مريع (القديس غريغوريوس النيصصي) . الله هو الحقيقة الوحيدة التي لا يُشبع منها ، وفي التوبة جوع الى الله وعطش اليه لا حد لهما . النفس في طبيعتها تريد الله وتحبه . والنفس ان لم تفتش عن الله تعتم وتظلم . ولكنها ان لم تفتش عن الله فتشت عن اللذة واستُعبدت لها . ثم ملّتها وفتشت عن لذة اخرى . كل سعادة غير الله تُستنفذ وتنتهي لأنها محدودة « ومنتهية » . ولكن عطش النفس لا حدود له . ولذلك لا يرويه شيء الا الله وحب الله . النفس في ملذات العالم تفتقر بدلاً من ان تستغني ، وتفقد حريتها وقوتهـا . سعادة العالم سعادة مزيفة ولذلك نرى العالم فريسة للقلق والجزع : السلام هو في الله اللامتناهي ... النفس التي تنهمك في الأهواء تفرغ وتموت ، و « نسك » الراهب (ascèse) ليس سوى حرب ضد **موت** الاهواء . ان **السلام الحي** (dynamique) سلام الله . الناس اليوم يحتقرون سلام الله . يعدّونه جبناً وموتاً ويفضلون عليه اي عمل كان وأية مغامرة دنيوية . الناس يرفضون السلام المسيحي ويهرعون وراء سلام العالم . سلام العالم موقت، زائل ، « ميت » بخلاف سلام الله . « سلامي أعطيكم ، **لست كما يعطي العالم اعطيكم انا** » (يوحنا ١٤ : ٢٧) سلام الله حي هو ، والانسان فيه لا يصير عبداً لشيء . « حـــق ولا للفضيلة » (Ruysbroeck l'Admirable) فالفضيلة ليست هدفاً و « الامتداد » الى الأمام يستمر. وكلما عرفنا الله كلما ازددنا عطشاً الى معرفته . وكلما نلنا فهماً مـن الله

ازددنا مقدرة على الفهم . وكلما استوعبنا ازددنا اتساعـــاً ومقدرة على الاستيعاب . « ما كنتَ لتلتمسني لو لم تكن قد وجدتني » (باسكال). الانسان مخلوق هو ، ولكنه مقبول على مائدة الله . « خُلق الانسان بعيداً عن الله بغير حد ولكنه أُمر بأن **يصير الهاً** » (باسيليوس الكبير). ان كل « وصول » الى الله « صنم » وعبادة أوثان ، و « الحصول عـلى الله هو بالضبط التفتيش عنه دون انقطاع » (غريغوريوس النيصصي). وهذا لا يتوقف بعد الموت بل يستمر في الحياة الآخرة ، وليست حياة الراهب سوى تذوق مسبق لطعم الأبدية[1] .

– عما تقدم ينجم للراهب أمران عمليان :

١– على الراهب ان لا يقف ابداً في عمل التقدم الداخلي : يروون عن القديس سيسويي الكبير[2] انه لما كان على فراش الموت ، واخوته الرهبان حوله يحيطون به لوداعه ، لاحظوا ان وجهه أشرق فجأة واستنار فسألوه : ما لك أيها الأب سيسويي ؟ فأجاب : اني أرى ابانا القديس انطونيوس الكبير . ثم لاحظوا بعد فترة ان وجهه قد ازداد اشراقـاً وضياء فسألوه : مَن ترى الآن يا أبانا سيسويي ؟ فأجاب : أرى الرسل القديسين الكرام ... ثم بعد فترة اخرى أبصروا وجهه يزداد اشراقاً

---

١ – ان التوبة كما اختبرها القديسون وعبروا عنها في الكنيسة تجمع دائماً بـين ضدين : الشعور بخطيئة الانسان وصغره من جهة والشعور بقداسة الله وعظمته من جهة ثانية . فنلاحظ في صلوات الكنيسة ان صرخات « يارب ارحم » كثيرة (انها تعبر عن التوبة الدائمة « يا رب رحمتك الى الابد ») وانها مقرونة دائماً بصرخـات « المجد للآب والابن والروح القدس » (انه التوق الى مجد الله وديارة : مـا أحب مساكنك يا رب القوات (مزمور ٨٣ : ١) والى « اللذة التي لا نهاية لها » (صلاة الشكر بعد المناولة) .

٢ – القديس سيسويي الكبير ولد في مصر نحو سنة ٣٣٩ ورقد نحو سنة ٤٢٩ . توحد في صحراء الاسقيط المصرية . تعيد له الكنيسة الارثوذكسية في ٦ تموز .

ونوراً ولمعاناً الهياً فسألوه : والآن مَن ترى أيها الأب سيسويي ؟ فقال أرى سيدتنا مريم العذراء والدة الاله . ثم شاهدوه يتمتم بشفتيه كأنه يتكلم مع احد فسألوه بماذا تتكلم فأجاب : اني أتضرع الى العذراء والدة الاله ان تتشفع لي لئلا أموت الآن بل أبقى زمناً آخر في الحياة لكي يتسنى لي ان أبدأ بالتوبة .. » الشيخ سيسويي ، الشهير بين آباء البرية والذي قضى حياته في الأصوام والأسهار والاتعاب ، يقول على فراش الموت عند مشاهدته بهاء المجد السماوي انه لم يبدأ بعد بالتوبة !

٢ – على الراهب ان لا ينتظر نتيجة ومفعولا لجهاده حتى الموت:

يروون ايضاً « ان الشيخ بافنوتيوس المتوحد كان ذات يوم ماراً في قرية تكثر فيها حوادث الدعارة دون خجل فوقع نظره على خطايا سكان تلك القرية في الطريق فما كان منه الا ان بكى بكاءً مراً طالباً الى الله ان يغفر له خطاياه هو .. » فالراهب لا ينتظر نتيجة لنفسه انما يضع نصب عينيه الله والله فقط . ومن اجل هذا ، من أجل ان الراهب لا يطلب لنفسه ولا يتوقع منها ثمراً ما ، حتى ولا الفضيلة ، فالعالم يعدّ حياته فاشلة عقيمة . أما هو فيتابع الصعود .

ثالثاً – الحياة الرهبانية حياة تمجيد كالملائكة

كل مخلوق كائنٌ نال من الله وجوده وامكانية استمراره في الوجود. الله وحده موجود وجوداً مطلقاً ، وكائن ومحقق : الله هو الحقيقة . أما نحن وسائر المخلوقات فخليط من الحقيقة والعدم . الملائكة أنفسهم يزدادون وجوداً وكياناً بغير منتهى (السر الغير المعلوم عند الملائكة) والازدياد في الله يتطلب اولاً « الاقامة » فيه والتأسس فيه . فينتج عن ذلك وضع خاص قائم على حالة وحركة في آن واحد . فنكون مقيمين في الله من جهة ، ومنجذبين اليه من جهة ثانية ، عائشين فيه

ومتجهين اليه . ان الحالة الرهبانية حركة . ولكون الملائكة في هذا الوضع ، لكونهم « يحدون » الله تنبعث منهم تلقائياً صرخات التمجيد بلا انقطاع . والرهبان أخذوا على عاتقهم تمجيد الله على الارض والترتيل له بصورة دائمة بالمزامير والصلوات. وهم الذين اوجدوا الذكسولوجيات والتسابيح والليتورجيا : اي التمجيد السماوي على الأرض . فالراهب لا يستطيع التوقف عن التمجيد لانه يرى الله[1] .

رابعا – الحياة الرهبانية تجدد الذهن وتعطي معرفة

هذه النقطة مرتبطة بالنقطة السابقة ، ويمكن تعريف المعرفة الجديدة التي تنفتح أمام الراهب بمعرفة « تمجيدية » (connaissance doxologique) . ان الحياة الرهبانية في الواقع تجدد نشاط الراهب وتخلق ذكاءه خلقاً جديداً . ان بولس الرسول يوصينا بأن : « جددوا أذهانكم » (رومية ١٢ : ٢) وان : « ليكن فيكم فكر المسيح » (فيليبي ٢ : ٥). فالانسان المسيحي (الذي له فكر المسيح) هو الذي تفتحت له عينان جديدتان نحو السماء ، و « الفهم » الحقيقي هو النظر الى العالم بعيني المسيح . انها « البصيرة الحسنة » التي يتكلم عنها المرتل (مزمور ١١٠ : ١٠) . والرهبان أعطوا الكنيسة والعالم المسيحي « العلم » : التسابيح الليتورجية والعقائد الالهية والطرق العملية التي تؤدي الى الله (ما يسميه الآباء علم العلوم) . ولذا يجب ان لا يهمَل العمل العقلي في الاديرة . بل على الراهب ان يتعلم ويطالع مؤلفات

---

١ – هذا ليس بأمر غريب انما تلك هي طبيعة الامور والمرتل يهتف مَن كل قلبه: « طوبى لسكان بيتك ، انهم الى الابد يسبحونك » (مزمور ٨٣ : ٤) و« تسبيحي لك يزيد باطراد » (مزمور ٧٠ : ١٤) لأن « سكنى الجوع فيك (اي اورشليم السماوية) سكنى جوع تتهلل » (مزمور ٨٦ : ٧) . والصلوات الكنسية تتحدث عن « انت الذي تسبحه الملائكة بغير فتور » وعن « لحن المعيدين الذي لا يفتر » ، « الآن وكل اوان والى دهر الداهرين » .

الآباء ويتأمل فيها . وعليه ان يعتبر عن اختباراته الجديدة عند الاقتضاء ، لا ان يحتفظ بها لنفسه . انها عطية من الله وكل ما نعطاه ليس لنا بل يجب ان نعطي ما عندنا للآخرين متمثلين « بفكر » المسيح « الذي اذ كان في صورة الله أخلى ذاته » (فيليبي ٢ : ٦و٧) من أجل البشر[1] .

وبايجاز الحياة الرهبانية تسبق فتمثل حياة الآخرة منذ الآن :

انها « سيرة ملائكية » (Vios angelicos) وذلك لا ككلام او رمز انما كواقع وحقيقة . وصف ديونيسيوس الاريوباغي الحياة الرهبانية بأنها « **السر الثامن من اسرار الكنيسة** » فكما ان السر يحضر نعمة الله غير المنظورة بواسطة المادة المنظورة وتحت شكلها ، كذلك الحياة الرهبانية تحضر وتحقق الحياة الابدية في هذه الحياة الأرضية . انها سر المسيح الذي هو سر موت وقيامة . الراهب يموت عن نفسه وعن هذا العالم ليقوم في المسيح وفي العالم الاتي . سر المسيح هو القيامة عن طريق الموت . الصليب هو القيامة في الموت . ولكننا نحن نموت في **قيامة** المسيح الحاصلة **قبل** موتنا : يسوع مات ليقيمنا معه وذلك **بالمعمودية** التي يشركنا بواسطتها منذ الآن بالحياة الأبدية ، بحياة النمو الداخلي المستديم ، فنغدو هكذا « **سفراء** » **الملكوت** قبل مجيئه ، عينات و « مساطر » للملكوت . الحياة الرهبانية سر التكريس الكلي لله ، السر الثامن حقاً من أسرار الكنيسة .

---

١ ـ ان ما يجري بين الله والنفس المتحدة به يعجز التعبير عنه . ثم في كثير من الحالات يحسن الاحتفاظ بالاختبار الروحي الشخصي : « ان سري هو لي » . ولكن لا يجب الاحتفاظ بما يمكن التعبير عنه وما يفيد الآخرين . هذا وفي النهاية يصبح « التعبير » عن امجاد الله تلقائياً و « تمجيداً » : وفي هيكل قدسك كل يتحدث عن مجدك » (مزمور ٢٨ : ٩) . « ان فمي يتكلم بالحكمة وقلبي يلهج بالفهم » (مزمور ٤٨ : ٣) « أكشف ألغازي على القيثار » (مزمور ٤٨ : ٤) .

الفصل الثاني

كيفية التزام الراهب في الحياة الرهبانية

كيف « يلتزم » الراهب في الحياة الرهبانية ؟ جواباً على هذا السؤال سنكتفي الآن بتقديم **وصف لصورة الراهب**، لصورته الروحية التي تعبر عن كيفية التزام كل حياته في ديار الرب .

اولا : اين نجد صورة الراهب ؟

اين يجب البحث عن صورة الراهب الروحية ؟ المعمودية تعود للجميع . وكذلك بقية الاسرار الكنسية ، فلا يختص الراهب بأحد منها دون غيره من المؤمنين . فأين نجد الراهب ؟ نجده على الصليب ، صليب المسيح . **الراهب هو الانسان الذي يعيش على صليب المسيح.**

هذا الوضع اولاً مبني على الانجيل : « من اراد ان يتبعني فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني » (مرقس ٨ : ٣٤) .

وهذا الوضع ثانياً سر ، هو سر الصليب المرتبط بالقيامة، سر الموت والقيامة النابعة من الموت نفسه . قبل المسيح كان الموت عدم الحياة . فجاء يسوع وقال : « حبة الحنطة ان لم تمت تبقى وحدها وان ماتت

أتت بثمر كثير » (يوحنا ١٢ : ٢٤) ، فصار الموت مصدراً للحياة :
لكي نحيا يجب ان نموت .

الموت والحياة ضدان لا يجتمعان . هما الامران الاكثر تضاداً في الوجود . ولكنهما اجتمعا وتصالحا بيسوع ، بالصليب : يسوع يموت على الصليب وغلبة الموت حينذاك غلبة كلية . الرب ممدّد على الصليب : ولكنه بهذا عينه غلب الموت وحطم الجحيم . فالقيامة بدأت بموت يسوع ، القيامة بدأت في الجحيم « الصخور تشققت والقبور تفتحت . . » (متى ٢٧ : ٥٢) . لقد طعن يسوع بحربة بعد نحو ثلاث ساعات من موته : « فخرج للوقت دم وماء » (يوحنا ١٩ : ٣٤) . لا يخرج دم وماء من جسد مائت منذ ثلاث ساعات . اما جسد يسوع فخرج منه دم وماء وأكد يوحنا الانجيلي على حقيقة ذلك بقوله في هذا الموضع من انجيله بالضبط : « والذي شهد عاين وشهادته حق وهو يعلم انه يقول الحق لتؤمنوا انتم » (يو ١٩ : ٣٥) . كل هذا يعني ان جسد يسوع منذ لحظة موته بالضبط انتصر على الموت وصار جسداً ظافراً ، جسداً محيياً ، وانه « بعيش » يسوع الموت صارت القيامة والحياة[١] . القيامة والموت مرتبطان ارتباطاً كلياً : لكي نحيا يجب ان نموت .

ولكن موتنا هذا ليس موتاً مغلقاً ، بل موت منفتح ، موت مشرق ومحيي : ان خدمة سبت النور تعبر عن هذا السر الكبير ، اذ يشرق النور من القبر بالذات أي ان النور ، نور الحياة ، يشرق من

١ ـ ان القطع الليتورجية التي تتناول هذه النقطة بالذات لأكثر من ان تحصى . فتسابيح ايام الاربعاء والجمعة والاحد من كل اسبوع ـ عدا خدمة عيد الصليب ـ تكرر على مدار السنة ، وبأشكال مختلفة ، حقيقة « العود المحيي » و « القبر الواهب الحياة » و « الجنب الذي طعن فأنبع عدم الموت » والجحيم الذي لم يكن بمقدوره الاحتفاظ بمبدع الحياة » والموت الذي « ابتلع » في الحياة الخ ..

الموت الذي لم يعد موتاً . « واما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وتكون لهم اوفر » (يوحنا ١٠ : ١٠) .

وهكذا ، على صليب المسيح المحيي ، **الراهب انسان يموت ويقوم دون انقطاع** : يموت للعالم ليقوم في المسيح ، يصلب ذاته للعالم لتكون له حياة « أوفر » في المسيح ... كيف يصلب الراهب ذاته للعالم دون انقطاع ؟ ان الصليب في التقليد الارثوذكسي يتضمن أربعة مسامير[١] وهذه المسامير ترمز روحياً الى النذور الرهبانية : **العفة** ، **والفقر** ، **والطاعة** ، وهذه الثلاثة **حتى الموت** وهو النذر الرابع (الصبر) المعني ضمناً في النذور الثلاثة ، والذي يثبت الراهب بموجبه على الصليب حتى النهاية حسب وصية الرب : « بالصبر تقتنون أنفسكم » (لوقا ٢١ : ١٩) « من يصبر الى المنتهى فهذا يخلص » (متى ٢٤ : ١٣) .

تلك هي صورة الراهب الروحية مصلوباً على صليب المسيح المحيي بمسامير النذور الرهبانية الأربعة .

ثانياً : ماذا يحقق الراهب على الصليب ؟

ان كلمة راهب باليونانية (monachos) تعني « المتوحد » أي من يعيش وحده منعزلاً عن الناس . ولكن لها ، عدا هذا المعنى الخارجي معنى آخر داخلي ، اذ ان لفظة (monachos) مشتقة من لفظة (monos) أي « الواحد » ، فالراهب من هذه الناحية هو الانسان الذي يعيش « وحدة » الطبيعة البشرية ، الذي « يوحّد » في ذاته الطبيعة البشرية .

١ ـ ان التقليد الارثوذكسي يرسم المسيح مصلوباً على الصليب بأربعة مسامير ـ لا بثلاثة ـ لأن كل رجل مسمرة بمسمار على حدة .

بطبيعته مع الله في الفردوس ، ولكن هذا الانسجام خطم بالخطيئة ، فأمسى الله مصدر خوف وقلق بدلاً من ينبوع وجود وغبطة . وأمسى الكون مكان عمل وكدّ بدلاً من فردوس وحطمت الطبيعة الانسانية في ذاتها فصار الروح فيها ضد العقل والعقل ضد العاطفة والعاطفة ضد الارادة والارادة ضد الجسد .

ولكن الرب يسوع جاء فسحق رأس الحية ، حطم « سياج العداوة المتوسط »[1] السياج الفاصل بين الله والانسان وبين الانسان وأخيه الانسان ، وفي الانسان ذاته بين الله والروح ، والروح والنفس ، والنفس والجسد . وأعاد المسيح وحدة الانسان على صورة الله ومثاله . ولكن هذه الوحدة الجديدة أقوى وأكثر نوراً من وحدة آدم ، لأن المسيح آدم الثاني أكمل من آدم الاول . هذا كان في بدء الطريق فقط ، أما الثاني فقد أكمله وحقق في شخصه غاية الخليقة .

أما الراهب فليس سوى الكائن الذي يتبع المسيح بكل تواضع في ذلك الطريق ، حاملاً صليبه ، لكي يقتني تلك الوحدة المفقودة ويحطم عناصر الخطيئة فيه ، واذا ما مات عن الخطيئة وقام مع المسيح حقق وحدة الطبيعة البشرية فيه . فالمجتمع الديري الرهباني هو بالنتيجة استعادة وتحقيق لوحدة الطبيعة البشرية ، وهذا يتم بواسطة النذور الرهبانية : في العالم تجارب واسباب تفصلنا عن الله . في الدير نعيش حياة النذور الرهبانية لكي نتصل بالله . ليست النذور تعهداً على اساس عقد او وفاء دين او ما شابه ذلك : لا ينبغي ان نجدد على هذه الصورة

١ ـ راجع قطعة ذكصا كانت في صلاة الغروب عشية السبت ـ اللحن الاول

القانونية الضيقة نذوراً هي بالحري حالة ، هي طريق يجب السير فيها الى الأبد [1] .

ذلك هو التزام الحياة الرهبانية ، وفي الحقيقة كل مسيحي ـ كل معمد ـ راهب هو . الراهب نموذج للجميع[2] . الرهبانية مقياس الحياة المسيحية الكاملة . كنيسة بدون رهبان ينقصها أساس الحياة المسيحية ينقصها ذلك الملء المسيحي (plénitude christique) الذي يعطي للحياة المسيحية معناها ومبناها . قال الفيلسوف الدنمركي كيركغورد : « كل بؤس العالم وشقائه متأت عن عدم توفر الرهبان » لأن العالم بدون رهبان يسير دون ما هدف وهداية ، يجرفه التيار ويلعب به كما يشاء ، ولأن الرهبان بمثابة مراس في وسط الزوبعة . وقد قال الشاعر الفرنسي فكتور هوكو : « الرهبانية هي العين التي تنظر الكنيسة بها العالم اللامتناهي » .

ثالثاً : حرية الالتزام في النذور الرهبانية

رأينا ان الراهب هو من يحقق وحدانية الطبيعة الانسانية وتماميتها ، وقد بقيت الطبيعة الانسانية محطمة بعد انحراف آدم حتى تقومت بموت المخلص وقيامته فالنذور التي ينذرها الراهب هي بمثابة **جواب الانسان الحر على نداء الرب وتدبيره الخلاصي** . انها تعبّر عن حرية الانسان في تلبية دعوة الخلاص . وطقس أداء النذور يوضح ذلك جلياً . خاصة

١ ـ سنعود الى بحث النذور الرهبانية تفصيلاً فيما بعد .

٢ ـ الراهب يبقى علمانياً في التقليد الشرقي ولا يعتبر من مصاف الاكليروس . نعم هو انسان مكرس لله وقد قبلت الكنيسة تكريسه رسمياً في طقس معين ، ولكن ليس لهذا التكريس صبغة الرسامات الكهنوتية بالمرة . ثم ألسنا جميعنا بالنتيجة مكرسين لله شئنا أم أبينا ؟

عندما يتناول المطران او رئيس الدير المقص الذي سيقص به شعر رأس المتبدىء فيضعه فوق الانجيل المقدس ويقول له : « خذ المقص وادفعه اليّ » فيدفعه اليه الا ان المطران أو رئيس الدير يكرر هذه العملية ثلاث مرات قبل ان يقص شعر رأس المبتدىء[1] . فالراهب هو الذي يقدم نفسه بنفسه لله ناذراً ذاته اليه . « أوفي نذوري للرب أمام كل شعبه » (مزمور ١١٥ : ١٨) .

والنذور بمثابة تقدمة الذات للرب **ككائن خاص بالله** . النذور تفيد موت الانسان العتيق وولادة الانسان الجديد . ولذلك يعطى الاسم الجديد أصولا عند اداء النذور فقط (انظر خدمة تقليد الاسكيم الرهباني الصغير) . فالاسم يرمز الى كامل شخصية الانسان ، وتغيير الاسم يشير الى تغيير الانسان بكامله . هذا وليست النذور سوى وسائل نسكية ومستيكية للاشارة الى موت الانسان العتيق وولادة الجديد . أما التحقيق فيستمر طول هذه الحياة ، ويستمر ايضاً بعد الموت في الحياة الاخرى .

١ ـ انظر كتاب الافخولوجي الكبير ص ٢٠٥ ـ طبعة سنة ١٩٥٥

الفصل الثالث

نذر العفة أو البتولية

رأينا في الفصل السابق ان الراهب « يلتزم » في الحياة الرهبانية بواسطة النذور الاربعة ، او المسامير الاربعة التي يصعد بها على صليب المسيح فيحقق قيامة الطبيعة البشرية وكالها . وسنوضح في هذا الفصل أول هذه النذور ، نذر العفة أو البتولية : ما هي ، ما هي علاقتها بالزواج ، ما هي علاقتها بالقيامة ، كيف يحافظ عليها أساساً[1] .

ما هي البتولية

ليست البتولية هنا عدم ممارسة العلاقات الجنسية وحسب : فقد قال القديس باسيليوس الكبير « لست أعرف امرأة ومع ذلك فاني لست بتولاً » . فالبتولية الرهبانية ليست وضعاً خارجياً بل حالة : هي الطهارة الداخلية القلبية ، الطهارة بالمعنى الكلي للكلمة . والبتولية الرهبانية ليست « فضيلة » ، أي غاية بحد ذاتها ، بل هي واسطة نرتقي بها الى شيء أعظم .

ان شرط الطهارة ان **يحفظ المرء ذاته تاماً** غير منقوص ، أي ان

١ ـ سنستعمل لفظة البتولية (virginité) اذ يبدو انها هنا أصح من لفظة العفة (chasteté) بشرط فهمها بمعناها الكلي . ويلاحظ ان الآباء القديسين قد استعملوها هي في ابحاثهم الرهبانية .

يحافظ على كيانه واحداً غير مجزأ ، ان يُبقي كل كيانه (الجسدي والاخلاقي والروحي على السواء) طاهراً غير ملوث وغير منثلم ، ان لا يسمح للخطيئة بالدخول اليه .

ان آدم وحواء — الانسان الاول — كانا « واحداً » . ولكنهما بالخطيئة انقسما وانفصلا . (ان لفظة « جنس » بالفرنسية sexe تعني في أصلها اللاتيني الانقسام والانفصال (sexe - seccare - séparer) والآن الرجل والمرأة عبثاً يحاولان الاتحاد مجدداً على صعيد الجسد .

ولذا فغاية بتولية الراهب بالنتيجة هي اعادة وحدة الطبيعة الانسانية وكالها لأن على كل قوى الانسان ، نفساً وجسداً ، ان تعمل متوافقة من أجل الكمال . ولان كال الانسان ان يجمع ذاته في الله لا ان يتشتت . ولان البتولية تجمع الانسان (نفساً وجسداً) في حب الله .

البتولية والزواج

الزواج لا يناقض البتولية أصلاً ، ولا البتولية تناقض الزواج . فسر الزواج سر الطهارة هو . كانت غاية الزواج قبل المسيح — ومنذ خطيئة آدم — ان يأتي المسيح لخلاص البشر (أنظر تكوين ٣ : ١٥) . وغاية الزواج بعد المسيح هي توحيد البشر في المسيح ، هي اعادة خلق البشر في المسيح عن طريق اعطاء أبناء للكنيسة وعن طريق صنع الكنيسة اذا جاز القول . « ان هذا السر عظيم » (سر الكنيسة) ، لانه سر اتحاد الخليقة مع المسيح من جديد واستعادة كالها فيه .

ولكن الراهب لا يحقق وحدة طبيعته عن طريق سر الزواج ، بل بالزواج الروحي ، أي باتحاده مع المسيح وتوحيد ذاته فيه . والراهب لهذا يفهم سر الزواج اكثر من الجميع ويحققه اكثر من الجميع : انه يفهمه ويحققه في أقصى غاياته وأسمى معانيه[1] .

والبتولية بالنتيجة أخصب من الزواج . فالراهب بصلاته والتصاقه بالله يعطي أبناء روحيين للكنيسة في خصب لا يقاس بخصب الزواج[2] .

ان مثال بتولية الراهب هي بتولية العذراء مريم البتول والام معاً ، « العروس التي لا عروس لها » . (هل تأملنا كفاية بالمعنى العميق لهذا المديح للعذراء الذي تكرره كنيستنا تكراراً بليغاً ؟) . ويعلمنا الآباء ان على الراهب الاستمرار في تحقيق بتوليته ، على منوال العذراء ، الى

---

١ - ان فكرة الاتحاد بالله في زواج روحي فكرة كتابية اصيلة نجدها عند الانبياء هوشع وارميا وحزقيال واشعيا وبصورة خاصة في سفر نشيد الانشاد . والجدير بالملاحظة ان الآباء الذين بحثوا في البتولية بحثوها بالنسبة للزواج اي كسر روحي ، معتبرين اياها غير مناقضة للزواج وانما أرفع منه لانها تذهب في الطريق الى نهايتها، الى سر الاتحاد الاكبر . « فالاعراس الحقيقية هي أعراس البتولات » .

٢ - ان للعقر والخصب في الكتاب المقدس قصة طويلة ترينا الخصب الحقيقي وراء العقر الظاهر : ابتداء من عقر سارة وابراهيم الذي صار اباً للمؤمنين (سفر التكوين ١٥ ٢) ، الى عقر حنة ام صموئيل النبي الذي مسح الملك داود جد الاله (سفر الملوك الاول ١ : ٥ - ٢٠) ، الى عقر اليصابات التي ولدت يوحنا السابق (لوقا ١ : ٥-٢٥) وحتى سر ولادة مريم العذراء للسيد المسيح التي ينجلي بهـا المعنى الرمزي العميق لحوادث العقر السابقة : البتولية (العقر المطلق بشرياً) تلد الخصب المطلق ..

- اما مفتاح هذا الخصب فهو المحبة : فلأن محبة الله تقيم في قلب العذارى المكرسات للمسيح تتسع محبتهن بالنتيجة الى البشر اجمع في امومة روحية وحقيقية (الامومة الحقيقية هي امومة المحبة) . وكذلك الامر بالنسبة للمتبتلين .

- الا ان هناك حجة الناس القائلة : « اذا تبتل جميع البشر أفلا تنقرض البشرية؟ هذا افتراض غير وارد في الوقع . ومع ذلك فقد رد عليه اوغسطينوس المغبوط بما معناه : اذا افترضنا ان جميع الناس سلكوا طريق البتولية فلن يكون هذا شراً وان انقرضت البشرية . لأنه اذا سادت العفة بين الناس محبة بالله وتكريساً له فهذه غاية البشرية والافضل ان تنقرض بالوصول الى غايتها من ان تستمر في الاهواء .

ان يولد فيه المسيح ، الى ان « يحل عليه ندى الطهارة والروح القدس كحلوله على البتول » (القديس يوحنا السلمي) .

البتولية والقيامة

ان البتولية الرهبانية – عبر محاربة الأهواء والضعفات – تجد معناها الاخير في القيامة . انها « تقيمنا » في القيامة منذ الآن . قبل المسيح كنا نخلق للموت ، نأتي الى الحياة حاملين دينونة الموت في طبيعتنا ، فكان الموت مقيماً في صميم الحياة . ثم أبطل يسوع الموت فأصبحنا نولد من أجل الحياة ، رغم ثقل الموت فينا ، أي صارت الحياة مقيمة في صميم الموت . ولكن البتولية تتجاوز خليط الموت والحياة هذا : بالبتولية نموت عن العالم وأهوائه (تلك الأهواء الفاعلة في الزواج) أي بالبتولية ننفصل عن تيار الموت ، ومن ينفصل عن تيار الموت محققاً نقاوة الروح يقتل الموت فيه ويعتق حياته من أجل المسيح داخلاً عالم القيامة[1] .

فالبتولية الرهبانية هي الحكمة الكاملة بالنسبة للانسان. والزنار هو الذي يرمز اليها في الزي الرهباني: وكأنه مشدود في الوسط ليمنع هذه الحكمة من الانحدار من المنطقة العليا الى المنطقة السفلى. لقد مات البتول عن المنطقة السفلى وقام **فنال بداية عدم الفساد** . « البتول انسان وان كان يعيش في جسد فاسد الا أنه منذ الآن وقبل القيامة العامة منبعث غير فاسد » هكذا يتكلم القديس يوحنا السلمي واصفاً ظفر البتولية

١ ـ « لانهم متى قاموا من الأموات لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة في السموات » (مرقس ١٢ : ٢٥) « ومنهم من خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات » (متى ١٩ : ١٢) : انها النظرة « الاخروية » المتجهة نحو الملكوت الآتي ، ملكوت القيامة .

وعلبتها حق بالمعنى الجسدي . وهو يروي ان راهبا شاهد يوما امراة جميلة جداً فأجهش بالبكاء من شدة الفرح شاكراً ومسبحاً الله على هذا الجمال الرائع . وروى القديس مكاريوس المتوحد قائلاً « لم أصر انا بعد راهباً ولكني رأيت رهباناً : كنت يوماً على شاطىء البحر فشاهدت رجلين عاريين يمشيان على وجه الماء فجاءا اليّ وصليا معي وكلماني ثم رجعا على المياه » . كانا عاريين ولم ينتبها الى عريهما .. هذا وكثيراً ما تذكر قصص الآباء رائحة طيبة غريبة تفوح الى مسافة كبيرة حول مكان اقامة بعض المتوحدين : انها رائحة القداسة الناجمة عن طهارة الاجساد.

كيف تحفظ البتولية

لا بد لحفظ البتولية من حدّ أدنى من النسك والنظام الواقي والانضباط : في الاكل (تقليل كمية الطعام حسب مزاج كل واحد وحاجته الروحية) ، في الكلام (الاعتياد على الصمت وتجنب الكلام البطال) ، وفي الفكر (طرد التصورات المضرة وحفظ صفاء الذهن). ولكن الشرط الاساسي لحفظ البتولية يبقى **الصلاة** :صلاة القلب المحب الذي يتوق الى الله ويطلب الاتحاد به دون سواه. **لا بتولية بدون حب**: « الانسان الطاهر هو الذي أحل الحب الالهي محل الحب الجسدي » (القديس يوحنا السلمي). « ومن يحاول ردّ هجمات الاهواء عن طريق العفة الجسدية فقط يشبه من يحاول الخروج من دوار البحر وهو يسبح بذراع واحدة » (يوحنا السلمي) .

الفصل الرابع

نذر الفقر

هو المسار الثاني الذي يبجن الراهب به نفسه على صليب المسيح في توقه للقيامة منذ هذه الحياة .

الفقر للراهب يعني اولاً واقعاً اجتماعياً ، فلا يملك الراهب ولا يحق له ان يملك مايملكه الآخرون وكما يملكه الآخرون .

ويعني ثانياً واقعاً معنوياً اخلاقياً ، فيعيش الراهب حياة الفقراء ويتحسس للألم الذي يتألم الفقراء ظلماً .[1]

ولكن ما يهمنا الآن هو المعنى الروحي لنذر الفقر ، وهو معنى عميق يلقي عليه ضوءاً غريباً .

١ – للفقر اولا وجه نسكي تقشفي اي انه جزء من الجهاد النسكي ، من الحرب النسكية التي يخوضها الراهب في طريقه الى هدفه . والفقر الرهباني من هذه الناحية هو حركة انسلاخ ، حركة تجريد وتنازل

١ – وتجدر الملاحظة هنا ان تبني الفقر على هذا الاساس انما ينبثق عن تعليم المسيحية ، فالمسيحية لا تتجاهل مشكلة الفقر بوجهيها الاجتماعي والاخلاقي ، بل كانت اول من وجهت نظر البشرية اليه وعملت على مكافحته . المسيحية « وعت » الفقر .

اختياري عن خيرات العالم – وذلك لا احتقاراً للعالم بل تفضيلاً لما هو أفضل منه ، اعني الله خالق العالم .

٢ – وللفقر ثانيا وجه صوفي ميستيكي يمت الى درجة أعلى من النسك هي التأمل والمعرفة :

كل كائن مخلوق يحتاج لزاماً الى امتلاك شيء آخر خارجاً عنه : طعام ، ماء ، هواء الخ ... الله وحده لا يحتاج الى شيء آخر ، لأنه كائن بذاته . اما الكائن المخلوق فلا يكفي ذاته بذاته وهذه بالضبط علامة «عدمه» .

ولأن الانسان يملك شيئاً ضرورياً لحياته فعن هذه الغريزة بالذات تنتج الانانية . الأنانية اولاً على حساب الآخرين : العطش الى الملك لا حد له (بسبب العدم الذي فينا بالضبط) ، انا اريد كل شيء لي . ولكن الأنانية ايضاً على حسابي . ليست الانانية خطيئة ضد أخي وحسب بل ضدي وضد طبيعتي : عندما أملك شيئاً أرتبط بما أملك وأخضع له . الأنانية ارتباط بالاشياء وخضوع لها وتوهم بأن وجودي وحياتي متوقفان عليها . وهكذا وبدون ان أشعر اصير عبداً لها فتخفي عني الله ، مصدر وجودي الاخير . الثروة حاجز بين الانسان والله . الثروة « وسواس » . « سأهدم اهرائي وأبني غيرها أوسع منها »[1] ..

١ – لنتحرر من عبودية المال ما لم ننظر اليه كأنه ليس لنا . فالثروة في الحقيقة ليست لنا حتى عندما نقتنيها . ولن نكون مسيحيين ما لم نطبق قول بولس الرسول: « يكون الذين يشترون كأنهم لا يملكون والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه » . لن نكون مسيحيين ما لم نعمل بقول النبي داود : « ان فاض غناكم فلا تنصرف اليه قلوبكم » (مزمور ٦١ : ١٠) .

اما الراهب فهو الانسان الذي يحقق بالفقر تجريداً يعيده اكثر فأكثر الى يدي الله . في الحياة الروحية قاعدة تكاد تكون عامة : كلما قلّت التعزيات البشرية زادت التعزيات الالهية . ان لتجريد الذات ، « للعري » كما يسميه الآباء ، أهميته الكبرى في وجود الله . « ابي وامي هجراني اما الرب فقبلني » (مزمور ٢٦ : ١٠) اي عندما يتخلى عني ابي وامي عندئذ الرب يقبلني . عندما انفصل عن كل شيء أجد الله الذي لا يفصلني عنه شيء ولا أحد . قال اكهارت : « ليس الا أمر واحد يجبر الله على ان يملأ هو نفوسنا : افراغ ذواتنا ، تجريد النفس من كل شيء » . الله يحب الفراغات الكبيرة ، الوديان العميقة ، فيأتي ويملأها . للانسان الملك (l'avoir) أو الكيان (l'être) . والراهب هو الذي يتنازل عن الملك ليربح الكيان ، لأن من يريد الملك يخسر الكيان واضعاً ذاته وكيانه في الملك[1] .

ان الرب يسوع يلح كثيراً على تجريد الذات[2] . وذلك لا لأسباب اجتماعية فقد قال نفسه « ان الفقراء معكم في كل حين » . بل من اجله هو ، من اجل شخصه : « ولكن أنا لست معكم في كل حين » . فهو الكائن الوحيد الذي يجب التماسه . هو الكيان . كان الشاب الغني يحفظ جميع الوصايا منذ صباه ، ولكنه عاد حزيناً اذ لم يشأ ان يتخلى عن املاكه ليلتصق بيسوع . بل « من لا يبغض اباه وامه واخوته .. فلا يستحقني » ، وليس البغض هنا من أجل البغض (فالمسيح هو المحبة

١ ـ ان هذا الوجه الايجابي للفقر يظهر جلياً في طروبارية القديس يوحنا الذهبي الفم : « لقد وضعت للعالم كنوز عدم محبة الفضة ... »

٢ ـ « لا تقدرون ان تعبدوا ربين ، الله والمال » . « انه لأيسر ان يدخل الجمل من ثقب الابرة من ان يدخل غني الى ملكوت الله » . انظر ايضاً مثل لعازر والغني الذي لم يدخل السماء لانه كان يثقه على الارض... وايضاً مدح يسوع ليوحنا المعمدان الذي لم يكن يلبس الثياب الناعمة ... الخ ...

بالذات) ، بل كشرط للتأليه . لكي نستحق الله لا بدّ من ان نرفض العالم .

الفقر يحقق « العزلة » . العزلة المادية والعزلة الروحية التي لا بدّ منها لاتصالنا بالله[1] . الفقر شرط لحريتنا الداخلية ، فلا يعد يثقلنا شيء . الفقر شرط لجرأتنا مع الله . فعندما نكون فقراء مادياً وروحياً نستطيع ان نصرخ اليه : « عليك يا رب ان تعطينا ما يلزمنا ، خبزنا الجوهري أعطنا اليوم » . بالفقر نكف عن ان نكون للعالم ونصبح « لله »[2] .

لقد اهملنا الفقر كثيراً في هذه الايام . كان آباؤنا يمقتون الملك ويعشقون الفقر . سيرة القديس يوحنا الرحوم نموذج حيّ لهذا العشق الحقيقي للفقر (عاش في القرن السادس السابع ، ونعيّد له في ١٢ تشرين الثاني) . . كانوا يجردون انفسهم دون انقطاع في كل مناسبة سانحة ، فينبغي لنا المحافظة على وديعتهم هذه لنا . يروون انه كان لراهب متوحد سكين بقيت معه وكان متعلقاً بها ، فزاره يوماً احد الاخوة فأعجب بالسكين فما كان من المتوحد الا أن أهداها له بفرح مغتنماً هذه الفرصة اذ لاحظ عندئذ في نفسه شدة تعلقه بها . وكلنا نعرف قصة الراهب الذي جرده اللصوص من كل شيء له الا صحن نسوه في قلايته فما كان منه الا ان جرى وراءهم قائلاً : لقد نسيتم هذا الصحن في قلايتكم ...

ان الفقر الاكبر (بمعنى عميق جداً) حققه الرب يسوع : حققه

١ ـ لا نتكلم عن العزلة السلبية المنغلقة على ذاتها وهي عزلة فاسدة لا تؤدي الى شيء ، بل عن العزلة الايجابية التي هي شرط لصعودنا الى الله .

٢ ـ في صلاة الغروب اليومية بعد الاعلان « احنوا رؤوسكم للرب » يقول الكاهن في افشين سري : « ان عبيدك قد احنوا رؤوسهم واخضعوا أعناقهم لك وليسوا منتظرين معونة من بشر .. » انه روح الفقر الذي يجعلنا ملكاً لله .

حين تجسد فتنازل عن مجده الإلهي : أفرغ ذاته الالهية ، أخلى ذاته (فيلبي ٢ : ١١) . التجسد هو حضور الله في الطبيعة البشرية . لكي يكون الله « حاضراً » في العالم اضطر الى افقار ذاته .

ولذا فمن شروط جهادنا الرهباني ان نبقى فقراء : لأن الراهب يكون « حاضراً » اي فعالاً في العالم بقدر ما هو منسلخ عنه . **كلما كانت الرهبنة غنية ومنظمة في العالم كانت غائبة عنه لا تأثير روحي لها عليه ولا اشعاع .**

الفقر الحقيقي عاشته **جماعة المسيحيين الاولى في اورشليم** ، فلم يكن لأحد شيء خاص به ، بل كل شيء كان للكنيسة . وجماعة المسيحيين الأولين تبقى مثالاً لكل شركة رهبانية في هذا المضمار . **والنساك** المتوحدون عاشوا بدورهم حياة الفقر . فالقديس انطونيوس الكبير لما سمع كلام الانجيل باع كل ما له ووزعه على الفقراء والتصق بيسوع . بهذا العمل التجريدي **بدأت** حياته الرهبانية . كان افقار الذات **أول عمل** يأتيه طالبو الترهب في ذلك الحين . **وكان الفقر في نظرهم الفضيلة العظمى** . ذلك لأن العالم الروماني كان فاسداً بالغنى . والحياة بالمسيح كانت غناهم هم . فكانوا يبرهنون للعالم ان غناهم الجديد يُغني عن كل غنى آخر .

ثم على أثر فوضى بعض النساك وسوء تصرفهم عمد القديس باخوميوس الى تأسيس الأديرة في القرن الثالث . ولكن القديس باسيليوس في القرن الرابع هو الذي وضع شرعة الفقر الأساسية لرهبان الشرق والغرب على السواء : وهي **الفقر ضمن الحياة المشتركة** . ان أردت ان تكون فقيراً حقاً فتعالَ الى الحياة المشتركة لان الناسك المتوحد لا بد له ان يملك شيئاً مهما صغر (كحصيرة وابريق الخ ...) بينما الراهب في نظام

الحياة المشتركة لا يملك شيئاً مطلقاً : انه يخلع ثيابه كلها ويأخذ كل شيء من الدير ، وما يأخذه فليس له ، ولا يحق له التصرف بأي شيء في الدير بدون اذن الرؤساء — حتى من أجل فعل الرحمة .

٣ — طرق حفظ الفقر :

على الراهب ان يحفظ الفقر ويحققه باستمرار في حياته الرهبانية . نعم يكاد يكون في مأمن من كل غنى مادي ، ولكن هناك خطر التعلق النفساني الداخلي غير الملحوظ . لقد تركنا العالم وزهدنا في خيراته ، ولكن رباطات جديدة تحاول التسلط علينا شيئاً فشيئاً وبصورة خفية داخل الدير . انه ميل طبيعي فينا ، فنتعلّق ببعض الاشياء المتروكة لاستعمالنا ، أو ببعض الوظائف ، أو ببعض الراحة ، أو بصداقة خاصة لأخ على حساب صداقتنا للآخرين ... فعلينا الانتباه الروحي المتواصل واليقظة الدائمة لكي نتحرر من كل رباط جديد نلحظه فينا ، وذلك لكي نتعرّى روحياً اكثر فأكثر ونكون لله فقط . نذورنا **دائمة** فعلينا بمعونة الله تحقيقها دائماً اكثر فأكثر . « سأسير الى الامام بتأييد الرب » (مزمور ٧٠ : ١٦) . ان تقدمنا المطرد في تحقيق نذورنا وتمسكنا بها طيلة حياتنا مدعاة للفرح ، خصوصاً في حالات الضجر ، حالات ابتعاد الله عنا ابتعاداً « تربوياً » ليقربنا اليه . لما جاهد القديس انطونيوس كما نعلم ضد الشياطين الثائرين عليه طول الليل صرخ الى الله عند الصباح : « يا الهي لماذا تخليت عني ، اين كنت هذه الليلة ؟ » فأجابه الله : « كنت في اعماق اعماقك أشاهد جهادك وأفرح لبطولتك .. » ان واجب حفظ النذور والتقدم فيها الى المنتهى هو سرّ .

الفصل الخامس

نذر الطاعة

آ – الوجه الكياني التأملي لنذر الطاعة

بعد البتولية والفقر نصل الى الطاعة، **تلك الفضيلة الاولى والاخيرة في حياة الراهب** : انها فضيلة التزام الحياة كلها ، فضيلة دخول الراهب في الحياة الالهية ودخول الله في حياة الراهب .

بنذر الطاعة يلتزم الراهب ان يطيع رئيسه واخوته متنازلاً عن ارادته الذاتية حتى الممات .

بين المسامير التي تشدنا الى الله ، بالصليب، الطاعة هي المسمار الاكثر قساوة والأشد ايلاماً ولكنه **المسمار الاعمق والامتن**. فاذا كانت البتولية تفصلنا عن اللهو وتشتيت الفكر وعن تيار الموت فينا لنستطيع الدخول الى الحياة ، واذا **كان الفقر يفصلنا عن الملك لننال الكيان ، فبالطاعة نتنازل عن الكيان** : ولكننا نتنازل عن كياننا المخلوق من العدم لنربح الكيان المطلق الذي هو الله ونعيش من حياة الله. الطاعة تذهب بالزهد الى أبعد حدوده ، **لاننا ان لم نتخلّ عن انفسنا فلم نتخلّ عن شيء** . فعلى الراهب ان يتخلى عن كيانه واناه ، **عن جذور انانيته** ، أي عن ارادته البشرية كمختلفة عن ارادة الله ، لكي يعيدها الى الارادة الالهية

« ويقيمها فيها على الدوام » . الطاعة الرهبانية لا تهدم الارادة البشرية بل تعيدها لأصلها ، لطريقها الاول في الفردوس قبل السقوط .

ليست الطاعة مجرد خضوع لسلطة خارجية . الطاعة شيء والخضوع شيء آخر[1] . الخضوع يشوّه الانسان ويحوّله الى « موضوع » بدلاً من « ذات » ، الى « شيء » بدلاً من « شخص » . أما الطاعة الرهبانية فتحييها من الداخل وتنيرها الطاعة الالهية **والمحبة الداخلية لله**، فالراهب الذي يطيع دون ان يكون وعيه الشخصي وضميره الذاتي مستنيرين ومحيين بالطاعة والمحبة لله ليست طاعته طاعة بل خضوعاً .

في الطاعة الرهبانية انعتاق وحرية، **بل هي الشكل الاخير للحرية**: بالطاعة يقرّب الراهب ذاته لله بحريته ، يقرب ارادته بإرادته ، وبذا يُبقي ذاته منفتحاً على الدوام لتقبل النعمة الالهية لكي لا يعود ينغلق في وجه هذه النعمة من بعد .

ان فعل « أطاع » باللغة اليونانية يساوي فعل « استمع » و« أصغى » (hypakoi, akouo) فالطاعة هي الاستماع، **هي الاصغاء الداخلي لصوت الله** ، لنداء الرجوع الى الله من تحت نير الخطيئة ، لنداء المسيح الذي يدلنا على طريق الرجوع . **هي الانفتاح الكلي النهائي لصوت المسيح** وعدم السماح لحريتنا وارادتنا بالانغلاق على ذاتها من جديد ، « كالأفعى الصماء التي تسد اذنيها ولا تصغي الى صوت الحواة ولا تأبه لرقية يُعدّها راق حكيم » (مزمور ٥٧ : ٤ – ٥) .

---

١ – كان الرهبان اداة خضوع سلبي لسلطة مستبدة في ازمنة الازمات الروحية . مثلاً على ذلك طريقة القديس كولمبان الارلندي (٥٤٠ – ٦١٥) التي تحولت بعد وفاته الى نظام لقصاص الرهبان نظراً لقساوتها . انظر ايضاً المقالة السادسة في كتاب سلم الفضائل للقديس يوحنا السلمي .

نذر الطاعة يريد منا ارادتنا نفسها ، يريد الجذر والاصل ، **ولكن هذا التنازل عن الارادة لا يُنقص الانسان** . فالانسان (بخلاف الحيوان) كائن حرّ ومصدر لارادة واعية . **الانسان « شخص » ويجب هنا عدم الخلط بين « الشخص » « والفرد »** (ان سبب قيام الناس ضد نذر الطاعة او عدم فهمهم له هو بالضبط الخلط بين « الشخصية » « والفردية » في الانسان) . فالفردية في المرء هي وجهه المادي والنفساني الخاص به دون غيره من الناس ، أي ما يميزه عن الآخرين – ما هو « فريد » فيه (ان لفظة فرد individu باللغة الفرنسية تعني ما هو غير قابل للتجزئة dividum-division) . ولكن الانسان ليس فرداً فحسب بل عندما يتجاوز فرديته عندئذ فقط يبدأ ان يصبح شخصاً : **« فالشخص » في الانسان هو ما يجمع بين الناس لا ما يفرقهم** . الشخص يحقق ما هو مشترك وعام بين الجميع ، أي الوحدة الداخلية بين جميع البشر . وعلى الانسان كشخص ان يبقى منفتحاً للآخرين ومتصلاً بهم اتصالاً متبادلاً . كل واحد مرتبط بالآخر ، شاء ام أبى . كيان كل واحد يتكيّف بحسب علاقة المحبة التي بينه وبين الآخرين . **فالمحبة تزيد الشخص والبغض بالعكس ينقصه ويقلصه** . المحبة تسمح لنا بالدخول في الآخر مع بقائنا نحن . **فعلى الانسان بموجب طبيعته ان يكون في حالة تقبل وانفتاح للآخرين** ولا ينغلق على ذاته . هذا واجب يفرضه عليه كونه « شخصاً » .

ولما كانت وظيفة الراهب في هذه الحياة ان يذهب بشريعة الانسان الى أقصاها ، ان يسعى الى تحقيق كامل « برنامج » الانسان في يسوع المسيح فعلى الراهب ان ينفتح للمسيح حتى تبادل الارادتين فيتخلى عن ارادته الذاتية لينال مكانها ارادة المسيح ، الاله الانسان الكامل ، أي ارادة الانسان الحقة . ذلك معنى قول الرب : « **من أهلك نفسه فهو يخلصها** » ، بفقدان ارادته يربح ارادة الله . لقد قال القديس نيقولاوس

كافازيلاس (القرن الرابع عشر) : « **ان كان في صدرك قلب غير قلب** المسيح فهذا القلب غريب عنك وليس هو بقلبك » (والقلب في المفهوم الآبائي مركز كيان الانسان كله) .

وهكذا فان مبدأ نذر الطاعة هو ان نعطي حريتنا عطاءً كلياً نهائياً لكي ننالها من جديد في يسوع ، فنكون أحراراً حقاً ، معتقين من ارادتنا الفاسدة .

ب – الوجه العملي النسكي لنذر الطاعة

الطاعة الرهبانية موجهة مباشرة للمسيح . للمسيح الذي أطاع حتى الموت ، موت الصليب ، وعنوان حياته كلها على الأرض : « لتكن مشيئتك لا مشيئتي » . نذر الطاعة هو الذي يسمر الراهب على صليب المسيح : هو الذي يؤمن بقية النذور ويحفظها . فبالطاعة نستمر في العفة والفقر ، ونكون في مأمن من التجارب . **الطاعة هي الاساس** ولذلك كان اختبار الطاعة أول اختبار يختبر الرؤساء به طلاب الترهب قبل قبولهم في الحياة الرهبانية . **الطاعة تطرد كل ما هو غريب وغير مقدس** ، هذا العالم يجب ان يتقدس ويتجلى في الراهب . في الدير كل شيء قدسي ، كل شيء موضوع « تحت علامة » الله . كل شيء يتخذ قيمة الهية .

الطاعة تبعد عنا كل ريبة وشك ، كل قلق وبلبلة . ان اعمالنا تتبعنا : فان تمت في الطاعة كانت كلها مثمرة وجنينا اثمارها الروحية والاّ فلا ..

الطاعة تتم داخلياً وليس خارجياً فقط : (الطاعة السهلة جداً والتي لا تتطلب من الراهب جهداً داخلياً خطر على حياته الروحية) .

الطاعة تتم حبا بالمسيح ومن اجل المسيح ، ليس لانسجامها مع فكرنا ورأينا ولنتائجها الحسنة المباشرة (ان كان ما يطلب منا غير منسجم مع فكرنا فيجب عندئذ الطاعة بجهد) . في حياتنا الرهبانية سنصادف صعوبات وجهادات وريبة ويأساً : ان من يتبع المسيح (وقد تكلم سفر الرؤيا عن « الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب » ١٤ : ٤) يجب ان يتبعه ايضاً على الصليب والى الجحيم : جحيم ضيقاتنا وآلامنا . فكيف نتبعه ؟ بالطاعة (خاصة في حالاتنا السلبية الصعبة هذه) وذلك لكي نقوم معه (لكي نكون حيث هو يكون) . والقيامة تبدأ منذ الآن : فبالطاعة حتى الجحيم ننال « قوة » المسيح (vertu christique) قوة عدم اقتبال الفساد في القبر .

كانت الطاعة في ايام رهبان البرية شخصية ومباشرة : أي من التلميذ الى معلمه وأبيه الروحي . **وكانت تتسم بالغرابة والطابع غير** الاعتيادي . فعلى سبيل المثال: جاء يوماً أحدهم الى راهب شيخ في البرية طالباً التوهب على يده وكان معه طفله الصغير فما كان من الراهب الشيخ الا ان أمره قائلاً : إرمِ ابنك في التنور !.. فتناول الطفل حالاً ولو لم يوقفه الشيخ لكان رماه : كحادثة ابراهيم مطيعاً الله .. وفي حادث آخر أمر راهب شيخ تلميذه بزرع ملفوفة بالمقلوب منوعزاً اليه بوضع الورق في الارض والجذور في الهواء. فظن التلميذ ان معلمه يهذي فزرع الملفوفة كالعادة . ولما سأله معلمه واجابه انه زرع الملفوفة كالعادة جذورها في الارض اذ لا يُزرع الملفوف الا هكذا ، أجابه الشيخ قائلاً: أتظن اني أريد ملفوفاً ؟ لا . ان الملفوف موجود عندنا بكثرة . ولكني أريد طاعة لا ملفوفاً !.. والقديس انطونيوس أمر مرة تلميذه بولس البسيط ان ينطلق وراء لبوة ويأتي بها اليه . فذهب ولما وصل اليها قال لها ان معلمي انطونيوس أمرني ان اربطك واذهب بك اليه . فوقفت

فتقدم منها وربطها في عنقها واتى بها للقديس انطونيوس . فلما رأى هذا ما كان لم يشأ ان يمدح تلميذه بولس لطاعته بل قال له : اطلقها الآن فأطلقها .. والقديس اثناسيوس الآجيوري عندما أتى جبل آثوس ليتنسك تلقى أول ما تلقاه الأمر التالي : اذبح هذا الخروف وكله ! فأكله .. (وكان القديس اثناسيوس يبلغ طوله مترين ..) .

الفصل السادس

نذر الصبر

سنلقي الآن نظرة أخيرة على الراهب المعلق على الصليب بسامير العفة والفقر والطاعة . وهذه النظرة الاخيرة هي على المسمار الرابع أي الثبات والصبر الذي يعتبر ضمناً النذر الرهباني الرابع : فالاسقف أو الكاهن يوجه الى المبتدىء عند تقليده الاسكيم الرهباني السؤال التالي : « أتلبث ثابتاً في الدير وفي النسك حتى نسمتك الأخيرة ؟ » ثم السؤال التالي : « أتحتمل بصبر جميع أحزان السيرة الرهبانية وضيقاتها لأجل ملكوت السماوات ؟ » ..

ان هذا النذر يعطي النذور السابقة فحواها وقوتها : قوتها النوعية فالنذور الثلاثة يجب ان تتم بالالحاح والصبر اللذين هما محتوى حياة الراهب . وهذا الالحاح وهذا الصبر يقرران مصير حياتنا الرهبانية وكيف نحققها . اذ ليست سوى صبر طويل ، سوى صلب طويل (مملوءاً منذ الآن بكل فرح القيامة ونورها) . فالصبر اذن هو قلب النذور الرهبانية ، هو الذي يدفع الراهب الى الكمال دون انقطاع ..

ما هو كمال الراهب ؟

كمال الراهب – ككمال كل مسيحي ، ولكن بشكل أوضح وأشد – هو معاينة وجه الله . « وجهك يا رب انا ألتمس » (مزمور ٢٦ : ٨) .

ما هي شروط المعاينة ؟ في الكتاب المقدس كله حقيقة أساسية هي ان لا أحد يقدر ان يرى وجه الله ويحيا : « الهنا نار آكلة » (عب ١٢ : ٢٩) ، « رهيب هو الوقوع بين يدي الله الحي » (عب ١٠ : ٣١) . ومع ذلك فغاية وجودنا أن نعيش في الله ونعاينه تعالى (والا فحياتنا ناقصة وفاشلة وعدم) . فكيف نحل هذا التناقض (paradoxe) ؟ : ان الخليقة كخليقة لا تستطيع معاينة الله . لأن الله هو « الآخر » الكلي – المختلف اختلافاً كلياً – الغير المخلوق ، الذي ليس بينه وبين المخلوق من قياس مشترك . فلكي نقترب من الله يجب اولا ان نموت كخليقة ، يجب ان نصير مشابهين له : « الله لا يقبل في مجلسه الا الآلهة » (نصير مشابهين له بنعمته قدر ما يمكن ذلك) . اما المعاينة الاولى فبالايمان . الايمان هو الايقان بامور لا تُرى كأنها ترى (عب ١١ : ١) . ولكن الايمان سيسقط يوماً عندما سنرى الله وجهاً لوجه ، فقد قال الرب : « طوبى لانقياء القلوب فانهم لله يعاينون » (مت ٥ : ٨) ... فليس الراهب سوى ذلك الانسان الذي يحقق هذه المعاينة ، هذا « التناقض » ويحققه بالصلب . فالصليب تناقض . الصليب « جهالة » . سر الصليب في انه يجمع بين الاضداد (دون المزج بينها) . ان العالم يميز الاضداد ولا يعرف السبيل الى التوفيق بينها . الموت والحياة في نظر العالم ضدان ليس بعدهما من اضداد . ولكن باجتماعهما على الصليب بالضبط تحصل القيامة . تحصل الحياة الجديدة الناجة بالضبط عن الموت[1] .

---

١ – ان جميع الفضائل المسيحية في نظر الاباء عبارة عن « متناقضات » ، جميعها قائمة « تحت علامة الصليب » وتوفق بين الاضداد بقيامها في الصلب . فالتواضع مثلاً هو استسلام من جهة ومن جهة اخرى جرأة ورجولة . والاعتدال يجمع بين الامساك والحرية في آن واحد : « كل شيء يحل لي ولكن ليس كل شيء يوافق » .. الخ . الصليب موجود في كل زاوية من زوايا الحياة المسيحية . ليست الفضائل المسيحية مبنية على قاعدة « خير الامور اوسطها » . ليست في الخنوع والخوف من التطرف بل هي بالعكس (paradoxe) تجمع الطرفين معاً وتتجاوزهما في صليب . المسيحي قائم بعد هذا الضد وذاك .

اذن كمال الراهب هو المعاينة الالهية وهو يستطيعها فقط ان مات.

ان مات عن العالم وعن أهوائه . لا الفناء بل التنازل عن حياة الطبيعة من اجل الولادة في حياة المسيح . ان قول بولس الرسول المشهور « لست انا أحيا بل المسيح يحيا فيّ » (غلا ٢ : ٢٠) يتضمن شقين : الشق الاول « لست انا أحيا » وهذا يعني انا مائت والشق الثاني « المسيح يحيا فيّ » وهذا يعني انا حي بغير حياتي الطبيعية وانما بحياة المسيح. لقد مات المسيح على الصليب ليملىء انسانيته اي حياته الانسانية بحياته الالهية : بطاعة المسيح حتى الموت انفتحت الطبيعة البشرية للحياة الالهية في يسوع الكلمة (بينما آدم كان قد أغلق ذاته بعصيانه وعدم طاعته) .

كيف يحقق الراهب ذلك عملياً ؟

الراهب هو الانسان الذي لا يحيا من بعد ، هو يحيا كأنه يحيا « قد متّم مع المسيح عن أركان العالم قد متّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله » (كولوسي ٣ : ٣) . ويطبق الراهب ذلك في عيشه عيشة نسكية مختلفة عن عيشة العالم ، وفي ثباته فيها حتى النهاية . لقد كان القديس انطونيوس الكبير « ابو الرهبان » يزاول النسك كل يوم **كأنه بادىء به** ، عاملاً على الدوام بقول بولس الرسول : « أنسى ما وراء وامتد الى قدام » (فيلبي ٣ : ١٣ ـ ١٤) . فكمال الراهب هو ان لا يبلغ أبداً الى الكمال ، بل يجتهد دائماً ليبدأ ، اي **يجتهد دائماً ليموت عما هو . ليس كماله كمالا منتهياً مغلقاً** ، بل هو ، لكونه مبتدئاً ، منجذب على الدوام بالحياة الجديدة ، حياة المسيح والقيامة . انه يبدأ من الآخر : يبدأ بقيامة المسيح وقيامة المسيح هي التي تجتذبه . تلك هي محبة المسيح للبشر : لقد مات ليعطينا حياته هو . المعمودية معمودية في موت المسيح وقيامته . هي قيامة مجانية أعطيناها

مجاناً ونبدأ بها . ولكن علينا ان نتبناها ونكتسبها . علينا ان نتمثلها في كل زوايانا وكل ذرة من ذرات جسدنا وأعماق أعماقنا : اي عن طريق موت الانسان العتيق فينا . ذلك هو سر الصليب : ان نموت لنحيا : كنا أمواتاً مقضياً علينا ... وبموت الانسان العتيق على الصليب أفسح المسيح مكاناً للحياة . وقد قام جسده من بين الأموات لأنه بالضبط لم يكن للموت عليه من سلطان (اعمال الرسل ٢ : ٢٤) . وليست النذور الرهبانية سوى مراحل على هذه الطريق ، طريق اكتساب حياة المسيح بإماتة الموت فينا ، **بأن يموت شيئاً فشيئاً كل ما يجب ان يموت فينا .**

ان حياة الراهب واحدة ومزدوجة معاً

فحياته الحقيقية مستترة في المسيح « مع المسيح في الله » (كو ٣ : ٣) ولكنه في الوقت نفسه يعيش في هذا العالم . ولكنه يعيش في هذا العالم لكي يحقق في نفسه وفي جسده ظفر المسيح ، ليشع بحياة المسيح في حياته على الارض . والراهب من هذه الناحية هو **الشهيد الدائم شهيد كل يوم** (نزيد عليه الآن هذا الاسم الجديد اذ يمكننا فهمه بعد تاملنا في صورته على الصليب) ، يشهد للمسيح في الألم والموت حتى النهاية . كلنا نعرف ان الرهبانية ظهرت بعد انتهاء الاضطهادات . ففي زمن الاضطهادات، كان الشهداء يعيشون في الدهر الآتي « دهر الداهرين » (éon) كانوا يقتحمون ملكوت السموات اقتحاماً . الشهيد كائن « مجيئي » يعيش في مجيء المسيح الثاني . ثم انقضى عهد الاضطهادات و « أقامت » المسيحية في الدهر الحاضر .. ولكن المسيح لا يأتي فقط في الدهر الآتي بل في الدهر الحاضر ايضاً: يأتي كل وقت في الافخارستيا ويأتي في قلب الشهداء (الشهيد استفانوس رأى السموات مفتوحة وابن الانسان قائماً عن يمين الله وقد وقّع بدمه هذه المعاينة ، معاينة ما

سوف لا نعاينه الا في آخر الأزمان) . فحلت الرهبانية محل الشهداء. حلت « الشهادة البيضاء » بدل الشهادة الحمراء (باسيليوس الكبير) . . .

فالراهب اذن ، كشهيد وكائن مجيئي ، عامل واداة لتجلي العالم الاخير وتحرير الخليقة وعتقها من نير الخطيئة . ولذا تحس الوحوش بحرية الراهب وسلامه وهدوئه فلا تعود الخليقة « تئن » بل تبتسم للراهب وتشكره . الراهب المعتق من الخطيئة يملك الارض ويعاين فيها منذ الآن صورة الدهر الآتي : « فكل شيء له ، السموات والملائكة والجبال والأشجار . . . لأنه للمسيح وكل شيء هو للمسيح » . . .

ولكن من هو الراهب الحقيقي ؟ « من هو الراهب الامين الحكيم ؟ هو الذي يحافظ على همته حتى النهاية ، الذي لا يزال الى آخر حياته يزداد اضطراماً على اضطرام ، وحماساً على حماس ، وغيرة على غيرة ، وشوقاً على شوق » (القديس يوحنا السلمي) ، هو الراهب الذي يفي نذر الصبر حقه . .

الفصل السابع

تحقيق المبادىء الرهبانية

في هذا الفصل الأخير من الباب الاول الذي تناول شرح المبادىء والأسس الروحية للحياة الرهبانية ، سنرى صورة الراهب كما يُرمزاليها في لباسه وكما تُحققت فعلاً في نوعي الرهبانية : التوحد الكلي والحياة المشتركة .

لقد عرفنا الراهب من الداخل حتى الآن ، أدركنا كيانه الروحي ، ولكن هذا الكيان الروحي يتجسد في واقع وحقيقة . ليس هو شيئاً مجرداً ، كلاماً جميلاً او اختباراً فلسفياً ، بل اختبار حياتي عميق لا نهاية له في الكنيسة ، تراكم وتكوّن فيها بعد أجيال من القداسة . ليس القديسون أشخاصاً استثنائيين خياليين كما نتصورهم بل هم من لحم ودم مثلنا الا انه لم تبلغ الينا سوى الناحية العجائبية من رسمهم ، كما ان أسماء الكثيرين منهم بقيت مجهولة منا (بل وجود الكثيرين ايضاً) . الرهبانية اذن واقع تحقق في حياة الكنيسة ، هو تعبير عن الكنيسة . فالراهب مسيحي ملتهب بالنار الالهية يقول مع القديس السلمي : «لقد جرحت قلبي ايها الحب الالهي فاني مضطرم برغبة الاتحاد بك ولذلك اتقدم وانا أرتل » : ان سيره ينتزع منه تسبيحات وتمجيدات لله : على الراهب ان يحقق دعوته وهو يرتل .

١ – الزي

عندما يُقلد الراهب الاسكيم الرهباني ، عندما يتعهد ، عندما يموت ليقوم في المسيح حينذاك يرتدي رمز حياته الجديدة هذه ، وهذا الرمز الملموس هو صورته الجديدة وجهه الجديد : ان لفظة « اسكيم » في اليونانية تعني « وجه » . فليس الثوب الرهباني بالتالي لتمييز الراهب عن الذين في العالم بقدر ما هو لتذكيره بمعنى الحياة الرهبانية . ليس الراهب بالثوب ولا شك . ولكن الثوب صورة الراهب : لما ترك العالم القديسان يوحنا وسمعان المتبالهان (تعيد لهما الكنيسة في ٢٣ تموز) وانطلقا يفتشان على دير يعيشان فيه دخلا احد الأديرة في فلسطين ليكلما الرئيس . وبينما هما يكلمانه خرج راهب كان قد قُلد الاسكيم الرهباني حديثاً (على الراهب الجديد حسب الاصول الرهباني ان يبقى في لباسه الجديد في الكنيسة مدة خمسة ايام متوالية يتأمل فيه) . فلما شاهداه صرخا : « نريد نحن ايضاً هذا اللباس فانه بهي ومجيد ومنور كله ! » كانت هذه رؤيا من الله انفتحت أعينهما عليها فشاهدا حقيقة الراهب الأخيرة من خلال لباسه .

أما زي الراهب التقليدي فقد وصفه القديس يوحنا كاسيان في بداية كتابه حول الانظمة الرهبانية (راجع كتاب LES INSTITUTIONS CENOBITIQUES TRAD. DOM. E. PICHERY. ST. MAXIMIN - VAR 1923 ص ١٢٥) . وهو يبدأ بالزنار : فالزنار رمز العفة ورمز التجند للمسيح . ان الكتاب المقدس يرينا النبي ايليا متمنطقاً بزنار من جلد حول حقويه وقد عرفه الملك لما وصفوا له هندامه هذا بالضبط (الملوك الثاني ١٦ : ٨) . وايضاً يوحنا المعمدان بزنار من جلد حول حقويه (متى ٣ : ٤) وكذلك بطرس وبولس (أعمال الرسل ١٢ : ٨ و٢١ : ١١) الخ .. أما الغنباز أو الكولوبيوم

(القميص الاسود) فيرمز الى الانفصال عن العالم والى الحداد والموت بالنسبة للعالم : « أميتوا اعضاءكم التي على الارض » (كو ٣ : ٥) . والمانتيليون (وهو معطف بدون أكمام يربط عند الرقبة وقد تحول الآن الى الجبة) يرمز الى ارتداء الراهب لمجد آدم الأول الذي نزع عنه بعد سقوطه . والكوكلس (القبوعة وقد تحولت الآن الى الكاميلافكيون) يرمز الى براءة وبساطة الاطفال لان الراهب بمثابة مولود جديد في المسيح وهو يقول مع المرتل : « ان قلبي لم يترفع وعيني لم تستعليا » (مزمور ١٣٠ : ١) . والانالافون الذي يرسم عليه الصليب ويحمله الراهب على ظهره ليلا نهاراً يرمز الى حقيقة صلب العالم للراهب وصلب الراهب للعالم . اما الحذاء فللتقدم والسير في طريق انجيل السلام . واما المسبحة فهي سيف الروح وعلى الراهب بواسطتها ان يحفظ اسم الرب يسوع في قلبه على الدوام[1] . هذا ويبقى على الراهب ان يتذكر يومياً هذه المعاني ويتأملها ويحس بها .

٢ – النماذج الحية

هناك ثلاثة وجوه على الراهب ان يتجه ويلتجيء اليهم دائماً بالصلاة والتضرع في تحقيقه المثال الرهباني كونهم نموذجاً حيا للرهبانية المحققة : هم ايليا النبي ويوحنا السابق والعذراء مريم والدة الإله .

فالنبي ايليا صورة الناسك البتول . وايضاً صورة الصلاة المجسمة (الراهب رجل صلاة . الصلاة هي التي تجعل الراهب راهباً . يجب ان

١ ـ عندما يستلم الراهب المسبحة اثناء تقليده الاسكيم الرهباني يؤمر أمراً بان تكون صلاة يسوع في قلبه وذهنه وعلى شفتيه على الدوام : فالراهب جندي محارب . انظر رسالة بولس الرسول الى اهل أفسس ٦ : ١٣ ـ ١٨ : درع البر وترس الايمان وخوذة الخلاص وسيف الروح .

يكون صلاة) . فصلاة ايليا تنقلب الى أفعال (حبس المطر وهطوله .. انزال الصاعقة) وبصلاته يرتفع الى السماء. لقد تجاوز الموت. أمات الموت في نفسه لدرجة انه ارتفع حياً الى السماء وأصبح مواطناً للملائكة ... وهو السابق لحضور المسيح الثاني المجيد وبـهـذا يرتبط مصيره بمصير المعمدان . اما **يوحنا المعمدان** فهو السابق لحضور المسيح الاول . وهو كايليا « ملاك بالجسم » انه يبشر بحضور المسيح حتى « في الجحيم » . وأما **العذراء مريم** فهي قمة الخليقة ، اكرم من الشاروبيم وارفع مجداً بغير قياس من السرافيم لأنها تعكس الالوهة اكثر منهم . لقد جمعت في ذاتها الاله مع الانسان وهي مليئة كلها بألوهية ابنها... فارتفع جسدها الى السماء .. والعذراء مريم شفيعة الملائكة والرهبان : قيل ان الله خلق البشر بدلاً من طغمة الملائكة الساقطين الذين رفضوا مع ابليس قبول خلق الله للخليقة المحسوسة ، وان الرهبان يقومون في وسط البشرية مقام تلك الطغمة الملائكية اذ يحققون مثال المـلاك المتجسد بواسطة العفة والفقر والطاعة والتمجيد الدائم لله .. فعلى الرهبان ان يتضرعوا الى هؤلاء الثلاثة بصورة خاصة لا سيما في التجارب .

٣ — التحقيق

آ — لقد تحققت هذه الصورة الرهبانية **اولاً في المتوحدين**. كانت نعمة خاصة وهبها الله للكنيسة في القرنين الثالث والرابع لما امتلأت سوريا ومصر كلها بالرهبان (في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس كان ثلثا سكان مصر رهباناً متوحدين) . **ونحن الآن نعيش من تراث هؤلاء** ، من نتيجة صلواتهم وجهادهم . هم آباؤنا ولا يزالون هم يؤلفون المصدر الاكثر نقاء للحياة الرهبانية لانهم حققوا كلياً برنامج المعاينة المسيحية . لقد بلغوا بالزهد في العالم واماتة الطبيعة والحرب ضـد الشيطان الى أقصى الحدود[١] . يكتب فيهم المؤرخ روفين : « انهم يقضون أسمى حياة ويتمتعون بنعم نادرة، فيصلون من أجل مياه النيـل والمواسم من أجل ابعاد خطر البرابرة .. فتستجاب صلواتهم . **فالعالم قائم ومحفوظ من الانهيار بفضل هؤلاء المجهولين ..** » وقد ورد في سيرة القديس مرقس الناسك (تعيد له الكنيسة ٥ نيسان) « ان الرب أمر يوماً القديس سيرابيون بالانطلاق من برية مصر والتوغل في بلاد الحبشة حتى جبل « فراكسك » . ولما بلغ اليه وجد هناك المتوحد مرقس في عزلة كلية . وكان هذا قد طلب الى الله ان يبعث له بأحد البشر قبل ان يموت . وبهذه الصورة اطلع القديس سيرابيون على سيرة حياتـه فوصلت الينا . ومما قاله القديس مرقس « ان العالم كله الآن قائم بفضل ثلاثة متوحدين » .. فسأله سيرابيون : هلا يزال في العالم ايمـان ؟ فأجاب : « لو كان في العالم ايمان لقالوا لهذا الجبل انتقل .. وبينما هو يتكلم بهذا الكلام بدأ الجبل يتحرك وينتقل بهما فأوقفه » ... ان **الفكر والفعل شيء واحد عند هؤلاء . الصلاة والفعل متصلان فليست الصلاة مجرد رغبات فقط كما عندنا** ... (ذلك هو ايمـان « حبة الخردل » ، ايمان ايليا والعذراء ..) .

هذا وعند ظهور المتوحدين كان العالم الوثني فاسداً بالكلية ، كانت الخليقة ملوثة بأسماء الآلهة (اعياد الساترنال مثلاً Saturnales) فأتى المتوحدون لينكروا ذلك باسم المسيح: جاهدوا ضد الاهواء وضد العالم وضد الشيطان جهاداً مستميتاً وغلبوا . وبعد قرون مـن الجهادات تطهرت الطبيعة واعيدت الى الله . اعيدت الحياة الفردوسية واكتشف

١ — انهم يذهبون الى البرية للقاء الشيطان وجهاً لوجه وتحطيمه . فالبريـة هي عاصمة الشيطان الحقيقية حيث يحشد كل قواه وقد خـرج يسوع اليها قبل البدء بكرازته ليجابهه ويغلبه .

من جديد المعنى الفردوسي للعالم . اعيد الانسان الى حاله البراءة الاولى التي قبل السقوط وصار ينظر الى العالم بعيون جديدة .. فامكن ظهور قديس مثل القديس فرنسيس في الغرب يقول للشمس يا اختي : اذ لم تعد الشمس الهاً بل اختاً . ولم يعد خطراً ان تسمى الشمس اختاً .... اذن كانت مرحلة التوحد مرحلة ضرورية في تدبير الله ، مرحلة تلبي حاجة الكنيسة حينذاك

ولكن ظهرت اخطار ونواقص في حياة التوحد : فأوجد الروح نوعاً جديداً من الرهبانية هي الحياة المشتركة . اما **الاخطار والنواقص** فكانت : اولا خطر الكبرياء ، لأن المتوحد ليس له من يحتك معه ليعرف ضعفه فيتكبر ، والشيطان يريد ذلك ، يريد لنا ان لا نعرف ضعفنا ، خاصة لغير المختبرين ... ثم نقص في التنظيم . اذ ازداد عدد الزوار الفضوليين ولم تعد الصحراء صحراء ، ولم يكونوا مستعدين لمجابهة ذلك (رغم بعض التصرفات الفردية للحفاظ على العزلة) ثم ان حياة التوحد تعرض كثرة من النماذج الرهبانية حسب دعوة كل واحد وميله الشخصي (واحد يهرب من الضيوف كارسانيوس وآخر يستقبلهم بلطف كموسى الحبشي ، واحد يتكلم وآخر لا يتكلم ، واحد يسهر في الليل وآخر بالعكس واحد يشجب الاستحمام وآخر لا الخ .) فالطالب الجديد يختار اياً يختار من هذه النماذج المختلفة . وهذه صعوبة خطرة جداً .. ثم ان الفضائل عينها قد ترجع ضدنا اذا مارسناها وفقاً لارادتنا الخاصة خارجاً عن الطاعة . لاننا ان لم ننكر ذواتنا لم ننكر شيئاً البتة وقد قال احد الآباء : اذا رأيت اخاك يصعد الى السماء بارادته الذاتية أمسكه برجليه واسحبه الى اسفل لانه من الافضل له ان يبقى هنا بالطاعة من ان يصعد الى السماء بارادته الذاتية ..

ب — وهكذا ظهرت ضرورة تغيير العقلية . فجاء **القديس**

باسيليوس الكبير وتجول بين الاوساط الرهبانية المختلفة وعاد من جولته مقرراً جمع كل الفضائل وكل الاكتسابات الروحية وحياة التوحد نفسها ضمن اطار الطريقة . فكانت الطريقة اي نظام واحد يتبعه الرهبان في دير مشترك ، اطار مشترك واحد يستطيع كل أخ أن ينمو داخله حسب ميوله ومؤهلاته بدون أخطار الوحدة وعدم الخبرة وعدم الطاعة . الحياة المشتركة لا تناقض العزلة والنسك والتأمل بل تحميها وتحولها كما انها تترك الباب مفتوحاً لحياة التوحد الكلي (بعد قضاء مدة طويلة في الدير المشترك) . الحياة المشتركة تقود الى تحقيق الكمال الرهباني ضمن فضيلة التمييز والافراز . انها توفق وتقيم توازناً حياً بين التأمل والعمل ، بين العزلة والحياة مع الجماعة ، وذلك دون الغاء شيء منهما . ليست هي « حالة وسطى » بل « مناقضة » تجمع الحالتين بشكل صليب . ان الراهب في الحياة المشتركة يبقى متوحداً : فيُسأل عند تقليده الاسكيم : ماذا جئت تطلب في الدير ؟ فيجيب : « جئت أطلب حياة الوحدة والتوحد » : تلك هي المناقضة الاخيرة ، الصليب الأخير للراهب : يجب ان يعيش في الدير حياته الشخصية : حياته الصلاتية ، حياته النسكية الخ .. (بمعاونة الرئيس والأب الروحي والاخوة) . يقول الأنبا ألونيوس : « ان لم يحسب الراهب ذاته كأنه وحده مع الله فلن يخلص » . يجب ان يكون هناك سرّ بيني وبين الله (مع العلم بأن الأب الروحي لا يخفي هذا السرّ ، لا يؤلف حاجزاً بين الراهب والله) . يجب ان تكون العزلة الداخلية لذيذة على الراهب . والا يكون الدير شيئاً قبيحاً للغاية ، يكون مثل ثكنة .. الراهب في حياة الشركة صورة مصغرة للكنيسة . فكما ان المؤمن يأخذ كل شيء من الكنيسة كذلك الراهب تأتيه كل النعم عبر الشركة : كل ما يأتيني يأتيني عن طريق ابي الروحي : أسرار الحياة الرهبانية والنصائح الخ .. والوعي الروحي « والملء » الرهباني يأتيني من شعوري بالمحبة اذ انا مع

من فضيلة واكثر من « الفضيلة العظمى » : هـــي الله . وفي الشركة الرهبانية لا تبقى كلمة فارغة باطلة . الراهب في الشركة ينمو في المحبة ، يسير ويتقدم في المحبة . « الويل للانسان المنفرد » (حكمة ابن سيراخ). فبفضل الحياة المشتركة يحقق الراهب هذا الصليب . **يعمل كمتأمـــل ويتأمل كعامل** . المتوحد متأمل فقط . والمسيحي الحقيقي العائش في العالم عامل فقط . في الدير يُجمع الاثنان في صليب . راهب الشركة يعمل مجسداً كل فضائل التوحد والتأمل الملتزم بها . ويتأمـــل محققاً التواضع والانسلاخ اللاصقين بالعامل اذ هو تحت الطاعة . ويتأمل ايضاً بمحبة العامل نفسها : يكون دائماً لأحد غيره ، لا لنفسه . لشركته التي هي اسرته ، وضمن الشركة للكنيسة ، وضمن الكنيسة للعالم . وهكذا يعود للعالم « للعمل » دون ان يترك الدير .

الباب الثاني : العمل

نبلغ الآن الى الباب الثاني من هذه الدروس الرهبانية . لقد رأينا في الباب الاول معنى الحياة الرهبانية وأهدافها فكان ذلك بمثابة « التأمل » أما الآن فسنرى نظام الحياة الرهبانية في تركيبها وسيرها كما هي مكونة ومحققة فيكون ذلك بمثابة«العمل».

بعبارة أخرى ان الباب الثاني هو التطبيق المنظور للحقائق الروحية التي رأيناها في الباب الاول . وهذا الجمع بين المنظور وغير المنظور يجعل من الرهبانية سراً كنسياً. فالاسرار الكنسية تنقل بشكل منظور نعمة غير منظورة ، والراهب وان كان يعيش مادياً كانسان على الارض الا ان كمال حياته الداخلي يأتي عن ان كل حياته المادية هي « علامة » الحياة الاخرى ولهـــا « معنى » آخر . (Elle est «signifiée») فسببها وغايتها ليس الطبيعة البشرية بل تلك الحياة الجديدة المنحدرة من قلب المسيح.

ولذلك فعند بحثنا لمظاهر حياة الراهب الخارجية سنلح على معناها الروحي رجوعاً للباب التأملي السابق لان الراهب كما رأينا « يعمل كمتأمل ويتأمل كعامل » .

القسم الاول : الحياة المشتركة

الفصل الاول

أسس الحياة المشتركة

الى جانب حياة القلاية الشخصية وحياة الكنيسة الليتورجية يعيش الرهبان مع بعضهم البعض حياة مشتركة . فما هي أسس هذه الشركة ، وقوامها ، ونظام سيرها ، وعلاقات الاخوة فيها . ما هي منافعها واخطارها ؟.. هذا ما سنتناوله في هذا القسم الاول من الباب الثاني . ونبدأ في هذا الفصل فنبحث في أسس الحياة المشتركة .

من الضروري ان نعرف – نحن الرهبان – أسس حياتنا المشتركة لكي نعيشها بصورة أفضل ونعيش فيها .

الشركة الرهبانية تظهر أولاً كمجتمع ، وكل مجتمع هـــو مجموعة أشخاص يهدفون الى هدف واحد تحت سلطة واحدة. ان هذا التحديد العام يبقى صحيحاً بالنسبة للمجتمع الرهباني . فلننطلق منه لنصل الى الحقيقة النوعية التي للشركة الرهبـــانية . انها ايضاً بشكل مجتمع او بالحري هي **عائلة جمعها الروح القدس ، تهدف الى اتحاد بالله عن طريق المسيح ، تحت احكام الطريقة (القانون)وسلطة الاب الرئيس الحية والمحبة** ، وهكذا نرى انه وراء شكلها الطبيعي تنغرس جذورها في ما فوق الطبيعي :

جمعها الروح القدس : أي ان الراهب جاء الدير بناء على دعوة من

الله . (واذا جهل الراهب دعوته او لم يخلص لها فهو يخدع نفسه بنفسه كراهب) .

تحت احكام الطريقة : والطريقة نظام كنسي لا بشري فهي تراث من الاختبار المقدس في الكنيسة عبر العصور .

وسلطة الاب الرئيس : أي رجل حي، مبنية سلطته لا على العنف بل على المحبة كالمسيح .

ان أسس الحياة المشتركة أسس عظيمة تستند أولاً على اللاهوت بالمعنى الاخير (أي عالم الله) ثم على حياة الكنيسة ، ثم على النسك المسيحي .

آ — الاسس اللاهوتية

هي الأسس الأكثر عمقاً ، بل نكاد نخاف عند بحثها اذ بها نقترب من سر الثالوث الاقدس نفسه .

كلنا نعلم انه على أثر التجسد اخذنا الاعلان الاخير عن الاله الحي : الاله الثالوث والواحد (Tri-Unité) واستأهلنا ان نفهم ان الله الذي هو « الوحيد » الكلي (لا اله الا هو ، ليس اله بجانبه) ، الواحد والمطلق (المنقطع عن أي شيء آخر absolu : ab solvere : coupé de) ، هو في آن واحد وحيد وغير وحيد ، الله الوحيد ليس وحده : فهناك ، داخله ، الحياة المشتركة ، الحياة التي ضمن الثالوث (La vie intra-trinitaire) .

قبل الاعلان الالهي لم يكن باستطاعة الناس الوصول الى الالوهة الحقيقية رغم توقهم اليها والتماسهم اياها في تصورات بشرية مختلفة عبر العصور . والفرق بين « **الاله الحي** » وتلك « الآلهة » الصامتة هو

بالضبط الحياة الالهية الممكنة لان الله ثالوث . لو كان الله وحده « دون آخر » ، اذا صح القول ، لما كان هناك انتقال ممكن ولا حركة ولا حياة . « أبانا » (الذي في السموات) هو « ابانا » **لانه** ولد ابنه منذ الازل وأبثق الروح . والابن هو ابن الآب . والروح القدس روح الابن . وهذه العلاقة « الثالوثية » التي داخل الثالوث الاقدس **هي حركة المحبة** . « والكلمة كان عند الله » : في الاصل اليوناني « كان نحو الله » Pros : vers .

وهذه العلاقة التي ضمن الثالوث الاقدس هي **أساس الخليقة الاخير** . ان الحياة المسيحية على حد قول القديس غريغوريوس النيصصي ليست الا تقليداً للطبيعة الالهية وتشبهاً بها . المحبة الموحدة (l'Amour unifiant) التي في الثالوث الغير المخلوق أعلنت لنا بتدبير تجسد المسيح الكلمة ، والمسيح الآتي الينا من قلب الثالوث حقق بتجسده سر المحبة الموحدة هذه في قلب الكون . المسيح « جمع » كل شيء فيه حسب قول القديس ايريناوس (a tont récapitulé) وبالحقيقة كل شيء — الخليقة المنظورة والبشر والملائكة والالوهة — كل شيء هو في المسيح كفي مركز (centre) ومحور الكائنات والوجود : « فانه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الارض ما يرى وما لا يرى سواء كان عروشاً ام سيادات او رئاسات او سلاطين . الكل به وله قد خلق . الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل » . (كولوسي ١ : ١٦ و١٧) . لقد كانت كل هذه منفصلة عن بعضها البعض مشتتة ، اما الآن فكلها تعيش حياة مشتركة واحدة هي المسيح ، هي الحياة المنحدرة من المسيح الذي هو — كإله — ينبوع الحياة . وبالتالي **ليس شيء بعد لذاته بل الكل هو لاجل الكل ، لاجل « الآخر »** : « كل شيء لكم ... واما انتم فللمسيح والمسيح لله » (١ كور ٣ : ٢٢ — ٢٣) .

والملائكة في هذا المضمار (ولا ننس ان الحياة الرهبانية بالنتيجة حياة ملائكية) احبوا الله الى درجة انهم عملوا من ارادتهم ارادة الله. الملائكة هم رسل الله الينا لانهم كيانياً « حضور » (او حضرة) لارادة الله . انهم في ذواتهم ، ودون جهد ، ارادة الله . الملاك هو كذلك ، هو ارادة الله . عندما يظهر الملاك للبشر يظهر لا ككائن منفصل بل هي ارادة الله تأتي الينا فيه . ولذلك نرى الكتاب المقدس يستعمل في العهد القديم عبارتي « ملاك الرب » و « الرب » بمعنى واحد دون فرق .

اما الانسان ، فقد اراد الله الانسانية المخلوقة على صورته مركزاً لتوحيد الخليقة كلها . فكانت الخليقة تخضع لآدم ، لا خضوع العبد للسيد – اذ لم تكن الخطيئة بعد في الكون – بل خضوع الاجزاء للمركز . كان آدم « رئيس كهنة » الخليقة (Pontife) . وكانت الغاية من هذا الوضع ان يصبح آدم والخليقة جسماً واحداً : لا جسدياً بل روحياً ، (ولا على منوال الاجتماع الجنسي الذي لم يكن موجوداً بالشكل الخاطىء الذي هو عليه الآن) . كانت الغاية ان تتحد الخلائق كلها في حوار محبة مع الانسان ، وكان لهذا الاتحاد ان ينتج لنا « زيادة كيان » كياناً « أوفر » . نحن لنا الآن الطبيعة البشرية ، ولكن ليس كلها بل جزء منها فقط . اما الطبيعة البشرية كلها فكانت في آدم (قبل السقوط) ثم أصبحت في المسيح (بصورة اكمل ايضاً) . يتضح من كل ذلك اني لا استطيع ان اعيش لوحدي لاني لا أحقق كياني ، ملء كياني كانسان ما لم أنل « زيادة الكيان » من « الآخر » ، في حوار المحبة مع الآخر . هذا هو معنى الحياة المشتركة : « اذا اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي اكون في وسطهم » . وهكذا يتحقق ملء البشرية : على مثال حياة الثالوث الاقدس بواسطة السيد المسيح الذي أدخلنا اليها .

ب – الاسس الكنسية

ونعني بها على مثال الكنيسة كحياة روحية (fondement ecclésial)

من الناحية التاريخية كانت الكنيسة النظام الاول للحياة الرهبانية المشتركة ، فالشكل الأول للكنيسة كما تصفها اعمال الرسل كان حياة الشركة وليس التوحد . كان الرسل والتلاميذ قد نالوا الروح القدس يوم الخمسين فتركوا من تلقاء انفسهم – وبالهام الروح – نظام الحياة الطبيعية العادية ليجتمعوا ويعيشوا الحياة الجديدة : « وكل شيء عندهم كان مشتركاً » (اعمال الرسل ٤ : ٣٢) . انه النموذج الكامل للكنيسة وللحياة الرهبانية المشتركة .. ثم عند انتهاء كنيسة الشهداء وبالنظر لتفشي الفساد في العالم الروماني خرج المجاهدون الى البرية ليصارعوا الشيطان : فكان نظام حياة التوحد الذي دام قرناً واحداً على وجه التقريب (من انطونيوس وباخوميوس حتى باسيليوس) . **وفي عام ٤٥١** اجتمع مجمع خلقيدون المسكوني فكان مرحلة حاسمة في حياة الرهبانية : اذ قبله كان المتوحدون المجاهدون الكبار (او المتمردون منهم والمعكرون صفو الكنيسة) يشكلون سلطة مستقلة ، بل حدثت مع الاسف اساءات استعمال كثيرة (فكان الاغنياء مثلاً يؤسسون الاديرة ويجعلون انفسهم رؤساء عليها) . **فقرر المجمع المسكوني الرابع المذكور ان تدخل الاديرة الكنيسة عن طرايق خضوعها لمطران الابرشية** . وهكذا حُفظت الحياة الرهبانية ، وايضاً فُهمت فهماً عميقاً : فالمطران يمثل الكنيسة الجامعة : فصار الرهبان في خدمة الكنيسة . وشركة الرهبان تمثل الكنيسة بشكل منظور – الكنيسة الكاملة النموذجية – : فصارت كل الاكتسابات الروحية والنصائح والجهادات النسكية التي للرهبان لا تتبدد وتضيع بل تعود للكنيسة

بشكل مؤلفات روحية وأعمال رسولية وأعمال رحمة ،وايضاً خدمات حضارية . **وهكذا عاد الرهبان الى مقدمة الكنيسة وطليعتها** . كانت قد تطورت الأزمنة والحاجات في كنيسة الله فتغيرت معها النية الالهية. فبعد عهد الشهداء الذين رووا الايمان بدمائهم ، وعهد متوحدي البراري الذين ظهروا للعالم بنسكهم ، واجهت الله ضرورات وحاجات جديدة: ومرة اخرى لبى الرهبان النداء ، فنقلوا الينا الحضارة القديمة ، وشيدوا اول المستشفيات في العالم ، وانقذوا قيم الخير والجمال ، ولقنوا الانسان التقدم البشري ، حرثوا الاراضي البائرة ، علموا الناس زراعة القمح وري الاراضي وبناء البيوت ، وربوا الانسانية في المسيح . **وقد استطاعو ان يفعلوا ذلك لانهم بالضبط كانوا يعيشون حياة مشتركة، حياة تحولهم الى قوة روحية في خدمة الله** ، وهم واعون ان حياتهم المشتركة « موجهة » وان عليها ان تبلغ الى المسيح في القريب . فمن مجمع خلكيدون يبدأ « الزمان الجديد » للرهبانية المسيحية وهو لا يزال الى اليوم .

ج – الاسس النسكية

النسك المسيحي هو طريق الكمال (قدر امكان الانسان ، اذ ان التحرر من الاهواء هو بالنهاية نعمة من الله) . والحياة المشتركة تقدم لنا أضمن اطار نمارس داخله النسك . ففي الحياة المشتركة تلتزم حرية الراهب وتتحرر في آن واحد . يلتزم الراهب ان يعيش حسب الطريقة الرهبانية ولكنه يتحرر من كثرة الاهتمامات التي من شأنها ان تعوق جهاده النسكي : حاجات الجسد من جهة ولكن حاجات النفس ايضاً فالحياة المشتركة تحرر المرء من التردد النفساني الذي قد يستولي عليه اذا بقي وحده . وتحرره ايضاً من الخجل الروحي الذي يمنعنا من الـ

نحو الله يجد ومثابرة . ثم ان المرء وحده لا يعرف ذاته وامكانياته فتأتي الحياة المشتركة بمثابة سد امام مياه بحيرة فتجد هذه طاقتها. وهكذا بمعرفة ذاته يصبح الراهب اداة لخدمة الله . لان الله ليس بحاجة لنا في ذواتنا بل كأداة ، « كعبيد بطالين » . لا يريد الله منا ان نحقق الكمال الذي نقدر عليه بل ان نخدم . اننا نقدم ذواتنا لله لكي نتحول الى اداة للنعمة الالهية . وهذا التحول يتم بصورة أفضل وأسهل وأضمن داخل الحياة الرهبانية المشتركة .

الفصل الثاني

قوام الشركة الرهبانية

رأينا في الفصل السابق الأسس التي تبنى عليها الحياة الرهبانية المشتركة (الأسس اللاهوتية والكنسية والنسكية) فننتقل الآن الى بحث قوام الشركة الرهبانية وتفاصيل تركيبها (structure) وسيرها[1] .

---

١ ـ لا بد هنا ـ ومن أجل تفهم هذا الباب المتعلق بالتطبيق العملي للمبادىء الرهبانية ـ لا بد من ابداء بعض الملاحظات نسوقها بصورة خاصة الى الرهبان (لأنهم « في الميدان ») :

عند قراءة هذا الوصف للرهبانية المثالية قد تحدث عندنا بعض ردود الفعل النفسانية التي تشكل خطراً على الراهب فيجب الانتباه اليها : يجب اولاً ان لا نقع في نوع من اليأس امام هذا الوضع لشعورنا ببعدنا عنه . انه وضع حقيقي يتضمن واجبات الرهبان الواقعية ولكنه مثالي ، اذ سنبحث هنا الحالات المثالية ، الحالات الاخيرة الاتية الينا من الاباء . فينبغي الحرص لعدم الوقوع في مركب اليأس هذا وثبوط الهمة امام ذلك ... ـ ثم يجب عدم أخذ هذه الامور (النصوص والانظمة الرهبانية) بشكل حرفي وكفرائض مجردة تطبق حرفياً دون تمييز . انها ليست كذلك ولله الحمد، ولكنها تعرض هكذا ككل حكمة بشرية : اذ هي مبنية على الحرف لزاماً (كالانجيل مثلاً) ولكنها في الحقيقة والداخل شيء آخر ، فليس الأمر تطبيق الحرف.ـ واخيراً يجب عدم اعتبار هذه الامور صعبة التطبيق جداً ، بل فلنشكر لله لأنه اعطانا نعمة وفرصة لمعرفة حياة هؤلاء الرهبان القديسين المتوشحين بالله . ولنقف موقف اتضاع وصبر وثقة : اتضاع لبعدنا عنهم ، وصبر للحاق بهم (لا عدم الصبر للمساواة بهم لانه ليس لنا ان نصير قديسين ورهباناً صالحين بل لنعمة الله) ، وثقة بهذه النعمة الالهية وباننا اذا جاهدنا الجهاد الحسن فالباقي يزاد لنا . وقد قال القديس اسحق السرياني : « حتى ولو كان علينا ان لا نبلغ الى ارض الميعاد الافضل لنا ان تبقى عظامنا في البرية (كموسى) من ان نعود الى مصر » . فعلينا ان نثق بالله ونسير في طريق الاباء الملوكي ..

لا ننسَ اولاً ان الشركة الرهبانية تمثل كل الكنيسة (وهذه كرامتها)وان الراهب ليس سوى مسيحي يذهب بمسيحيته الى حدودها القصوى . ولكن المسيحي لا يحقق خلاصه وكماله كمسيحي الا ضمن الكنيسة . وكذلك وبالاحرى فان الراهب لا يبلغ كماله كراهب الا ضمن الشركة الرهبانية . وبما ان الكنيسة تقوم على الاسقف من جهة وعلى مجموع العقائد والحقائق التقليدية من جهة أخرى فكذلك الشركة الرهبانية تقوم على مركزين ومحورين اثنين يؤمنان لها الأساس الغير المتزعزع والنمو الروحي ، هما الأب الرئيس (abbé) والطريقة (قانون الرهبنة)، وفي كنفهما تعيش أسرة الشركة ،أي مجموع الاخوة.

علاقة الاب الرئيس والطريقة

ان مركزي الشركة الاساسيين مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ودائماً ، يمكن تحديده كما يلي :

على الحياة الرهبانية الكاملة ان تجمع بين العزلة والشركة : فالعزلة (الوحدة) هي العنصر الشخصي الخاص (l'élément intime) ، ولكنها محاطة ومحروسة ومحمية في الكنيسة بواسطة الطريقة (التي تنظم الحياة المشتركة) . لان العزلة تستلزم استعدادات خاصة لا يمكن طلبها من كل أحد . فتأتي الطريقة كعنصر ثبات يحمي الكل من الاخطار الرابضة وكطريق ملوكي مفتوح للجميع . لذلك يمكن القول (الى حد ما) بأن الأب الرئيس يمثل العامل الشخصي الذي يتكيف حسب الاوضاع والظروف ، بينما الطريقة هي العامل الغير الشخصي ، والغير المتغير ، البيئة المعروضة لدخول كل واحد دون استثناء .

ولذا فالمركزان مهمان على السواء للراهب الساعي نحو الكمال : من جهة أولى الطريقة بنظامها وحدودها الواضحة والمتينة تنقذه من ريبة

حياة روحية فردية ومزاجية ، غير مضمونة الاصالة . ومن جهة ثانية الكمال الروحي ليس كمالاً مجرداً عمومياً بل هو كمال الشخص الحي (الله هو إله « ابراهيم واسحق ويعقوب » إله أشخاص معينين « بأسمائهم » والاسم دلالة على فرادة الشخص الذي لا يمكن ان يقوم مقامه آخر) فيتكيف الكمال بالنسبة لكل راهب حسب وضعه ويهضم من قبله وهذا دور الاب الرئيس : انه يؤمّن سريان الطريقة وثباتها واستمرارها ولكنه يحترم الفروق بين الاشخاص ويراعي هذه الفروق ضمن احكام الطريقة الواحدة . فهناك اذن نوع من الحركة الديالكتيكية بين الاب الرئيس والطريقة : الاب الرئيس يستلهم الطريقة ويُجري احكامها ولكنه يفسرها ويؤوّلها حسب حكمته في كل حالة من الحالات المختلفة . ولذلك فليس هناك خطر الجماعية الضيقة التي تماثل بين الاشخاص جاهلة حق الشخص ومعتبرة اياه كفرد ضمن المجموع الذي يفوقه اهمية . ان الشركة الرهبانية تبتغي بالعكس ان تؤمّن لكل راهب كماله الذاتي . ولذلك لا تطبق الطريقة حرفياً .

١ – الاب الرئيس

الاب الرئيس يمثل الاسقف في الشركة (نسبة للكنيسة) ، وذلك لا من الناحية الحقوقية فقط ، بل هو – كالأسقف في الكنيسة – يمثل المسيح . وهذه النظرة العميقة جداً تترتب عليها نتائج للأب الرئيس والأخوة .

ان الأب الرئيس من هذه الناحية يتمتع بصفتين : انه أب وراعٍ .

آ – اب

كأب يتجه لحياة الرهبان **الشخصية** (والعلاقة هنا بين الرئيس

والراهب علاقة محبة وحسب : الأب « يلد » الإبن ويربيه ويعطيه من نفسه وروحه) . ويجب ان **يعرف** كل ابنائه قدر الإمكان وبأعمق ما يمكن : شخصيتهم ، ميولهم ، مشاعرهم ، ضعفاتهم ، مؤهلاتهم .. ويجب ان **يحبهم كما هم** من أجل محبة المسيح لهم ، لانه أب في المسيح . هم أبناؤه لا حسب الجسد ولا بسبب فضائله الذاتية بل من قبل ارادة الله مباشرة . هم أبناء الله قد « تُبنوا » (adoptés) عن طريق الابن . وروح البنوة هذا المنحدر من المسيح ، يمكّننا بدورنا ان ننقله لغيرنا ونلد ابناء جدداً في المسيح[1] . ثم على الأب الرئيس كأب ان **يستعمل سلطته** ، وهي سلطة من حقه : بحق القدم والخبرة والمسؤولية . فيجب ان لا يتردد ولا يتأخر في استعمال قوته الروحية لادارة وتعليم واصلاح ابنائه . وكذلك يجب ان يتصرف بلياقة وفطنة مكيفاً احكام الطريقة لكل من أبنائه ، ويفاتح الراهب المتأخر ويفهمه ما يطلب منه ويعفيه جزئياً من بعض الواجبات في حالات المرض والضعف .. (ولكن على سبيل الاعفاء فقط وليس على سبيل تعطيل الطريقة التي تبقى كاملة غير منقوضة) . وعلى الأب الرئيس ان يكون **عادلاً** ، ولكن **الرحمة** فوق العدل دائماً ، لاننا لسنا في « جماعية » ضيقة كما قلنا أعلاه[2] .

ب – راع

ان الأب الرئيس كراعٍ يتجه **للشركة** ، فالشركة بمثابة قطيع وهو « رئيس القطيع » (هذا هو معنى لفظة أرشمندريت باليونانية) . وعليه

---

١ – هذا هو المعنى الحقيقي للقب « ابونا » الذي يعطى للرهبان والكهنة . وقد ورد في احدى الانتيفونات للقديس يوحنا الدمشقي : « يدل ثمر البطن ان « الاب » يحلب لك يا الله ابناء جدداً في المسيح مولودين بالروح » .

٢ – قيل يوماً للاب بيمن : « ان بعض الرهبان ينامون في الكنيسة اثناء الخدم الليتورجية فان رأيتهم فماذا تصنع بهم ؟ » أجاب : « اجعل اولئك الاخوة التعبين يستريحون وينامون على ركبتي » ..

بهذه الصفة مسؤولية نوعية . ويجب ان يتحلى ببعض المزايا والفضائل : يجب ان يكون راهباً أكثر من اخوته ، متقيداً بانتباه بالطريقة والنذور الرهبانية ، متصفاً بنقاوة حياته وعمق صلاته . يجب ان لا يتميز عن ابنائه في الطعام واللباس او الراحة . فهو غير منفصل عن قطيعه ولكنه يقوده فقط ويقوده من الداخل . يجب ان يكون متعلماً ، لا بالعلوم البشرية التي قد ترجع ضده وضد قطيعه بسبب ما تحدثه من الكبرياء او التجريد ، بل في حكمة روحية تؤهله ان يفهم في آن واحد المبادىء (الحقائق العميقة المستيكية) والوقائع (أي الحالات الواقعية التي تعرض فيها تلك الحقائق) ، ويحفظ التوازن بينهما لمنفعة الاخوة الروحية . يجب ان يكون عارفاً للكتاب المقدس وتقليد الآباء . وان يكون كاهناً قدر الامكان ، لانه يستمد من الكهنوت قوة جديدة باقامته الاسرار وترؤسه الليتورجيا . هذا وعلى الراعي الحقيقي ان يكون غير متحيز ، ولا متصرف بحسب شعوره وانفعالاته ، لطيفاً وديعاً مع الجميع ، صبوراً خاصة على الطبيعة البشرية التي لم تتطهّر بعد ، لا يزعل ولا يتضايق . ثم واجب عليه ان يستعمل سلطته كراع فيفرض القصاصات المحددة في الطريقة على من يعكر صفو الحياة المشتركة عند اللزوم (عند الاخطاء الكبيرة او المتكررة او المعروفة لدى بقية الاخوة) فانه مسؤول امام الله عن القطيع . وقبل كل شيء يجب ان ينمي في قطيعه التفتيش عن ملكوت الله والفهم العميق لمعنى الحياة الرهبانية ولا يغرق في الاهتمامات الادارية والمادية . اخيراً يجب ان يعي مسؤوليته الكبيرة أمام الله : فعندما يتقبل العصا الابوية من الاسقف وهو جالس في الكرسي الابوي الى جانبه يقول له الاسقف في صلاة صغيرة : « عليك ان تؤدي حساباً يوم الدينونة فلا تنس ذلك » .

ان الاب الرئيس ابن الطريقة وحارسها في آن واحد: كابن عليه ان

يبقى في تطبيقها ضمن التيار التقليدي الكبير ، وكحارس عليه ان يعطيها من شخصيته وروحه لاغنائها وتأمين استمرارها . .

٢ – الطريقة

لا يمكن تصور شركة رهبانية بدون طريقة . فالطريقة تحدد هدف الشركة وطريقها . انها مجموعة أوامر مقدسة صدرت عن أب قديس وقبلت في تقليد الكنيسة . هدفها ان تفتح النفوس لارادة الله وتقودها في التواضع والمحبة للاتحاد به . هي ليست كأي قانون عضوي لأية جمعية ، بل تتضمن نهجاً (طريقة) للوصول الى الكمال الروحي : ما كان يعلمه الآباء تعطينا اياه . فيجب ان يكون خضوعنا لها خضوعاً من الداخل لان اتباعنا لها يقودنا الى الله . ان الطريقة « وسط » تقديسنا . هي تأتي من روح سيرة قديسة ، من حقيقة حياة بطاركة الرهبان ، وتؤدي فعلاً الى الحياة التأملية (الثاوريا) . فيجب ان نعرفها ونقرأها ، ولكن لا حرفياً ، بل لا بد لنا من جهد لاكتشاف الروح المخفي وراء الحرف .

على الطريقة ان تقوم في تيار التقليد الآبائي ، وتتصف ببعض الميزات : يجب ان تكون واضحة دقيقة (تجيب على كل الاسئلة التي يمكن ان تعرض في حياة الشركة) ، قصيرة غير مسهبة ، معتدلة مميزة أي غير متطرفة لا من هذه الجهة ولا من تلك ، حازمة ولكن بوداعة ، اذ تنجم عن محبة الله ويجب ان توقظ هذه المحبة في النفوس (ولو كان ظاهرها كنص حقوقي مثل طريقة القديس بندكتوس مثلاً ، ولذا تعاد قراءتها بالحاح) . وعلى الطريقة تحديد مسؤولية الاب الرئيس ومختلف المجالس والوظائف المساعدة له وتنظيم الناحية الادارية والمادية لحياة الشركة ، وبصورة خاصة تقديم منهاج روحي للحياة الداخلية والحياة الليتورجية للشركة .

ان عائلة الاخوة الرهبان تمتاز أولاً بالتساوي الروحي الرائع بينهم. لا شك ان هنالك فروق المزاج والمؤهلات والعلم وغيرها كما هو طبيعي، ولكن بالرغم من ذلك فان الاب الرئيس والطريقة يحققان تساوي هذه العائلة في المسيح : « لا عبد ولا حر ، لا رجل ولا امرأة !. » ان قول بولس الرسول هذا لا يعني ان يكون الكل طبق نموذج واحد ، بل (وهم متحدون في المسيح) ان تبقى لكل واحد ميزاته الشخصية الايجابية المقبولة لدى الله. المساواة بين الرهبان تعني ان كل راهب يحقق حياته دون ان يطلب لنفسه كفرد غير ما يناله الجميع . انها حقاً عائلة وليست مجتمعاً فقط : حياة مشتركة في طريق واحد وشعور واحد بالفرح الروحي . ولذا على الاخوة ان ينموا الروح العائلية وروح المحبة بينهم : عدم التذمر بعضنا على بعض ، الفرح لتقدم الآخرين مع متابعة تقدمنا نحن ، بطاعتنا الواحدة المستمرة للاب الرئيس والطريقة : الامر المهم والاساسي في المحافظة على روح العائلة هو ان يكون كل أخ واعياً ان الله نفسه يكلم من يطيع[1] .

١ ـ قد نشعر احياناً بالشك والقلق واليأس لظننا اننا لا نتقدم واننا نعيش حياة بشرية عادية فنجعل نفكر ان هناك طرقاً اخرى تؤدي الى الله بصورة أسرع وأجدى من بقائنا في الدير ، ونظن اننا وجدنا بذلك بصيصاً روحياً ... ولكن هذه تجارب هذه زيارات الشيطان الذي ، وهو الغير المطيع و « روح عدم الطاعة » يخشى ويبغض أكثر ما يخشى ويبغض ، طاعة الراهب وانقياده لارادة الله في المحبة والانفتاح والاستسلام . يجب اذن ان نفهم وندرك بكل كياننا ان الله يفعل عبر الطريقة وخاصة عبر الاب الرئيس ، وانه يتوقف علينا ان نتقدم . اذ يكفي ان نطيع اي ان نقبل الاوامر كأنها آتية من الله ، بتواضع واحترام ، بفرح واستسلام . لقد كان الاباء يعرفون ان يروا ارادة الله في اي مظهر من المظاهر ، فالقديس افرام السرياني استفاد مرة من امرأة زانية اذ كان ينظر اليها مارة في الطريق ويتأمل حالها وهي تنظر اليه ، فقالت له : « ايها الراهب انظر الى الارض لانك من الارض تأتي واما انا فأني آتي منك » فشكرها القديس وذهب منتفعاً ..

ثم على عائلة الاخوة ان تكفي ذاتها بذاتها من الناحية الاقتصادية لكي لا تكون مملقة على الخارج. وعلى عائلة الاخوة ان تشترك في ادارة الدير وحياته : فيدعو الاب الرئيس كل الاخوة في الحالات الماسة والموجبة ويستشيرهم، مستمعاً حتى الى رأي الأصغر فيهم لان الله كثيراً ما يتكلم بفم الصغار . ويساعد الرئيس في الحالات العادية « مجالس » الشركة المنتخبة من قبل الاخوة : مجلس روحي مؤلف من جميع الآباء الروحيين في الدير يضاف اليهم ثلاثة الى ستة رهبان كهنة ، او رهبان فاضلين ذوي فهم روحي ـ ومجلس اقتصادي مؤلف من المدير والمحاسب وأمين الصندوق وحافظ الكنيسة والمضيف .

هذا وان واجب الجميع ان يسهروا — كل في وظيفته ومحله — على المحافظة على النظام (ولا نعني به النظام الخارجي المادي بل نظام روح الله الذي قال عنه الرسول : « ليس الله إله تشويش بل إله سلام » (١ كور ١٤ : ٣٣) وعلى السلام الداخلي والعلاقات الحسنة بين الجميع.

الفصل الثالث

الشركة الرهبانية والطاعة

الشركة الرهبانية تسير بالطاعة

لقد سبق وتكلمنا عن الطاعة ورأينا كيف انها فضيلة عميقة ، حتى ان الكثيرين من الآباء اكتفوا بالتكلم عنها فقط معتبرين ان اكتساب الفضائل الاخرى يتوقف بصورة ما على فهم الطاعة وتطبيقها بشكل صحيح . وقد اكد القديسان باسيليوس وبندكتوس وغيرهما من مؤسسي الرهبنات على ان الراهب اذا كان يطيع الله من كل كيانه فسائر الفضائل تزاد له . ولكننا الآن نبحث في الطاعة بالنسبة لسير شركة الاخوة .

آ — الطاعة اساس حياة الشركة

ليست الشركة مجموعة اخوة يعيشون معاً وعلى كل منهم ان يقبل الآخرين ويتحملهم . بل هي مكان تقديسنا ، وقد أنشئت في الأصل بوحي الروح القدس لتقودنا الى الكمال الروحي . فداخل الشركة التي بهذا المفهوم سنرى الآن الطاعة تسير .

ان الطاعة اساس الحياة الرهبانية المشتركة وذلك لأسباب بديهية ولا شك وهي ان « كل مملكة تنقسم على ذاتها لا تثبت » . ولكن هذه الأسباب أعمق من بديهية : نعني انه ليست هناك الا طريقة واحدة لإمكان البلوغ الى الكمال الروحي : ان تتخلل هذه الشركة البشرية ارادة ليست ببشرية ، ان تتخلل وتحيي كل الوسائل والارادات الخاصة ارادة واحدة هي ارادة الله .

ان المجتمعات البشرية العادية تنكر الانسان . ان الناس العائشين معاً يعيشون مثل ذرات مجموعة تؤلف شيئاً ما ، ولكن كل ذرة منها تبقى لوحدها ، ولم نحصل على هذا الشيء الا عن طريق التجمع الخارجي الذي ينكر الانسان . الناس اجمالاً يعيشون معاً لأن واحداً ما جعلهم بعضهم مع بعض او لان الظروف جعلتهم في كنف ارادة خارجة عنهم يخضعون جميعهم لها (وفي بعض الأحيان لانهم اختاروا ان يعيشوا معاً محاولين تجاوز ارادتهم الخاصة لاطاعة ارادة خارجية) . انهم يخضعون معاً لهذه الارادة الخارجية وينفذونها ولكنها تمارس عليهم . ومن ناحية ثانية ان وحدة مجتمعهم معلقة بهذه الارادة الخارجية ومتوقفة عليها . وهذه الوحدة لا يمكن ان تكون الا موقتة لأن ارادة القوة تناقض طبيعة البشر الميالة للحرية دائماً فيأتي يوم عاجلا ام آجلا تختلف فيه الآراء والارادات وتنقسم ، فتزول وحدتهم لأن كل مملكة منقسمة على ذاتها لا تثبت .

ان الطريقة الوحيدة لعدم انكار الانسان من جهة ولثبات مجتمعه من جهة اخرى هي ان تصبح الارادة الانسانية (التي يجب ان تستمر حية حتى النهاية) ، اداة طوعية وانعكاساً لارادة الله . عندئذ فقط يثبت المجتمع ، ويتقدم في طريق الكمال ، وعندئذ يساهم منذ الآن في كرامة مملكة الله : ذلك لأن غاية الانسان الحقيقية انما هي الله ، هي ذلك التسامي والخلود الالهيين ، ولأن في الله وحده الانسان غير مُنكر . ان ارادة الله ليست ابداً وفي أي وقت من الأوقات خارجية بالنسبة للانسان . ان ارادة الله ومملكته لا تأتي كمملكة قوة بل كمملكة محبة . فارادة الانسان لا تُسَرّ اصلاً من الخارج بل من الداخل وحسب .

اذن الارادات البشرية اذا ما تُركت لذاتها لا تتفق. انا لا استطيع ان اضع ارادتي قانوناً وشرعة للآخرين . ففي ارادة الله وحدها تثبت الشركة وتدوم اذ ليس سوى أساس واحد لحياة الشركة : ان نخضع لارادة الله ، وليس هناك الا ارادة واحدة نلتقي فيها جميعاً : هي ارادة الله ...

والشركة الرهبانية تنمو بالطاعة ايضاً . فالطاعة قبل كل شيء تؤمن الانفصال عن العالم (ونعني به هنا العالم كاغواء وتجربة، «كروح العالم» لا كمكان) . فاذا كنا لا نطيع تضيع شخصيتنا في اهتمامات العالم ويستعبدنا عاجلا ام آجلا . فالوسيلة الفضلى للابتعاد من تجربة العالم واغوائه هي الخضوع لارادة الله . ثم ان الطاعة تؤمن لنا التقدم نحو الكمال : انها تحفظنا من التعثر في الطريق . لا يمكننا ان نتقدم الا اذا سرنا في طريق واضحة واتبعنا ارشادات دليل يحمينا ويشددنا في الطريق . والدليل هو الطاعة . والطاعة تدفعنا الى الأمام بدون جهد تقريباً . الطاعة تعفيني من هم التفتيش عن الطريق . وان كنت لا أطيع اعرّض نفسي للسقوط اما لليمين او لليسار كما يقول الآباء . لليسار : اي بمخالفة ارادة الله بشكل ظاهر واضح . لليمين : اي بالعكس في شكل ظاهره موافق لارادة الله ، وهذه تدعى « تجارب القداسة » (افكر مثلا انه يجب ان اصوم اكثر من غيري وابداً فابالغ في الاماتات واتطرف متمسكاً بالحرف والقشور واصر على ان هذه الطريقة هي طريق القداسة الوحيدة . فيتسرب العناد والكبرياء شيئاً فشيئاً الى نفسي وابدأ بالانتقاد والتذمر على الأب الرئيس وعلى الاخوة .الخ.الخ.

لا لا ان الهنا « ليس اله تشويش »[١] فمن اجل الاسترشاد في طريق الكمال الروحي وعدم السقوط لليمين أو لليسار ليس افضل من الطاعة . لا نظن ابداً ان الكمال يأتينا اثناء الليل فنجده في الصباح : انه يُكتسب يوماً بعد يوم ساعة بعد ساعة . والطريقة الاساسية هي المضي والاستمرار في النظام الرهباني اليومي : وذلك بالطاعة .

لقد قال المغبوط اغسطينوس : « محبتان خلقتا مدينتين : محبة الذات حتى احتقار الله خلقت المدينة الارضية ، ومحبة الله حتى احتقار الذات خلقت المدينة السماوية » . فالحياة الرهبانية بمثابة « مركز امامي » للمدينة السماوية ، والا فلا معنى لها . والطاعة (محبة الله حتى احتقار الذات) هي التي تقربنا من الملكوت .

ب – من نطيع وكيف نطيع

من نطيع : نطيع واحداً هو الله وحسب . ونطيعه في المسيح :

---

١ ـ يجب الانتباه دائماً لنعرف كيف نسلك بتمييز . فالحياة الروحية تجمع المتناقضات ولا يمكن ان نسلك فيها في اتجاه واحد متجاهلين الاتجاهات الاخرى . فمثلاً يسوع الذي هو المحبة والذي اوصانا بان نحب اعداءنا هو نفسه قال : من لا يبغض اباه وامه لا يستطيع ان يكون لي تلميذاً . فينبغي فهم مثل هذه المتناقضات من على الصليب حيث تتوافق . ينبغي التصرف حسب كل حالة وظرف . فالمسيحية ليست فكرة مثالية بل هي حياة واقعية تعلمنا ما يجب ان نعمله ظرفاً ظرفاً وخطوة خطوة . يروون ان راهباً في البرية كان كلما أتته افكار كبرياء : « انت عظيم وقديس الخ » .. صدها بقوله : انما انا حقير غير مستحق للسماء ولا للارض .. فكان الشيطان عندئذ يوحي اليه قائلا : « نعم انت حقير ، انت خاطىء وهالك لا محالة وصائر الى الجحيم » .. مريداً ان يوقعه في اليأس ، فكان يجيبه « صحيح اني رجل خاطىء ولكني شريف اتقي الله وهو يحفظني وارجوا خلاصه » . فظهر له الشيطان مرة ثانية وصاح في وجهه قائلا : « ملعون انت ايها الراهب فاني لا اعرف كيف اعاملك » ! يجب اذن ان لا نرى ناحية واحدة من الامور . فلو كنا سمعنا قول الراهب الاخير : انا شريف الخ .. دون بقية المحاورة لاعتقدنا بأنه متكبر ..

« من يحبني يحفظ وصاياي » ، « بهذا يعرف الناس انكم تلاميذي ان كنتم تحفظون وصاياي » . ولكن حبنا لله يجب ان يتحقق ويتجسد والا لا يكون حباً بالاطلاق بل وهماً . الحب شخصي دائماً ، انه الفضيلة التي تخلق الشخص[1] .

اما الله فيجب ان نحبه كمتجسد في شخص . وهو كمتجسد ممثل أعمق ما يكون في شخص الأب الروحي الذي سلمني الله اليه ، فأنا كابن لله مولود من ابي الروحي ثم الله ممثل في الاخوة ، فاطيع الاخوة ايضاً[2] .

كيف نطيع : على الطاعة ان تتصف ببعض الميزات : اولا : ان **تكون طاعة داخلية** . فالطاعة الرهبانية ليست خضوعاً لأمر الغير (كما في الجيش مثلاً) بل نحن نطيع الله في اخينا . انه يتوقف علينا (على موقفنا الداخلي) ان نرى الله في اخينا ، ان نرى كل شيء كأنه آت من الله فنطيع بتواضع ومحبة .

ان الحياة الرهبانية توفر لنا منذ الآن ما يصل اليه القديسون بعد جهاد سنين طويلة . انما هذه القداسة متوقفة على موقفي الداخلي الذي يجب ان يرافق دائماً طاعتي الخارجية لاخوتي . في الحقيقة الأمر ليس سهلا : ان اخاً من الاخوة يضايقني ، انا لا أحبه . فأول حركة تبدر

---

١ ـ المحبة اهم من المعرفة . فالمعرفة تحلل وتجزيء ، تفرغ الشيء من شخصيته (désincarne) اما المحبة فهي معرفة افضل . هي معرفة حقيقية اذ اني احبك كما انت لا من اجل فضائلك اذ عندئذ احب نفسي لا انت .

٢ ـ الرهبان الحقيقيون لا يطيعون الاب الرئيس فقط بل يطيعون بعضهم بعضاً ايضاً . اذا قال لي اخ ارجوك ان تحمل لي هذا الغرض أطيعه حالاً ولو كنت مشغولاً : « اذا سخرك ميلا فامش معه ميلين » .

مني تجاهه هي حركة ضيق ونرفزة . هذا أمر طبيعي . ولكن طاعتي له بالرغم من ذلك تكون عندئذ أفضل امام الله . ففي طاعتي هذه أتحقق وأتقدس وارمي شيئاً مني خارجاً ، ارمي شيئاً مما هو مائت في وأقوم في المسيح[1] .

ثم يجب ان تكون طاعتنا واعية غير « آلية » . فبالنسبة لعملنا في الدير مثلا يجب ان نقوم بالعمل جيداً لا من اجل الأب الرئيس او الاخوة فالطاعة تتجاوز الناس وتعمل العمل لله : « عمل الهي » كما يقولون (Opus Dei)[2] .. اذن يجب ان نحب العمل ولكن غير متعلقين به بل طاعة لملك الملوك وحباً بالمحبة .

ثم يجب ان تكون طاعتنا فرحة وهذه ميزة اساسية ايضاً . ذلك لان الطاعة غير سهلة اصلا : انها على وتيرة واحدة وقد تضايقنا لعدم

---

١ ـ كان راهب في خدمة اب شيخ يطيعه . وكان كل ليلة ينطلق من عند الشيخ بعد اخذ بركته . فنسي الشيخ يوماً ان يباركه . فبقي الراهب واقفاً على الباب طول الليل . وحاربته فكرة الذهاب سبع مرات في الليل ولكنه غلبها سبع مرات وبقي واقفاً على الباب . اما الاب الشيخ فحصلت له في صلاته رؤيا رأى فيها تلميذه مكللا بسبعة اكاليل . فلما جاءه عند الصباح سأله الشيخ : « ماذا صنعت هذه الليلة؟ اجاب: لم اصنع شيئاً مطلقاً ـ هل صليت ـ قليلاً ـ هل سجدت ؟ كلا ـ الخ ... فألح الشيخ وروى رؤياه لتلميذه ولما عرف كيف قضى ليلته قال : « هذه الاكاليل انما هي ثمر الطاعة » .

ـ وكان في احد الاديرة الروسية في القرن الماضي راهب بسيط قضى كل عمره في الخياطة في الدير ولما اشرف على الموت كان في اشراق وسلام غريب وقد لاحظه الرهبان اخوته الملتفون حول فراشه . فقال لهم : « الى بفتاح الملكوت . فأتوه بالصليب فقال: لا . فأتوه بأيقونة العذراء فقال : لا . فأتوه بالانجيل . فقال : لا . بل الابرة ابرة الخياطة . فاني بها فتحت ملكوت رحمة الله نحوي » .

فالله اذن ينظر الى القلب ، الى الموقف الداخلي ، ولا ينخدع بهمتنا الخارجية . قد نأتي بالامور العظيمة ونحرق جسدنا دون ان نستفيد شيئاً .

٢ ـ يقولون في الغرب هذا عمل رهباني « بندكتي » اي عمل كامل لا تشوبه شائبة.

حبنا للاخ الذي نطيعه او للعمل الذي نعمله وقد تأتي اوقات نشعر فيها اننا قد نكون اكثر راحة في مكان آخر وفي عمل آخـــر ، فتبدو لنا الطاعة رتيبة ، باهتة ، غير مثمرة وليست ذات نتائج .. فشيطان الحزن يجعلنا نطيع بحزن ودون فرح ، فيسرق منا ثمر الطاعة[1] . الموقف الصحيح هو الطاعة بفرح . انا اطيع الله ولذلك اتيت الدير . والطاعة مثمرة وفعالة دون ان اعي ذلك الآن . فليست القداسة في ان يعرف المرء نفسه قديساً بل بالعكس . ليست القداسة في صنـــع العجائب والاعمال الباهرة ، فلا نفرضن على الله شكلا معيناً للقداسة . القداسة في قلبنا ، في مدى استسلامنا لله ، في مدى غلبتنا على ذواتنا ومـدى تقدمنا في هذا الطريق[2] .. وقد تكون الطريق طويـلة . ربما عشرين سنة .. فالامر لله . اننا لم نأت الدير لاجل ذاتنا .. الرب يقول لنا . « يا ابني اعطني قلبك » لا مؤهلاتك بل قلبك أي كل كيانك ..

جـ ـ اشكال الطاعة الرهبانية

ان الطاعة متعددة الاشكال كثيراً في الحياة المشتركة ، فنجد بين الاخوة الطباخ والبستاني والبواب وحافظ المكتبة وحافظ الكنيسة والرسام .. الخ ... وتتعدد انواع الطاعة بمقـــدار حسن تنظيم حياة الدير وبمقدار هذا التعدد تكثر الثمار الروحية فالامر المهم هو أن يقوم

---

١ ـ كل الاباء يحاربون الحزن اكثر من كل الرذائل . لان الحزن يقتل النفس .

٢ ـ كان راهب روماني صديق للاب اندره (صاحب هذه الدروس) قد كره تعليم الفلسفة وترهب فأجبره الاب الرئيس على تعليم الفلسفة . كان يريد ان يختلي ويقرأ القديس غريغوريوس النيصصي فكان الاب الرئيس يحوله لشيء آخر .. فقضى الاسبوع الاول بصعوبة وجزع كبيرين يتساءل عن دعوته .. ثم استمر .. وبعد فترة سبعة او ثمانية اشهر تطهر من ذاته وقال لصديقه : لقد اصبحت مستعداً لقبول كل شيء، كأن من الله وشعرت الان بالفرح ..

كل اخ بعمله بذلك الوعي وذلك الموقف الداخلي وذلك الفرح، فتتحول طاعته الى اداة تطهير وتقديس : فالقديس استفانوس الذي عـاش في القرن الثامن في دير القديسة كاترينا في جبل سينا كان بواباً للدير . فبقي جسده بعد وفاته تاماً صحيحاً يصنع العجائب . وفي دير كييف الروسي الذي يعود للقرن العاشر لا تزال توجد بقايا الف راهب قـديس تصنع العجائب ، وكانوا اناساً في مختلف الوظائف والانواع : عقليين وغير عقليين .

الفصل الرابع

الحياة المشتركة كواسطة لمعرفة الذات

لا نزال نبحث في « الحياة المشتركة » في الدير وقد رأينا حتى الان : لماذا نعيش حياة مشتركة ؟ وما هو قوام هذه الشركة ونظامها ؟ وكيف تسير وتنمو بالطاعة ؟

الطاعة فضيلة « سرية » (mystique) تربطنا بارادة الله و « تنزل الله فينا » على حد قول القديس يوحنا السلمي . انها أقصر طريق للكمال الصوفي ، وطريق متيسرة للجميع دون استثناء . ولكن حياة الراهب هي أولاً حياة شخصية داخلية لان الكمال يجب ان يكون أصيلاً : الراهب هو « انسان القلب الخفي » كما جاء في رسالة بطرس الأولى ٣ : ٤ (وهذا تحديد عميق بل ربما كان أعمق تحديد للراهب) . أما الحياة المشتركة فتقدم لنا أفضل اطار لتحقيق هذا الكمال ، لانه من الواضح ان الكمال الداخلي يبدأ بوعي الذات الذي هو شرط كل تقدم : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات » ان كلا من كرازة السيد المسيح وكرازة يوحنا المعمدان على السواء تبدأ بهذا النداء : توبوا .. اعرفوا ذواتكم .. والقديس اسحق السرياني يقول : ان من يشعر بخطاياه اعظم ممن يقيم الموتى . اما الحياة المشتركة فهي بالضبط واسطة لهذه الغاية .

لان الشركة الرهبانية ليست مجتمعاً بالمعنى العام بل عائلة روحية هدفها مساعدة كل راهب فيها على تحقيق دعوته التي هي الاتحاد بالله و « تأليه الذات » (مكسيموس المعترف واثناسيوس الكبير) . فالشركة انما تساعد الراهب في دعوته هذه وحسب ، وذلك مادياً باعفائه من الاهتمامات المادية ، وروحياً ، كونها وسطاً خاصاً لممارسة الفضائل الروحية ، وليتورجياً اذ تقدم للراهب حياة الكنيسة الكاملة والأسرار . وفي المضمار الذي نحن بصدده الشركة الرهبانية واسطة لمعرفة الذات .

لنتوقف هنا قليلاً عند عمق الطبيعة البشرية المخلوقة والمقامة في المسيح . لا شك ان سر الانسان الاخير هو انه خلق على صورة الله ومثاله . وهذا أعمق ما يمكن ان يقال فيه . ان الانسان « إله مخلوق يحقق ذاته بالارتباط بمصدره ، بنعمة الاله الغير المخلوق » (مكسيموس المعترف) . ولذا فحياة كل انسان فريدة من الناحية الروحية : انا لا أستطيع ان أصنع خلاصك ان لم تعمل أنت على خلاصك . صلاة الكنيسة كلها لا تفيدك شيئاً ان رفضت النعمة . (سأل راهب يوماً اباه الروحي قائلاً : هل صلاتي تنفع من يقاوم النعمة . فأجابه : يا بني ان صلاتك هذه كمن يبني الجدار في النهار فيأتي الآخر ويهدمه في الليل) . فالخلاص شخصي اطلاقاً . عمل الخلاص عمل وحيد بيني وبين الله . كأن ليس في الكون كله غيري وغير الله : انها العزلة المجردة الرهيبة العزلة الاخيرة . فالخلاص سر العزلة . سر « الداخلية » (intériorité) .

ولكن الحياة المشتركة لا تتنافى وعزلة الراهب الداخلية : لان الشركة الرهبانية ليست مجتمعاً مدنياً يترتب على المرء ان «يظهر» فيه ، بل هي وسط يعمق الراهب فيه ذاته وينمو نحو داخله وقلبه بمحياً من سائر اخطار الفرادة والتفرد : فليست الشركة ضد العزلة وانما ضد التفرد (singularisation) . ضمن حياة الشركة فقط ضمن هذا الحضور أمام الآخرين تزدهر العزلة الحقيقية : ان النبي ايليا الغيور كان وحيداً

لدرجة انه اختطف عن الناس في مركبة نارية ولكنه كان أيضاً كما نعرف حاضراً للعالم ولمشاكل زمانه على الدوام . ويوحنا المعمدان سكن البرية منذ الطفولة لكي يكون حاضراً للعالم أكثر ولكي يُقتل بالنهاية من العالم. والعذراء مريم والدة الاله كانت « تحفظ الكلمة في قلبها » وفي الوقت نفسه تعيش حياة عادية في قريتها وبين جيرانها .

للراهب اذن جناحان للارتقاء الى الله : العزلة والحياة المشتركة . وهما يسندانه ويرفعانه في ايقاع متزن . فالحياة المشتركة يجب ان لا تضغط الحياة الداخلية الشخصية . وهذه بدورها يجب ان لا تنغلق عن الحياة المشتركة . ان أزمات الرهبنات واختلالها ناتج فقط عن فقدان الايقاع والتناغم بين هذين الجناحين : فيكون الراهب عندئذ اما في عزلة عقيمة غير مخصبة لله وللكنيسة ، او في شركة لا تساعده في انماء عزلته الداخلية بل تسحقه تحت اعبائها المادية . وهذه مأساة كبيرة اذ يصبح الرهبان فيها علمانيين في زي رهبان . « من هو الراهب الحقيقي؟ ليس هو من « وحّد » لباسه ونظام حياته الخارجية وبيته بل من وحّد روحه وقلبه ونسمة حياته الداخلية » (القديس مكسيموس المعترف) .

كيف تساعدنا الشركة على معرفة ذواتنا وعلى دخول تلك العزلة التي بدونها لا يكون الراهب راهباً ؟ **وما هي العزلة اولا** ؟ انها رغبة عدد كبير من الناس والرهبان ، يحنون اليها حنيناً وهي تتضمن قبل كل شيء فكرة الانفصال عن الآخرين من أجل العودة الى الذات ، من اجل استعادة الذات والحياة مع الذات . لماذا هذا الحنين ؟ لان كثيراً ما يكتشف المرء ان الحياة مع الآخرين تصبح حياة مغلوطة (fausse) حياة يضيع الشخص فيها اذ لا يكون بعد شخصاً بل ممثلا .. الحياة مع الناس حياة تمثيلية اجمالاً ، والمرء فيها يخضع لكل التأثيرات

الاجتماعية والحضارية . لا يعود يفكر لان المجتمع يفكر عنه : الصحف والمجلات والراديو والتلفزيون .. فينقاد في الحقيقة انقياداً كأنه في قطيع .. ومن هذا الوضع تتولد عند المرء الرغبة في العزلة. كان في بلاد الهند قبل المسيحية مباشرة حوالي مليوني ناسك . ففي طبيعة الانسان رغبة عميقة لتحقيق العزلة كما هي وكما يجب ان تكون .

ولكن هناك في الحقيقة عزلتين : عزلة مغلوطة خطرة وعزلة صحيحة . فالعزلة المغلوطة سلبية مبنية جوهرياً على رفض تام لكل آخر . تريد اكتشاف الذات بالذات دون المرور بالآخر وبالله. ومن هذه الناحية يمكن تسميتها بعزلة العقليين الذين يفكرون كثيراً ولا يحسون ولا يحبون ، عزلة « نرجس » اجمل بني البشر الذي مات غرقاً في النهر لكثرة اعجابه بنفسه ومحاولته الالتصاق بصورته في المياه . انها محاولة امتلاك الذات دون طاعة الله . (ان الكثيرين من الرهبان يقعون في مثل هذه العزلة فيطيعون الله كغير متجسد وحسب فكرتهم هم عنه فيصيرون الى العناد متمسكين بآرائهم ومتذرعين بحرف الانجيل الخ..). ولكننا لا نستطيع ان نبقى طويلاً في العزلة دون ان تحطمنا او ان نتجاوزها. فآباء البرية صمدوا في عزلتهم في البرية لانهم كانوا قد خرجوا منها (مع بقائهم في البرية) واتحدوا بالله كما اتحدوا بالآخرين : « ان دخل بي أحد فيخلص **ويدخل ويخرج ويجد مرعى** .. » (يو ١٠: ٩). في الانسان حاجة الى دخول عزلة الآخر ، الى الحضور للآخر والاشتراك معه . انها العزلة الصحيحة ، عزلة الاتحاد بالآخرين .

اما الحياة المشتركة فتساعدنا على اكتشاف ذواتنا للاتحاد بالآخرين:

آ – نحن جميعاً كائنات لا نملك أنفسنا كما نحن ، فهناك مسافة بين ما نحن وما يجب ان نكون . وكذلك بين ما نتصور اننا نحن وما نحن

بالفعل . فاذا بقينا وحدنا دون واقع آخر تجاهنا نتحول في نظر انفسنا الى كائن وهمي . نظن « اننا » ولكننا « لسنا » نظن اننا إما في الفضيلة او في الخطيئة .. ونعيش في بلاد الخيال فان لم يكن أمامنا واقع آخر غيرنا نكفّ عن ان « نكون » لكي « نبدو » (nous cessons d'être pour paraître) .

اما في الحياة المشتركة فنصطدم يومياً بالحقيقة وبالواقع، بواقعنا البشري الحقيقي[1] . فان كنت في الشركة لا أحب ان اشتغل بيدي مثلاً فهذا يدل على كبريائي او كسلي . وان كنت لا احتمل معارضة الآخرين لي فهذا يعني اني لم اتخلّ بعد عن ذاتي وهكذا ان أصحّ معرفة لذواتنا هي التي تأتينا عن طريق الآخرين . بل باحتكاكي بالآخرين اكتشف في كياني زوايا لا قرار لها .. اما التغلب عليها فيتم بالطاعة ، بالدخول في الحياة المشتركة . قال القديس باسيليوس ان عظمة الانسان هي في انه « كائن أُمر ان يكون ، أُمر ان يصير الله » فالعزلة المغلوطة السلبية تهددني بأن أتلذذ بحالة أنا فيها . بينما العزلة الصحيحة الايجابية تجعلني أتقدم « وأصير » ما انا ، أصير انساناً . الحياة المشتركة تبعث فيّ الندامة والتفتيش عن الكمال والتواضع .

---

١ ـ كانت في ايطاليا منذ اربعماية سنة راهبة ترى رؤى فكتب رؤساؤها الى رومية فأرسلت رومية الاسقف فيليب نيري للتثبت من الامر . فلما وصل هذا الى الدير استدعى الراهبة المذكورة فوراً . فدخلت اليه فخورة وواثقة بنفسها فبادرها بمد رجليه اليها قائلاً : اخلعي عني جزمتي ففوجئت لهذا الامر واغتاظت وثارت لكرامتها فعرف الاسقف للحال حقيقة امرها .

والقديس سمعان العمودي اول ما صعد على العمود شكاه رفقاؤه الرهبان الى الأب الرئيس لهذا التصرف الشاذ فأرسل اليه يأمره بالنزول واوصى الرهبان قائلا : ان لم يذعن للأمر فامسكوه برجليه وانزلوه قسراً . ولكن ان بادر لينزل فوراً فاتركوه حيث هو فان هذا الامر من الله . فلما ابلغوه امر الرئيس بادر حالاً لينزل فتركوه حيث هو .

ب ـ ثم حياة الشركة تساعدنا على الخروج من ازدواجنا ونسيان ذواتنا (وهذه نقطة من أهم النقاط في حياة الراهب) :

اذا كنت وحيداً مع نفسي اقفز رأساً الى نشاط الفكر وهو نشاط شرود ، نشاط يعي ذاته فيعيق الصيرورة الى واقع وعمل . لان فكرنا لا يكتفي بالعمل بل يشاهد نفسه يعمل ويشاهدته نفسه لا يستطيع ان يعمل شيئاً . عندما أصلي مثلاً أفكر في نفسي : انا أصلي .. او كيف أصلي .. وعند ذاك فأنا لا أصلي بالحقيقة أبداً . من يفكر او يقول انه يحب الله ولا يحب قريبه كواقع وموجود فهو كمن يركض في الحلم (القديس يوحنا السلمي) . فأنا اثنان لست « واحداً » (monos).

ليس هذا خطراً كبيراً في حد ذاته . انه ناتج عن الطبيعة البشرية الساقطة التي فقدت مركزها (décentrée) فأصبحت مثل طاحون تدور في الفراغ . ولكن لا بد من تجاوز هذا النقص لئلا يقتلنا ويسمم كل حياتنا الروحانية . اذ انه يثبتنا في تأمل ذاتٍ مغلوط ويمنعنا ان نعمل : نعتقد اننا نفكر ، نعتقد اننا نصلي ، نعتقد اننا نؤمن وهكذا ..

كيف نتجاوز ذلك : بالحياة المشتركة . ففي حياة الشركة ارادة مشتركة واحدة عبر الجميع . فباتباعنا هذه الارادة ننسى ذواتنا ونتحرر . الدواء اذن هو الطاعة : ان نعمل ونعمل اي شيء ولكن من اجل الله وفي الطاعة . فتتوقف الطاحون[1] .

ج ـ أخيراً الشركة تساعدنا على ان نكتشف فينا امكانيات مجهولة :

---

١ ـ دون ان نستفحص متى تقف الطاحون لئلا نكون مثل ذلك الانسان الذي كان يريد ان يعرف متى ينام بالضبط فأمسك الساعة وهو في فراشه وصار يتطلع اليها منتظراً لحظة نومه ! ..

كل انسان « ينبوع مختوم » على حد تعبير سفر نشيد الانشاد . كل نفس ولا شك فيها امكانيات معرفة ومحبة وعمل مجهولة وخفية لانه لم يأت بعد احد ليفتح الينبوع المختوم (لا ننسى ان الرب الكلمة فتح ختوم القبر ..) . ولكن ان لم نصطدم بمقاومة واقع قادر ان يوقظنا لامكانياتنا ويدفعنا في الطريق نبقى في نوع من الحياء والجبن والخمول اذ « كيف ننجح دون ان نحاول » ؟ (بودلير) . فالشركة الرهبانية من هذا القبيل من شأنها ان تكشف لنا ذواتنا (فنكتشف ذواتنا مثلاً كاهناً او اباً روحياً او خدوماً محباً الخ .) لان الحياة الرهبانية تذكي فينا محبة القريب ومحبة الله ، فيكتشف الراهب في الشركة وجهه الذي اراده له الله منذ الازل والذي كان مجهولاً منه .

الحياة المشتركة تقوم على روح الطاعة والانفتاح فيجب ان لانتغلق فيها ولا نحب تلك العزلة المغلوطة التي يتستر فيها تلذذ خفي في اكتفاء ذاتي سقيم وتفكير حول الذات لا نهاية له وعقيم . ان الدهش الروحي (extase) يبدأ بالضبط بذلك « الخروج » التدريجي من الذات نحو القريب . وينبوع القلب هذا انما يزداد غزارة بقدر ما ينفتح القلب ويخرج ويعطي ذاته والا فينضب سريعاً ويجف ..

الفصل الخامس

علاقة الراهب مع أسرته الرهبانية ومع العالم

نتابع بحثنا في « الحياة المشتركة » في الدير وقد رأينا حتى الآن أسسها وغايتها وقوامها وسيرها ومنفعتها .

وموضوعنا هذا يتعلق بسلوك الراهب وتصرفه اليومي في عائلته الرهبانية — الى جانب بعض نواحي « الاسلوب » المسلكي الرهباني . انها قضايا عملية غير روحية صرفة : ولكن الروح يجب ان يحيي كل حركات الراهب ، فعلى الراهب على كل حال ان لا يجحد ذاته[1] بل ينبغي ان يتصفى تدريجياً كل كيانه ويتجلى داخل الحياة الرهبانية . نحن نتابع في الدير حياتنا الطبيعية العادية بكل افراحها وبساطتها ولكن ما يتغير فينا وراء المظهر الخارجي هو الروح والتعليل الداخلي لكل حركة وكلمة . فكل شيء ينبغي ان يتم في روح جديدة ، في

---

١ ـ الا انه يجب التحفظ قبل كل شيء من « تقليد الملائكة » (péché de l'angélisme) : ان ضعفات الطبيعة البشرية ونزواتها تستمر في الراهب وهو يبقى معرضاً للوقوع في جميع الخطايا. فالراهب لا يتخلص فجأة او دفعة واحدة من محدودية كل انسان بل يمتاز بالعكس فترة اكثر حدة وصعوبة: انها حالة أولى يزداد فيها وعياً لوضع طبيعته وضعفها . ولكنها مرحلة فقط .

وعي آخر جديد لما يجري فينا ولما يجري لنا في علاقتنا مع الآخرين. (يقضي احد شعارات رهبان جبل آثوس ان تتحول حياة الراهب الى « ليتورجيا » . فعدا معنى التسبيح الداخلي الدائم يعني هذا الشعار ان يعيش الراهب حياة تجاه نفسه وتجاه الآخرين في شعور الاحترام والترفة والورع ذاته الذي لحركات الكاهن في الليتورجيا) . . وهكذا فان الراهب داخل الشركة الرهبانية يأتي الى اكتشاف « أدب » خاص هو أدب الدير او اذا شئتم أدب الروح[1] .

ان هذا الادب او التهذيب او الاسلوب الرهباني يجب ان يظهر في علاقة الراهب مع الاخوة ومع ابيه الروحي ومع العالم الخارجي[2] .

آ ـ العلاقة مع الاخوة :

الاخوة تحديداً يشتركون في طبيعة واحدة ، في اخوّة ، فعلى الراهب ان يتعمق في فهم هذه الاخوّة . هي اخوة لا تحمل سوى واجبات فقط ولكن هذه الواجبات تترتب بالضبط على جميع الرهبان على السواء . ولهذا فهم يؤلفون عائلة . وانتماء الراهب حقيقة لهذه العائلة في قيامه بواجبه تجاه اخوته : في اتمامه عمله واعياً لواجب خدمة الاخوة . بهذا المعنى قال الرب : « لم آت لأُخدم بل لأَخدم » . فعلينا فهم هذه الآية حقاً وتطبيقها فعلا لأنها الطريقة الفضلى لاكتساب المحبة الاخوية . أن أرى المسيح في أخي لان أخي نائب المسيح كيانياً وفيه انما تتركز محبتي للمسيح : هذا تعليم بليغ للآباء كانوا يعيشونه .

ولكن ينبغي ايضاً ان نكتشف الادب الرهباني المتمم بروح الله :

١ ـ لفظة أدب (politesse) مشتقة من كلمة « مدينة » (polis) باليونانية، فهناك « مدينة » الدير ايضا ،

٢ ـ ان الراهب يشعر تلقائيا انه يعيش في عائلة مع أب واخوة هم زملاء الطريق.

لا محبة بالأدب بل بالله . فيصبح الادب وسيلة لتطهيرنا لأن التهذيب انما هو الاهتمام بما يفرح الآخر لا بما يفرحني أنا. ان الطبيعة البشرية مجموعة غرائز وميول وحركات آلية تقريباً (كالتنفس مثلا الخ . .) وهذه الطبيعة الكثيفة تجنح الى اكتساح وعينا . ولكن الانسان ليس طبيعة فقط بل شخصاً ، وعليه كشخص واعٍ ان يرتقي فوق طبيعته ويتجاوزها في علاقاته مع الآخرين . والعكس غير مسموح خاصة للراهب ، لأن الانسان ينزل حين ذاك تحت مستواه ليصير فريسة حركاته الطبيعية فيتعكر اسلوب الحياة المشتركة وتصبح هذه قبيحة ، وبدلا من ان نتقدم في النور نبقى في شبه ظلام .

لقد علمنا الآباء كيف نراقب الطبيعة ونقيدها وكيف نجعل من حياة الدير كلها مدرسة حياة روحية مجسمة. فالقديس اسحق السرياني الذي قال انه الافضل لك ان تموت من ان تقطع الصيام ، والذي فقد بصره مدة ثلاث سنوات لشدة نسكه ،هو نفسه قال كم يجب ان يكون قلب الراهب ملتهباً حباً للاخوة وللناس أجمع بل للحجارة والأفاعي والشيطان بالذات . . ونراه يبدأ تعليمه النسكي للاخوة ببيان اصول السلوك تجاه بعضهم بعضاً عالمين أنهم انما يتحركون دائماً في حضرة الله. ولذا عليهم ان يأكلوا ببطء ووداعة ، وان يعطسوا او يسعلوا وراء يدهم . وكذلك يعلمنا ان نبتسم ولا نقهقه لان القهقهة انما هي دليل على ضعف وعينا وعلى ان الطبيعة لا تزال قوية فينا . وكذلك علينا ان ننتظر الآخرين على مائدة الطعام بهدوء واحترام الخ . . لان الراهب عندما يعيش عليه ان يموت . . اما القديس يوحنا السلمي فيقول : « الراهب هو من يضبط دائماً طبيعته ويلجمها ساهراً دون انقطاع على حركات حواسه الخمس » . . فبهذا ، بهذه الطريقة البسيطة يبدأ تغيير طبيعتنا وتجليها ونصير تدريجياً كائنات جديدة .

وينبغي ايضاً على الاخوة **اصلاح بعضهم بعضاً**. ان القديس باسيليوس الكبير يشجع بصورة خاصة الإصلاح المتبادل . فاذا صدر خطأ من قبل أحد الاخوة فعلينا ان لا نتردد في اعانته (لم يغلق الباب وراءه مثلاً او نسي الكهرباء شاعلاً ، فلا يحق للراهب أن يدع هذه المناسبات دون اعانة أخيه)، ولكن بمحبة وتواضع اذ الأفضل ان لا نعينه البتة من ان نعينه بدون محبة وتواضع . والأفضل ان أعين اخي بيني وبينه لا علناً. اما اذا رفض ملاحظتي او نصحي وقاوم بدافع من الشيطان فعلي آنذاك ان أطلب المساعة بكل اخلاص واتضاع .. وقد يفيده هذا بعدئذ كثيراً لانه مرضي لله . اذاً مساعدة الأخ واجب مع ضرورة مراقبة الذات لكي لا تتخلل تدخلي النرفزة . هذا ومن السهل نسبياً اكتساب الموقف اللازم : فينبغي عدم الإحجام وعدم التردد بل الإقدام ببساطة ومحبة : انا اكثر خطأ من أخي وغداً يأتي دوري في ان يصلحني هو .. الجرأة ضرورية في الحياة الرهبانية (انها تمت الى التواضع أيضاً) . اني افعل ذلك محبة بأخي وبالشركة وبالله . فيجب ان لا نخجل ونحجم خوفاً من الخطأ والاساءة : اننا سنخطىء ألوف المرات . فالمهم ان نسير لا ان لا نخطىء .

ويقتضي من ناحية أخرى **ان لا نقلق بسبب الآخرين** . فقد يُسمح مثلاً لأحد أخوة بنسك اضافي بأذن من الاب الرئيس (كصوم او سهر) فعلى الآخرين ان لا يتضايقوا ويغاروا ويقلقوا . فالقضية قضيته لا قضيتي والامور نسبية دائماً تختلف باختلاف البنية والظروف الخاصة . فمن يأكل ثلاث مرات ولا يشبع أفضل ممن يأكل مرة واحدة ويشبع. (وكلنا نعرف قصة الاب ارسانيوس القديس الذي تعثّر احد الرهبان وقلق لمشاهدته يسند رأسه الى وسادة اثناء مرضه . ولما علم انه كان قبلاً معلم الاباطرة يعيش حياة ملوكية يقف بين يديه الف عبد بينما كان

هو رجلاً جبلياً راعياً لا مأوى له يعيش حياة أقسى من حياة الدير أدرك خطأه واستغفر ..) . فينبغي اذن عدم النظر الى الآخرين من هذه الناحية . أما في حال وقوع أحد الاخوة في خطيئة كبيرة فيُخبر عنها الاب الرئيس فقط .

ثم يقتضي تربية **روح المرح في الشركة** : مثلا قول كلمة حلوة تفرح الآخر او تنفعه بشرط ان تكون صادرة عن محبة لا بدافع السخرية لان السخرية مرة دائماً . ان الآباء كانوا يعرفون كيف يفسحون المجال لروح المرح عند اللزوم . يُروى ان احد الرهبان جاء يوماً الى احد الشيوخ وقال له : ان أخي اساء اليّ وأنا مزمع ان انتقم منه . فحاول الشيخ اقناعه بالعدول عن ذلك فأصر قائلا لا استطيع . عندئذ عرض عليه الشيخ ان يصليا معاً صلاة « أبانا الذي في السموات » قبل ان يقدم على اتمام قصده . فوقفا ليصليا وعند وصولهما الى قول «لتكن مشيئتك ..» قال الشيخ : « لتكن مشيئتي كما في السماء كذلك على الارض ». فأوقفه الراهب مستغرباً ، فقال له الشيخ هذا هو موقفك بالضبط ، ففهم وارتدع..وكذلك يروى ان القديس سابا عندما أقامه بطريرك اورشليم رئيساً للنساك المتوحدين في فلسطين كان يمزح مع القديس ثيودوسيوس رئيس رهبان الأديار ويقول له :انت رئيس على الاطفال اما انا فرئيس البالغين!.. فينبغي ادخال روح مرح الآباء هذا بين الاخوة وتغيير الجو من وقت لآخر في الشركة (من المجدّ في هذا المضمار تنظيم أوقات فرص خاصة او رحلات وكذلك تشجيع الترتيل والرسم والفن اجمالاً والثقافة ودعوة محاضرين من الخارج من وقت لآخر .. فمن اقوال آباء البرية ان التغيير يولد الغيرة والنخوة) .

هذا وفي علاقاتنا مع بعضنا البعض **نشعر احياناً ان الشركة تفضل** على كل شيء اخر : في أوقات الصمت مثلا ، او عندما يقرع الجرس

للصلاة ، فأشعر ان هذا الوقت ليس لي بل هـو وقت الجرس ، وقت الصلاة ، فأتوقف فوراً عن عملي او حديثي وأطيع صوت الشركة . وفي بعض الاحيان تتوقف حياة الدير الخارجية يوماً كاملا من اجل الصلاة لنية معينة : لا كلام ولا طعام ولا عمل مدة ٢٤ ساعة بل صلاة وحسب. حينئذ يشعر الراهب في قلايته شعوراً قوياً بسر الشركة . كل شيء في الدير محاط بشعور روحي بحت : انسان جديد يـبزغ فينا ، هكذا نصير رهباناً .

ب – العلاقة مع الاب الروحي

١ – **الاب الروحي** غير الأب الرئيس . انه الراهب المكلف ان يقود المبتدىء الى الحياة الرهبانية . ويسمونه احياناً معلم المبتدئين ، ولكن الأفضل تسميته الأب الروحي . هو يعتني بعدد من المبتدئين لا يتجاوز العشرة ، يلقنهم الحياة الرهبانية في الطفل ، اذا جاز القول ، يشهد تفتح الزهرة التي هي نفس المبتدىء . انها مسؤولية كبيرة وايضاً فرح كبير . فالأب الروحي يستطيع القول مع المرتل : « أنت ابني أنا اليوم ولدتك » .

لا يشترط ان يكون الاب الروحي كاهناً . بـل ينبغي ان يكون راهباً هادئاً مسالماً قد تغلّب على طبيعته ، حـافظاً لأفضل التقاليد الرهبانية ، له خبرة روحية ويعرف جيداً الطرق التقليـدية في الصلاة والتأمل . ان الامر الاول الذي يعلّمه للمبتدىء هو التواضع والطاعة وتسليم الذات . فيتعلم المبتدىء الابتعاد الكامل عن العالم وعن الشهوات ، وكذلك اماتة الاهواء وعدم الانفعال مع تجديد الذهن ليرى العالم بعيون راهب ، والاستمرار في الصلاة استمراراً ثابتاً ملحاً .

على الاب الروحي ان يحيط ابنه بحضرة محبة قبل كل شيء . وان يكون بمثابة « وعي » الابن خارج الابن (كفي مرآة) . فلا يثقل عليه بعبء خبرته بل يغذيه بلقمات صغيرة جداً . . ان القديس يوحنا السلمي يقول بأن كثيراً ما يعود عدم تقدمنا في الطريق لعدم تمييزنا بين المراحل المختلفة . نحن لا نعرف الايجدية بعد ونريد ان نفهم أصعب الكتب ، فهذا مستحيل . يجب بالحري السير مرحلة فمرحلة والا نسقط في الكبرياء . ومن هنا ضرورة بقاء الاب الروحي بقربنا . وعلى الأب الروحي ايضاً ايلاء الوعي ويقظة الذهن عند ابنه فيتعلم ان يراقب ذاته في أقل حركة وكلمة وفكر ويكتسب شيئاً من النضج والتمييز الروحي لمعرفة مدى صلاح كل فكرة تمر به .

٢ – اما الابن فيقتضي ان يكون في وضع انفتاح واستعداد وتقبل تجاه أبيه الروحي وإلا يهدده خطر الانغلاق والرفض الطوعي الذي يؤدي الى العقم الروحي ويولّد الحزن في النفس (لان الابن عندئذ يغلق ذاته عن ابيه الروحي قائلا اني لا أتقدم ، اني أتمنى أبـاً روحياً آخر وما شابه ذلك) ، والحزن هو موت للنفس ، وبه يحاول العالم استعادتنا : فعن طريق الرغبة في التغيير نصل سريعاً الى ترك الدير والحياة الرهبانية . فيقتضي ان يثق الابن ثقة كلية بأبيه الروحي وان يفرح لتسليمه ذاته لمن اخذ على عاتقه مسؤولية حمله الى الله .

ولكن هناك خطراً معاكساً يجب الانتباه اليه وهو المبالغة في مدح وتمجيد الأب الروحي لانه يبقى انساناً رغم كل شيء !.. فالقديس يوحنا السلمي يروي لنا ان راهباً وجد مرة في دير غير ديره فـابتدأ يمتدح أباه الروحي باسراف وتفريط فقالوا له : لو حكمنا على أبيك من خلال أبنائه فبئس الاب الروحي بل بئس الراهب .

ونعني به العالم الخارجي بالنسبة للراهب الذي ترك كل شيء فأصبح الجميع وحتى اهله غرباء عنه وعن حياته الرهبانية . لقد ابلغ مرة احد الرهبان ان يرث اباه فقال : لقد متُ قبل ابي فكيف ارثه ؟ وراهب آخر لم يُرد ان يستقبل امه الا مائتاً .. كانت هذه حالات نادرة ،وربما ضرورية في ذلك الوقت . اما نحن فينبغي ان نسلك باعتدال وتمييز. ان المبدأ العام المطلق هو ولا شك الهرب من العالم . ان محبة المسيح تأتي قبل محبة الاهل والاصدقاء فلا نستعجلن في مغادرة الدير لأي سبب . لا نعملنّ ارادتنا . اذا طلبنا لمهمة ما فلنترك الامر لإذن الاب الرئيس. اذا وقع حزن عند صديق لي وكتب لي فـأكتفي بالكتابة له . ليست قضيتي احزان الآخرين . « دعوا الموتى يدفنون موتاهم ». فنحن اموات ليس هذا بظلم بل هي أمانة للمسيح ومحبة للجميع : نحن أمتنا ذواتنا ونحبهم الآن في المسيح . نحب المسيح اكثر منهم ومحبتنا هـذه للمسيح تفيدهم أكثر .

ان الخروج من الدير يكون بالتالي لأسباب « مباركة » باذن من الاب الرئيس ، لا لأسباب تافهـة ولا لمجرد حجج .. يمكن السفر من أجل الدراسة مثلا او للتبشير .. والافضل دائماً ان يرافق الراهب في السفر راهب آخر اذا أمكـن . وعلى الرهبان أثناء السفر ان ينتبهوا لسلوكهم انتباهاً خاصاً لانهم انما يمثلون الحياة الرهبانية (حياة المسيح) لدى الآخرين : عدم شرب المسكرات ، عدم التدخين (ليست هـذه خطايا في حد ذاتها ولكنها نقص. فالتدخين مثلا ينم عن نرفزة لا تتفق وهدوء الراهب) ، ارتياد المطاعم المحتشمة (اذا لم يكن من أديرة او بيوت تقية يأوى اليها الراهب)، وبصورة عامة حفظ الحواس وخاصة

العيون التي تفلت منا دون ارادتنا. اننا ندرك مزية حياة الدير الكبيرة من هذه الناحية . ففي الخارج العالم « يرتمي » علينا بـألف شكل : واجهات المخازن ، الصور ، الاعلانات المنورة ، الفتيات الخ .. فينبغي ان نكون كلنا وعياً حتى لا نتشتت. ينبغي عدم النظر يميناً ويساراً بل الرجوع الى الذات والتأمل داخلياً في موضوع معين .

أما زيارات الناس لنا في الدير فتقبل في صالة الاستقبال ، وليس في قلاية الراهب ، وباذن من الاب الرئيس .

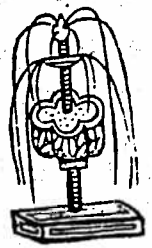

الفصل السادس

في بعض الاخطار التي تعترض الحياة الرهبانية المشتركة

ان حياة الشركة الرهبانية لا تخلو من اخطار تهدد وجودها وحسن سيرها .

ما هو اولا سبب وجود الاخطار : الخطر ناتج عن وجودنا بالضبط . انه من مقومات وجودنا على الارض اذا جاز القول . **فكل وجود يداهمه خطر** سواء أكان خارجياً او داخلياً . والخطر دائم مستمر .. ذلك لاننا لسنا كاملين . اننا مخلوقون ، آتون من العدم ووجودنا غير كامل بحد ذاته . يمكننا ان نصبح يوماً كاملين في السماء بنعمة الله ولكن لا من ذواتنا بل من كمال الله : « كونوا كاملين كما ان أباكم الذي في السماوات هو كامل » (متى ٥ : ٤٨) .

نحن في الواقع اذن تحدّنا تحديدات ونقائص كثيرة خارجية وداخلية ، وهذا ليس فقط ينطبق على الحياة الروحية بل **الحياة الروحية من شأنها ان تثير الاخطار اكثر من غيرها** : لانها تبتغي تجاوز التحديدات والنقائص بخلاف الحياة التافهة التي لا يعي المرء فيها انه يعيش في الخطيئة . متى سعيت للتغلب على نواقصي حينئذ أراها تشغل

فكري وتصبح الخطيئة عندي مخيفة رهيبة[1] . وبالاضافة الى ذلك ان العالم يقاوم الحياة الرهبانية : اما مباشرة (بانتقادها والوشي بها) او بصورة غير مباشرة (بالتجارب والمغريات ...) . واخيراً هناك الخطر الأكبر أعني به الشيطان الذي يريد ان يبقى المرء مصالحاً مع الخطيئة . سلاحه القوي ضد الله هو الخطيئة ، يريد بها ان يثبت ان الله اخطأ في خلقه الانسان . انه صراع ميتافيزيكي بين ابليس والله نراه في سفر ايوب واضحاً بليغاً .

هناك بالتالي ثلاثة مصادر تأتي منها الاخطار : هي الجسد والعالم والشيطان ، كما يعلّم الآباء .

اما الجسد فيقصد به الطبيعة البشرية بميولها وغرائزها التي تقاوم الله وتجذبنا بثقلها الى أسفل ضد الله فهذه لا بد من تطهيرها و «روحنتها» و « تأليهها » .

واما العالم فيقصد به نمط الحياة التافهة الذي يضاد الله ويبغضه . انه روح العالم ، بجمل الحياة المقضية في التفاهة ذلك الميل العام الناتج عن الخطيئة . ما نبغضه في العالم هو ما يفصلنا عن الله. يجب هنا ان نبغض الخطيئة ونحب الخاطىء .

واما ابليس فهو تلك الحقيقة الرهيبة التي نلمسها احياناً والتي اصبحت طبيعتها بالذات بغضاً انها لا تستطيع إلا البغض .

ولكن الاخطار والتجارب تتخذ أيضاً طابعاً خاصاً في حياة

---

١ ـ بل يتحول الخير الى شر احياناً كأن يتذكر المرء ماضيه الخاطىء فيخاف ويأس (ان الخير هو تحوله عن الخطيئة واما الخطيئة فشر. من يقول بأن الخطيئة قد تكون خيراً لا يرى قباحة الخطيئة في حد ذاتها ولا يفقه الحياة الروحية) .

الشركة . انها تهاجم الراهب في الشركة بالذات ، في حياته النوعية فتكون حينذاك موجهة إما الى حياة الشركة كشركة او الى حياة الراهب كشخص .

١ – الاخطار التي تهدد الشركة كشركة

هي الاخطار التي من شأنها ان تؤدي الى انحطاط الدير وزواله. ان أديرة كثيرة عاشت أيام نعمة ومجد روحي ثم اجتاحها الانحطاط فآلت الى الاضمحلال . هذا أمر حقيقي جداً مع الأسف : في شرقنا مثلاً كم من أديرة مهجورة خربة تشهد بذلك !

ان هذه الاخطار تأتي اجمالاً عن فقدان التوازن بين الحياة المشتركة والحياة الشخصية في الدير :

آ – **الرفاهية المادية** : اذا فاقت الاهتمامات المادية الاهتمامات الروحية (بسبب استثمار الاملاك مثلاً، او تأمين راحة الجسم والاطعمة الخ ...) او الاهتمامات الليتورجية (متى صارت الخدم الليتورجية بمثابة فرض وعبء ثقيل بمثابة حبس للرهبان ، فهذه علامة لا تخطىء بأن الحياة المادية قد تسربت الى الدير) ، يصبح الدير حينذاك كملجأ او فندق للمتنعمين. انها حالة فظيعة لان هؤلاء الذين هجروا العالم يعيشون أفضل من أهل العالم وليست فيهم تلك التوبة المتوجعة التي تصنع الرهبان . ان قضية انحلال الدير وانقراضه ليست حينذاك سوى قضية وقت وحسب .

يذكرون في جبل آثوس ذلك الاب الرئيس الذي اغتنى ديره أيام كان الأمراء يسخون على الاديار بالهدايا الثمينة الكثيرة وايام كان للاديار عبيد ورسوم جمركية ، وكان مستودع ديره طافحاً بأطنان الذهب فقام ذات ليلة وأحرق الدير من أساسه ، فعاد الرهبان الى بناء الدير من جديد في الألم والجد ، في الصلاة وذكر الله ، فاستعيدت الحياة الروحية.

ب – **الرتابة** : اذا طبقت الطريقة خارجياً وحرفياً ، دون الاهتمام بالنمو الداخلي الروحي ، تتوقف الشركة في نمط خارجي رتيب متحجر لا يحقق أحد فيه قداسة الطاعة المتواضعة ، وتتعرض حياة الدير كله للعقم الروحي . واذا كان هناك نظام قاس حديدي بالرغم من هذا العقم تستمر الشركة مادياً ولكنها لا تعود شركة رهبانية بل جماعة تسير بارادة رئيس. قد تقوم هذه الجماعة بأعمال صلاح ورحمة من وقت لآخر . ولكنها لم تعد مدرسة كمال . ولذا يجب على الاب الرئيس ان يكون يقظاً واعياً للحفاظ على الحياة الروحية : أعني ذلك السعي للكمال واهمال العمل المادي في حد ذاته اذ انه فقط وسيلة نسكية تكيف وتوزع بحكمة من أجل المنفعة الروحية وليس عبئاً مفروضاً ينوء الاخوة تحت ثقله ويضطرون الى التماس الخلاص منه في النمطية وعدم التفكير. على الاب الرئيس اذن وعلى جميع رهبان الشركة ان يعيروا الخدم الليتورجية والصلاة الشخصية الوعي التام والعناية الاولى ، فضلاً عن حاجة الشركة في هذه الحال الى اعمال نسك مشتركة اضافية كفترات خاصة من الصيام وصلوات وقراءات نسكية روحية لابقاء الأولوية المطلقة للحياة الروحية .

ج – **الاهمال** : اذا فقدت النظرة الصحيحة لعلاقة الراهب بشركته فلا يعود الراهب يرى نفسه كعضو في شركة ، وأخ في عائلة ، حينئذ يهمل واجباته المادية والروحية نحو الشركة فتتأثر هذه مادياً وروحياً ويأتي الانحطاط . وقد يحدث ذلك بسبب ضعف المسؤولين الروحيين الذين لم يفرضوا بداهة الشركة كشركة أعني كجسم اكثر اتساعاً

ويومية من حياة كل راهب على حدة . والدواء هو تربية وانماء الوعي بأن الشركة انما هي ملك لكنيسة الله وبالتالي جزء من تصميمه الازلي: ليست مجرد بيت للسكان الحاضرين ولكنها تأتي من آبائنا ويجب ان تعبر بواسطتنا الى الذين سيأتون بعدنا . ان الدير يحضننا في سياحتنا الروحية وعلينا اكتساب الوعي بأنه أم منا وبأن له علينا حق المحبة . ينبغي ان نحب حتى جدران الدير كما يقول الآباء، ففيه الكنيسة ومذبح الرب وفيه ترتفع الصلوات والتسابيح، وسيأتي غيرنا يواصل فيه التسبيح للرب . « ما أحب مساكنك يا رب القوات . نفسي تشتاق وتتوق الى ديار الرب » (مز ٨٣ : ١ — ٢) . « واحدة سألت الرب واياها التمس ان أسكن في بيت الرب جميع أيام حياتي » (مز ٢٦ : ٤) . « ما أجمل خيامك يا يعقوب واخبيتك يا اسرائيل » (عدد ٢٤ : ٥) : هذا لسان حال الرهبان .

٢ — الاخطار التي تهدد حياة الراهب الشخصية

ا — **حالة الحزن** : هناك حالة حزن ومرارة ناتجة عن شعور خاطىء بالعقم . تبدو الحياة الرهبانية خالية من الثمار ومكتوباً لها العجز . فيتصور الراهب ان هنالك طرقاً أخرى أسرع وأضمن لتحقيق حياة روحية أفضل . او ان الرهبانية لا توافقه او ليست ضرورية له . او انها لا تصلح في حد ذاتها .

ان أسباب هذه الحالة متعددة . فهي تأتي اما عن تعب جسدي او عقلي يعطل الهمة على أثر افراط في العمل ، او عن استمرار التفكير بالعالم وذكرياته سواء اللائقة منها كذكر العائلة والاصدقاء او غير اللائقة كذكر انواع اللهو التافه ، او تأتي من الشيطان الذي يرى قرارنا باختيار الحياة الرهبانية فيثير فينا الافكار ضد الدعوة الرهبانية

موشوشاً لنا وقائلاً : حياتك هنا ضياع للوقت ، اخرج ، اذهب .

— اما علاج حالة التعب فهو في اتباع نظام حياة سليم جسدياً وفكرياً تكون فيه الحياة صحية ومنتظمة لا ارهاق فيها ولا حصر في نوع واحد من العمل، بل انفتاح ومرح (دون ان يعني هذا ادخال روح العالم الى الدير والانقاص من الحياة الروحية) ، وايضاً حرية الفكر وصفاؤه فلا نبقي في ذواتنا وساوس وترددات تختمر في القلب وتفسد، مولدة الشك ، بل نتيقن من ان ليس هنالك شكل أفضل من الرهبانية لعمل مشيئة الله وخدمته وانها الشكل الاكمل والاخير لخدمة الله . — واما علاج التفكير بالعالم فهو البقاء في القلاية . كان الآباء يشيرون على من يمر بهذه الحالة ان يبقى في قلايته ، ان يأكل ويشرب وينام كما يشاء ، ولكن ان يبقى في القلاية ولا يغادرها (او لا يغادر الدير) ، لان ما يمر به انما هو أمر مؤقت يمضي . انها تجربة . ثم بشأن ذكر الأهل والرفاق ينبغي التفكير في ان تضحيتنا ومغادرتنا لهم من أجل الدير انما تفيدهم وتفيد الكنيسة فلا ندع ذكرهم يقلقنا بل يثبتنا ويرفعنا الى الله . — واما علاج وشوشة الشيطان فهو في الاعتراف بما يساورنا من شكوك والاقتراب من سر الشكر خازين ابليس ومستعينين عليه بالترديد بصوت عال : « ليقم الله ولتتبدد اعداؤه وليهرب مبغضوه من أمام وجهه » او « اللهم أصغ الى معونتي يا رب الى اغاثتي » وما شابه ذلك . او بتلاوة دستور الايمان .

ب — **الخلل في طريقة الطاعة**: هناك خطر ناتج عن طريقة الطاعة. الطاعة هي خضوع لارادة الله . وهنا الخضوع يتطلب جهداً لا بد منه ومفيداً ، يتطلب التغلب على الذات . ولكن التغلب على الذات ان لم يتم بوعي الطاعة لله وتتميم مشيئته وجعلها تولد فينا ، بل حصل بتأفف وضيق وقلب رافض فقد تصبح الطاعة عبئاً وحسب فيخسر الراهب

حينذاك ثمارها الروحية غير جانٍ منها سوى الصدمة والمشقة الجسدية . . . فينبغي هنا انماء **الاتجاه الداخلي نحو الله** . يجب ان تكون طاعتي بمثابة قفزة داخلية نحو الله ، وقياماً بواجب مقدس ، وكل واجب مقدس يجب ان ينتج تتميمه فرحاً في القلب .

اما اذا تمت الطاعة بسهولة زائدة فانها تفقد معناها الروحي . انها لا تثير النضال وبالتالي لا تثير الظفر فتكون كعبور الوز بالماء ، دونما أثر .. عند ذاك على الاب الرئيس **تغيير اوامر الطاعة** . فاذا كان الراهب يعمل في الفلاحة مثلاً ينقله الى أعمال قراءة ونسخ مزامير وغيرها مما يصعب عليه اداؤه فيفهم للطاعة معنى .

أما الهمة الزائدة في الطاعة فتخفي كبرياء ، او عقدة نرفزة وقلق مع محاولة الضياع والذوبان في الطاعة . ليست هذه طاعة البتة اذ على الراهب ان يكسب نفسه ويعرف ذاته في الطاعة لا ان يهرب من ذاته . وينبغي حينذاك **تعديل الهمة** على ضوء ذلك .

جـ ــ الحسد : ويحصل اما عن مركب نفساني ،عن الطبيعة البشرية التي تتضايق من الآخرين ، او من الشيطان . لنذكر قصة الراهب الوديع المتواضع الذي كان يطارده الشيطان عن طريق اثارة حسد الآخرين له . كان يصبر ويحتمل جميع الانتهارات مقاوماً فكرة ترك الدير . ولما تزايدت المضايقات جداً كتب ورقة يحث فيها نفسه على البقاء وكان يقرأها كلما انتهره أحد : « من أجل اسم يسوع ومحبته سأبقى واعاني كل شيء حتى النهاية » . فشاهده مرة أحد الاخوة فاتهمه لدى الاب الرئيس باستعماله السحر في صبره . ولما حقق الرئيس وكشف أمره قال : « لقد غلبت الشيطان بتواضعك ! » .

لكن الحسد نتج بصورة عامة عن اهتمامنا الزائد بالآخرين: نتطلع

الى الآخر كثيراً ولا نتطلع الى أنفسنا . ننظر خارجاً أكثر من اللازم . اما العلاج فهو الرجوع الى الذات وتذكر خطايانا الكثيرة ..

د ــ الصداقة الخاصة: أعني الصداقة الزائدة لأحد الاخوة والشعور بأني أقرب اليه من الباقين . هذه ليست خطيئة في حد ذاتها (ان القديسين برصنوفيوس ويوحنا ، وكذلك كاليستس واغناطيوس ، كانا صديقين حميمين لا يفترقان) . انما ينبغي التيقظ والمحافظة على وجه هذه الصداقة « المسيحي » لئلا تتحول الى شيء بشري . ينبغي ان لا تنقص هذه المحبة الخاصة حبي لكل العائلة الرهبانية فتكون لواحد على حساب الآخرين ..

هـ ــ روح العالم : نعيش في الدير حياة مغلقة عن العالم (ان أحد رهبان دير القديسة كاترينا في جبل سينا ، قضى في الدير خمسة وخمسين عاماً ولم يسمع بالحرب الاخيرة ولا بالحرب العالمية الاولى...) . ولكن العالم يطلب ما له ، وكل ما فينا يستدعي العالم يؤلف خطراً علينا . ان روح العالم يظهر في قول او سماع كلمة غير مناسبة ، في القهقهة او حرية التصرف او التعلق بشيء الخ ... وهذا يجعل لقاءنا مع الآخرين لقاء عالمياً في حديث بطال وضحك زائد ودالة،ومن شأنه ان يجر الى التمرد.

اما تجاوز روح العالم فهو في اكتساب اساليب الحياة الرهبانية الذي يهذب طريقة كلامنا وضحكنا واستماعنا وسائر تحركنا فيصير الراهب مثل كائن قد طبع برغبة وحنين الارتقاع عن العالم والامتداد للقاء الرب بأسرع وقت ، فيزول العالم عندئذ ولا يبقى لدينا مجال للالتفات اليه : هذا ما يجب ان يقوله الراهب في كل موقفه .

القسم الثاني : حياة القلاية

الفصل الاول

حياة الراهب الداخلية معناها ومحتواها

بعد حياة الشركة حياة القلاية أعني حياة الراهب الداخليه . ولكن قبل ان نتوغل في هذا البحث من الضروري أولاً ان نتبين بايضاح معنى حياة الراهب الداخلية ومحتواها وان نورد أيضاً بعض التحديدات الاولية التي تساعد على فهم تلك الحياة باكثر دقة . هذا على كل حال حديث تحضيري « مدخلي » لحياة القلاية .

١ – معنى حياة الراهب الداخلية

ان حياة الراهب الداخلية — « حياة القلاية » بملء معناها — توضح طابع الملء والشمول الذي تتسم به الحياة الرهبانية اساساً وجوهراً ، لان الحياة الداخلية او حياة القلاية تحتوي ايضاً حياة الشركة وتتألف منها . وهذه بدورها تلقي جذورها في حياة القلاية . نعم ان حياة الراهب الداخلية لا تعني انعزالاً فاسداً غير متناهٍ (بعيداً عن اي اتصال بالله والناس) : ان الراهب عضو العائلة البشرية الكبرى المخلصة في المسيح وهذه العائلة حاضرة و « معطاة » في الشركة الرهبانية ..

ولكن الراهب أيضاً لا يقتصر على كونه عضواً في شركة الاخوة : ان الفضائل والاكتسابات الروحية المختلفة التي يجنيها في الشركة انما « يجمعها » في حياته في القلاية . اننا ندخل هنا الى قلب حياة الراهب وسرها ، وحياة الشركة تساهم فيه بل هي جزء منه : ذلك لان

الشركة الرهبانية ليست كأي مجتمع عادي بل لها سر خاص . سر مسيحي يرمي وراء المسيح الى استعادة كمال وحدة البشرية على مثال الثالوث الاقدس في وحدة وتفاعل وشركة محبة لا حد لها . ان الشركة الرهبانية تجد اساسها بالحقيقة في ينبوع الحياة الروحية في سر الثالوث الاقدس .. فلا ينبغي بالتالي ان نظن ان الحياة المشتركة تؤلف درجة ادنى في الحياة الرهبانية ، نتيجة لمساومة أو تساهل ما . انها تتمتع بأولية في حياة الراهب وذلك كونه بالضبط (جسدياً ومعنوياً وروحياً) ليس وحده في الوجود . انه عضو البشرية والكنيسة وهو في عضويته هذه ينال دعوته الى الحياة الداخلية الكاملة . ولكن سر كيان الراهب ليس منظوراً ظاهراً بل هو كامن في داخل قلبه وقلايته ولا يزال تحديده الافضل مما ورد في رسالة بطرس الجامعة الاولى « انسان القلب الخفي » (١ بطرس ٣ : ٤) ...

كل هذا يعني ان الراهب الذي لم يدخل بعد الى قلبه او لم يحاول ان يدخل او ليس هو على طريق قلبه لم يباشر بعد حياته الرهبانية . وذلك بالرغم من وجوده جسدياً في الدير . الدير دير اذا كان الراهب يعيش فيه كراهب وليس كأي امرىء في أي بيت . والافضل له عند ذاك ان يترك الدير من ان يعيش فيه حياة عادية ، متستراً وراء قداسة ظاهرة هي قداسة حقيرة لأنها غير متبنّاة ..

ان حياة الراهب الداخلية ، الحقيقية ، هي بالتالي التكميل الذي لا بد منه للحياة الشراكية ومقياس اصالته الروحية . والقلاية — بهذا المعنى الداخلي — تمثل حياة الراهب وترمز اليها . انها علامة البرية الاولى التي لم تنقرض من الرهبانية ولا يجب أن تنقرض . ان برية الآباء « ادخلت » في الحياة المشتركة ولم تلغ . فالقلاية علامة الحياة النسكية والزهد واعتزال العالم . علامة الصعود الدائم نحو الله . انها حقاً تراث

الآباء المقدس وينبغي ان تكون دائماً عامرة بحرارتهم ونضالهم وروحانيتهم وصلاتهم الظافرة .

للقلاية اذن كرامة خاصة : ليست هي للراهب مجرد غرفة بل المكان المنظور لعزلته مع الله الغير المنظور . لا عزلة فاسدة . انها تصبح فاسدة اذا ترك الراهب اخوته في الشركة ولجأ الى قلايته ليرتاح فيها وحسب . اذا انفصل عن اخوته وانزوى في ذاته دون التفكير بالله فيصبح لا مع الله ولا مع اخوته بل مع نفسه : مع كسله وأهوائه وتشتيت ذهنه ، وهذا انكار للقلاية . ان قداسة الحياة الرهبانية هنا ، هي بالضبط أنها تمنعنا من الوقوع في هذا الخطر ، وذلك لوجودنا في دير : اي في عالم نحن فيه منفتحون للآخرين . ان حياة الدير تساعدنا على تغذية حياة القلاية مما نناله من حياتنا في الشركة من طاعة وخدمة وليتورجيا الخ .. هذه الحياة الديرية تهيئنا لحياة القلاية والوحدة ، تطهرنا ، تحطم فينا العادات السيئة ، الاهمال والكسل والتراخي .. انها تساعدنا على « تجميع الذات » على « التوحد » : حياة القلاية الحقيقية . وحياة الشركة بدورها تستند على حياة القلاية وبواسطتها تتشدد وتتجدد تكتسب نضارة وشفافية : ترتقي الى حياة داخلية الى « حياة القلاية » . ذلك لأن الحياة المشتركة الخالية من حياة القلاية ومن سر عزلتنا الداخلية مع الله قد تصبح عبئاً لنا وارهاقاً ، حياة ازعاج ومضايقة وحسب . بينما حياة القلاية تجدد رغبتنا في الجهاد الرهباني بين الاخوة ..

هناك اذن تداخل كلي بين حياة الشركة وحياة القلاية وهذا التداخل هو القداسة ، قداسة الراهب الخاصة . فحياة القلاية وحياة الشركة هما مثل جناحين اذا حركهما الراهب واستخدمهما معاً رفعاه سريعاً الى قمم القداسة . وفي الواقع ان اكثر القديسين « صوفية » في

الشرق (سمعان اللاهوتي الحديث عام ٩٤٢ - ١٠٢٢) لم يعش في البرية بل في دير مشترك في القسطنطينية . انه أحد القديسين الثلاثة فقط الذين استحقوا لقب « لاهوتي » في الكنيسة الارثوذكسية بعد يوحنا الرسول وغريغوريوس النزينزي ، وذلك لسمو اتحاده بالله الذي عبّر عنه بصورة رائعة في تشائده الروحية الشهيرة[١] .

حياة القلاية اذن مادية وروحية معاً : فالقلاية المادية تطابق المكان المادي (او الجسدي) لعزلتنا ، الذي يجب أن نملأه من حرارتنا ليصبح ملجأ ومحوراً لحياتنا الروحية واتحادنا بالله . المكان المادي يجب ان يصبح انطلاقاً للمكان الروحي الداخلي : للقلب . القلب هو مكان معاينة الله كما نعلم . ومعاينة الله تبقى هدف الراهب الاول .

أما القلاية المادية بحد ذاتها فيجب ان تكون بسيطة نظيفة تتسم بطابع الوضوح النيّر ، لا ينفر منها الراهب بل يستطيع فيها ان يجمع ذهنه عن التشتيت ويطالع ويصلي . ومن ناحية ثانية ان قلاية الراهب هي مكان نسكه الشخصي على الراهب ان يكون له ، او ان يكتشف بينه وبين ابيه الروحي معيار نسكه الشخصي من صلوات خاصة وسجدات ومزامير وحوار مع الله والهذيذ به . القلاية مكان حضورنا لأنفسنا ومن خلال أنفسنا حضورنا لله . ان الله يحوطنا دائماً في الدير ، في الكنيسة ومع الاخوة وفي القلاية . فيجب بالتالي ان نملأ في القلاية شعور احترام وورع لا ان نرتاح اليها كموضع راحة واسترخاء[٢] . ليست القلاية موضع استرخائنا بل موضع افراحنا وآلامنا وطرائحنا الى الله[٣] .

---

١ - انظر ايضاً الافشين السابع لصلاة المطالبسي وهو من تأليفه .

٢ - الاب اغاتون عاش احدى عشرة سنة في قلاية ولم يعرف او لم يذكر ان في احدى زواياها مقعداً صغيراً يجلس عليه !

موضع غياب الله عنا وزياراته الينا لأن الله هكذا يسلك معنا[١] .

ففي القلاية يصمد أنيننا وتنسكب دموعنا ، وفيها نتنعم بأوقات السلام العميق الذي يفوق كل عقل ... في القلايــة اخيراً ترسّخ كل اكتساباتنا الروحية ونتمثلها ونجعلها جزءاً منا ، وهكذا نتغير روحياً وننمو ، نرتقي نحو الله ونتأله : من خـــلال الفرح والألم ، في حلاوة العزلة وعذابها . ان القلاية حسب تحديد الآباء بمثابة اتون الفتيان الثلاثة : في وسط النار يحدثون الله ويرتلون . في وسط النار ينديهم نسيم النعمة ، نار الجهاد وندى الروح ..

٢ - محتوى حياة الراهب الداخلية

ماذا تحتوي حياة الراهب الداخلية وكيف تُحقق وكيف تنمو؟.. جواباً على هذه الأسئلة ليس هناك سوى قول واحد ومعنى واحد : حياة الراهب الداخلية هي الحياة في الله. ان الله في داخلنا الله «داخلي» فينا اكثر من كل شيء ، اكثر من انفسنا .

ان في « داخليتنا » (intériorité) درجات : العالم الخارجي يأتينا عن طريق الحواس والعقل . ولكن هناك ما هو أعمق مـــن العقل وأبعد[٢] . يجب النزول في الذات بصـورة أعمق لاكتشاف مركزنا الداخلي . هذا ليس بسهل لأننا ، تحت ضغط العالم الخارجي ، ننسى داخليتنا . الداخلية الانسانية هي كيان الروح بعينه . الانسان كائن روحي أيضاً . ان الانسحاب من العالم للانفراد والانزواء هـــو سفر

---

١ - تتدفق نعمته في قلبنا فنفرح وتتعزى ثم يغيب عنا ويختفي فنضطر الى البحث عنه وطلب وجهه . يبتعد عنا لكي نلتمسه بالصراخ والجهاد : فنقطع مسافة جديدة اليه ونثبت فيه ونتعمق .

٢ - يمكن التعبير عن داخليتنا بأنها « اكثر » من العقل .

داخل أنفسنا وروحنا[1] . ولكن هنالك أيضاً أعمق من الروح ومن كل عوالمنا الداخلية : هي حضرة الله الاعمق من الكل لأنها مصدر الكل وكانت قبل الكل . مهما صعدنا عـــلواً او نزلنا عمقاً ، سواء في العالم الخارجي أو داخل أنفسنا ، فاننا نصطدم بالله . الله يحيط بنا من كل جهة ، هو أعلى من روحنا .

فليس معنى حياة القلاية سوى هذا فقط : الرجوع الى الذات للدخول (بالنعمة) في الله . ليس الامر مستحيلا على الانسان ، بل هو بالعكس دعوته الأولى ، مصيره وطبيعته يحاول الراهب ان يستعيدها. الحياة الرهبانية ليست بالنتيجة حياة استثنائية تتنافى والحياة البشرية بل تمثلها كنموذج لها . إن وجود الخطيئة التي شوهت مفاهيم البشر هو الذي يجعل الناس ينظرون الى الرهبانية كحياة شاذة غير اعتيادية في حين أنها الشرعة الحقيقية للانسان ...

---

١ ـ لقد أصبحنا غرباء عن أنفسنا وهذا السفر الداخلي أصعب من السفر الخارجي اننا نجوب العالم بل أصبحنا نخرج الى الفضاء ولم نباشر بعد اكتشاف ذواتنا . انت فينا عوالم نجلها بكاملها ..

الفصل الثاني

بعض التحديدات والتمييزات الايضاحية في حياة الراهب الداخلية

١ ـ بعض التحديدات الايضاحية

الحياة في الله هي إذن المعنى الحقيقي لحياة الراهب . ولكي نفهمها بأكثر دقة لا بد من التحديدات التالية :

ا ـ الطابع « التعاوني » بين الله والانسان (caractère synergétique) ان الحياة الروحية عمل مشترك يحققه الله والإنسان معاً في تعاون بين الجهد الانساني والروح الالهي . هذا أمر اساسي لا مناص منه . فمن جهة أولى نحن لا نستطيع ان نعمل من أنفسنا شيئاً : «بدوني لا تستطيعون ان تفعلوا شيئاً » . يمكن القول ان الله وحده هو العامل. انه العامل الاول فينا لان منه المحبة ومنه المبادرة . أما نحن فنجاوبه ونلبي نداءه فقط . ولكن جوابنا من جهة ثانية ضروري لا بد منه ، لان رفضنا يجعل النعمة غريبة عنا . ان أغلقنا قلبنا عن الله فليس بعد من تعاون . الله يقف على الباب ويقرع . « يقرع » أي انه لا يدخل اغتصاباً ، فينبغي ان نفتح نحن له ، ان نفتح من الداخل .. في هـذا التوازن بيننا وبين الله يبقى الفضل كله لله. علينا نحن ان نتصرف ونجد

كأن كل شيء متوقف علينا ، عالمين في الوقت نفسه ان لا شيء يتم بدون الله .

ب – **الطابع العلمي** : لقد سمى الآباء الحياة الداخلية فناً وعلماً بل «فن الفنون وعلم العلوم» . وذلك لقناعتهم بأنها تقوم على قواعد وقوانين يجب معرفتها وفهمها وتطبيقها كفي أي علم آخر . اننا لا نتقدم داخلياً الى الله بتسليم أنفسنا للصدف ، بل مرشدين بخبرة الآباء والمرشدين أي بالروح القدس الذي ينير طريقنا فنسلك فيه .. من الواضح ان هذا الطابع العلمي طابع سيستماتيكي ولكنه غير آلي : ان معرفتنا للقواعد واتباعنا إياها لا يكفيان لكي نحصل على النتائج آلياً ، اننا هنا في ملكوت الحرية لا ميدان الموضوعية والضرورة الحتمية . الله روح والروح يهب حيث يشاء ، وبالروح والحق يجب ان نسجد له ، فلا نظن ان تطبيق بعض القواعد يؤدي قوراً الى نتائج لا تخطىء .

ج – **طابع الجهاد والحرب**: ان الحياة الداخلية حسب مفهوم الآباء تظهر كنضال وكحرب روحية منظورة وغير منظورة في آن واحد . ان صعودنا الى الله لا يتم في نزهة ولا مبالاة ، رغم أنفسنا وبتدبير الهي عجيب ! بل نمونا يتم بالضبط من خلال النضال والجهاد . ان المرء الذي لا يصادف عقبة او صعوبة في طريقه يحاول اجتيازها لا ينمو بل يبقى متقلصاً مبتوراً .. بل يتولد عنده شعور اعتداد بالنفس وكبرياء . ان انعدام النضال يسم المرء بالنتيجة في انعدام الايمان اذ ينسى المرء الله .. ثم ان غاية هذه الحرب الروحية ليست لافنائنا بل لنمونا وتثبيتنا . ولذا يجب على كل حال ان لا نيأس ابداً مهما صادفنا من الصعوبات : « من سيفصلنا عن محبة المسيح . أشدة أم ضيق أم ... ؟ » (انظر رو ٨ : ٣٥ – ٣٩) . ليست الحرب علامة تخلي الله عنا ، حتى في أوقات القلق

والمرارة الكثيرة .. بل هذا سر ، سر الله الذي يؤدب من يحب ويسمح بمرورهم في التجارب لكي يتثبتوا وينصقلوا كما في نار ..

د – **طابع التدرج** : للحياة الداخلية طابع تدرجي تصاعدي فهي ليست كلا واحداً بل تتضمن مراحل مختلفة تتميز الواحدة عن الاخرى . وهذه المراحل المتفاوتة يجب معرفتها والعودة دائماً الى معرفتها وتمييزها لان الكثيرين ، يقول الآباء ، لا يتقدمون في حياتهم الروحية بسبب عدم التفريق بين بداية الطريق ووسطه ونهايته .. انهم يتصرفون في البداية كما لو كانوا في النهاية ، او في الوسط كما لو كانوا لا يزالون في البداية .. جاهلين الطابع التدريجي الصعودي للحياة الداخلية فينجم عن هذه البلبلة اما شعور بالانفتاح والكبرياء او بالعجز والريبة .. ان الصعود هنا لا ينتهي وهذا هو قانون التقدم الاساسي . كلنا مبتدئون ، حتى الاكثر كمالاً بيننا وسنبقى مبتدئين على الدوام وان لاحظنا فينا علامات التقدم الحقيقي[1] . ذلك لان التقدم لا حد له ولا نهاية : « ان نجد الله هو ان نفتش عنه ... ان لا نرتوي من الشوق اليه ابداً .. » (غريغوريوس النيصصي) .

٢ – **بالاضافة الى التحديدات السابقة هناك ايضاً بعض التمييزات** التي يجب معرفتها ايضاحاً لما سوف نراه في بحث حياة القلاية :

آ – **مرحلتا النسك والتأمل** : الحياة الداخلية عبارة عن مرحلتين كبيرتين هما النسك والتأمل :

أما النسك (ونقصد به الجهاد النسكي ascèse) فهو كل ما يتعلق بحياة التحرر والتطهير بحركة الرجوع الى الذات لاستعادة النقاوة

١ – هناك علامات منظورة للتقدم .

المفقودة بفعل الخطيئة. انه مجموعة الوسائل النسكية التي نستعملها (بمساعدة النعمة) لاسترجاع البساطة الاولى التي تبددت في التشتيت انه عمل تحضيري فقط .

أما التأمل فهو غاية الحياة الداخلية وتتويجها ويقصد به رؤية الله. ان عبارات رؤية الله ومعرفته والاتحاد به الخ .. تعابير مماثلة تدل على مكنون الحياة التأملية الواحد . الآباء سموا مرحلة النسك المرحلة « العملية » practicos (حيث يعمل المرء ويتعب متطهراً)وسموا مرحلة التأمل الرؤية او المعرفة theoria, gnosticos .

بين المرحلتين الكبيرتين مكان لمرحلة أخرى وسطى سماها الآباء **التأمل الطبيعي** (لتمييزه عن التأمل الالهي) او استنارة الذهن ، فيها ينفتح ذهننا للمعنى الجديد فنرى العالم المادي بعيون أخرى ونفهم الكتاب المقدس فهماً آخر جديداً. فهناك بالنتيجة ثلاث مراحل للحياة الداخلية : التطهير والاستنارة والاتحاد بالله أو التأمل الالهي .

ب – وسائل النسك مادية وروحية : الانسان واحد ومركب معاً . وجهادنا من أجل الحياة الداخلية يشمل كل كياننا ، ذهننا وجسدنا معاً : انه جسدي وروحي . ولذلك فالوسائل النسكية مزدوجة ، جسدية وروحية :صوم وسجدات وسهر واماتات مختلفة..

يجب هنا الانتباه الى خطر وهو الظن بأن الاكثار من النسك المادي يوصل بحد ذاته الى التأمل . النسك المادي مساعد فقط ، مساعد لا بد منه من أجل التقدم الروحي ولكنه في حد ذاته عقيم ما لم يكن مسنوداً بموقف داخلي ، مشبعاً بتطهير داخلي وروحي. هذا والعلامات الجسدية في النسك علامات نسبية : انها تظهر حسب الحالات في درجات مختلفة

دون ان تؤلف براهين ثابتة للتقدم الروحي ، بل قد تزول أحياناً : كان ابن الانسان يأكل ويشرب ... فيجب اذن عدم الاعتناء بها بحد ذاتها بل استعمالها على العكس لكي يصبح الجسد شفافاً للروح بواسطة تحرره من الاهواء .

جـ – الحالات النفسية والحالات الروحية : في حياتنا الداخلية كثيراً ما نكون في حالات نفسانية (فرح ، سلام ،حزن ،تجارب...) لا تأتي من الله ولا من الشيطان بل من أوضاع نفسنا وحركاتها. فيجب الانتباه لكي لا نخلط بينها وبين الحالات الروحية : نقول مثلاً « قد رأيت الله » ! او « يهاجمني الشيطان !»في حين تكون المعدة هي السبب لا الله ولا الشيطان.. ان انطونيوس يميز ثلاث درجات في اعمال الانسان: أعمال النعمة الالهية ، والاعمال الشريرة الشيطانية ، واعمال الانسان الطبيعية. هذه الاخيرة قد تصطف مع الله او مع الشيطان ولكن ينبغي على كل حال عدم الخلط بينها وبين الحالات الروحية .

* * *

الحياة الداخلية اذن تبتغي هدفاً وتتبع برنامجاً . معناها الاخير الرجوع الى حالة الانسان الفردوسية. الى كمال وضع آدم الاول ووحدته الداخلية التي فقدها بالتمرد . هذا معنى النسك وغايته .وبعد استعادة كمال الطبيعة البشرية – ودون انفصال زمني – يعطى لنا الاتحاد بآدم الثاني اعني القيامة في المسيح . في تتميم هذا البرنامج الخطوة الاولى هي له : التجسد والفداء والقيامة. نحن اذن نبدأ بالنهاية :بواسطة المعمودية ندخل حياة المسيح مباشرة ندخل القيامة. برنامجنا ان حياة المسيح هذه التي نلناها بالمعمودية تحتاج كل حياتنا . برنامجنا ان تطرد حياة المسيح

نور القيامة . وقد جاء في سفر الرؤيا (١٤ : ١٣) « سمعت صوتاً من السماء قائلاً لي اكتب طوبى للاموات الذين يموتون في الرب منذ الآن . (منذ الآن .. يموتون : لا جسدياً بل « في الرب ») نعم يقول الروح لكي يستريحوا من اتعابهم واعمالهم تتبعهم ... » .

الفصل الثالث

طبيعة الاهواء

رأينا في الفصلين السابقين ان الحياة الداخلية (« حياة القلاية » المتداخلة مع حياة الشركة) غايتها الرجوع الى الذات بغية تجديد الطبيعة البشرية ، بواسطة النعمة ، والرجوع الى الله . ولكن هذا البرنامج تعترضه الاهواء ، فما هي الاهواء ؟

بعد ان ألقينا نظرة عامة على الراهب من الداخل ، على كيان الراهب وحياته الداخلية في حد ذاتها التي تصبو الى الاتحاد بالله والقيامة في المسيح[١] ، ننتقل الآن الى الطرق والوسائل المؤدية الى تلك الغاية المجيدة مبتدئين ببداية الطريق .

ان بداية الطريق نحو القيامة هي التحرر من الاهواء ، ولذا وجب أولاً معرفة ما هي الاهواء .

لا يكفي القول بأن الاهواء علة الخطيئة : انها اعمق من الخطيئة .

١ ـ الحقيقة ان الراهب لا يموت بل يقوم في المسيح وهذه القيامة ممكنة منذ هذه الارض . الراهب الحقيقي يستطيع منذ الآن ان يصل الى اشعاع نور القيامة فيه ، في الطبيعة البشرية . واجب على الراهب ان يموت : ان جسده يموت ولكنه هو يقوم مع الطبيعة البشرية ، فالغاية هي تجديد الطبيعة ثم نقول مرة أخرى ان المرء قد يحقق ذلك خارج الدير . كل انسان يستطيع الوصول الى القداسة ، ولكنه عندئذ يكون في الواقع راهباً . ان ذلك التجديد الداخلي الذي يسعى اليه الراهب ما هو الا مثال فقط وليس الراهب كما نصفه سوى نموذج وحسب .

الخطيئة تظهر فقط وجود الاهواء فينا . الاهواء تسمى احيانا الخطايا الاساسية : أي انها أساس الخطيئة العميق وجذرها . في الواقع الاهواء عادات انطبعت في الطبيعة بعد الخطيئة الجدية التي شوّهت الإنسان وحرفته . فالطبيعة استذوقت الخطيئة اذا صح القول وفسدت .

الجوهر الداخلي بالتالي ، اللب ، اصبح فاسداً فصار مصدرا للخطيئة . ان الاهواء تولد الخطيئة في توليدها للطبيعة ، « للمادة » البشرية : « بالآثام حبل بي وبالخطايا ولدتني أمي » (مز ٥٠ : ٥) . فالخطيئة بالتالي « تسبق » المرء اذا جاز القول[1] .

الاهـــواء اذن هي ينبوع الخطيئة مغروسة في طبيعتنا . الطبيعة البشرية خلقت من الله دون تشويه الاهواء ، خلقت « على شكل الله » theomorphos ولكن التمرد الاول ، الانفصال عن الله قـــد شوه الطبيعة ، كانت الطبيعة البشرية متجهة « طبيعياً » نحو الله كمصدر كل كيان وحياة ، كقوتها ونور كمالها . فصارت بالعكس ، صار الانسان بالاهواء خارجياً ، خارج محوره ، متجهاً الى مراكز اهتمام عديدة ومختلفة غير الله . لقد تشتت الانسان ، تحطم حرفياً ، صار عبداً ، عبداً لهذه المراكز المختلفة التي حلت محل الله ، ظاناً امكان املاء كيانه بها . لفظة اهواء passion .. passivere = subir تدل على الخضوع ، على شيء سلبي ، على سيطرة آخر على الانسان[2] .

ان كياننا صار يتجه كله بل يخرج نحو موضوع أهوائه (الشراهة

---

١ - لا يعني ذلك ان الزواج قبل المسيح كان فاسداً بحد ذاته : اذ كان في الوقت نفسه بعد الحياة محارباً الموت ، الى ان ولدت العذراء مريم ثم المسيح الخ ... فالخطيئة هنا في تدبير الله ترجع ضد الشر .

٢ - ان سيطرة الآب ليست سيطرة : الآب هو مصدر الكيان ، فالخضوع له يكثر الكيان بدلاً من ان يستنفده .

مثلاً او الغضب او الشهوة) فأصبحت هذه بمثابة أصنام : يوجه الانسان اليها ما هو لله فقط ..

الاهواء لا تشبع : الكتاب في تعريفه الجميل للأهواء يشبّه البطن بلجة او بحر .. والعيون بجحيم لا يشبع .. ان الغضب (او البغض) حين يستولي على انسان فهذا لا يكتفي بالضرب بل يريد القتل والافناء . انه تعطش الى العدم بحجة الدفاع عن النفس . ان كل هوى الى حد ما هو تعطش الى العدم وراء مظهر غاش ، مظهر تعطش الى الحياة . كل هوى فينا يقول « حياتك متعلقة بي ، متوقفة عليّ » .. اني أظن ذلك أساسياً لحياتي .. فالاهواء اذن تظهر في مظاهر غاشة لتخدعنا وتجرنا اليها .. انها تخفي تعطشاً الى العدم ، الى نوع من « ملء » فاسد أخير يذوب فيه كل شيء في هوانا ، كأننا نريد أن نبتلع كل شيء في كياننا .. انه « روح العدم » هذا هو ابليس ..

ان سفر التكوين يشير الى ذلك في ايراده قصة شجرة الحياة وشجرة المعرفة . فشجرة الحياة تمثل المسيح معطي الحياة . أما شجرة المعرفة فترمز الى « مركز » المعرفة المتجهة الى العالم .. وكان على آدم ان لا يذوق معرفة العالم الا بعد نواله الحياة لتكون معرفته على ضوء الحياة . ولكن تجربة الشيطان كانت بالضبط ان « كل من شجرة المعرفة اولاً فتصير الهاً تعرف الخير والشر .. » فدخل حينذاك الشر فعلاً : لقد فضل الانسان العدم على الحياة . اصغى الى صوت ابليس : « ستصير الهاً ، ان لانهائية الله ستصبح لك وذلك دون ارتباطك بالله وخضوعك له . فتعرف العالم ، والخير والشر » .. فعرف الانسان الشر حقاً : سقط عبداً لما كان يريد ان يعرف .. ان غاية الاهواء الاخيرة هي ان تفنينا وتميتنا . الاهواء أداة للموت . ولذا قال بولس الرسول « العدو الاخير » الذي يُغلب هو الموت .

داخل الخطيئة الجدية ، وداخل كل انسان ، السبب هو نسيان الله وحسب. ان التجربة الاولى عينها تتكرر معنا بأشكال مختلفة او تأتينا من أعماقنا : إننا نتصرف كأن الله غير موجود فينا. كل الصورة الالهية التي فينا — الألوهة المخلوقة التي فينا — ننقلها ، نوجهها الى الخارج ، نحو عالم يختلف عن الله .. وليس نظام الصلوات اليومية ، والعمل والمطالعة — ما يسمونه في الاديرة الرتابة المقدسة — ليس الا لتذكرنا بالله ، للتعويض عن نسياننا لله ، ذلك النسيان المسجّل منذ سقوط آدم في جسدنا ودمنا. غاية ذكرنا لله على الدوام في الصلوات والتأملات ومطالعة الكتاب وأعمال النسك الخ .. ان يعود ذكر الله الى كياننا ، ليس فقط في وعينا وذهننا بل في لحمنا ودمنا ، فيخلق فينا مجدداً «تشبهنا» الاول بالله . إن كوننا على مثال الله يُظهر لنا سرّ الانسان الحالي ، بعد السقوط ، هو في نسيانه لله الذي أحل محله محبة الذات ، والكلمة عينها باليونانية تعني أيضاً محبة العدم (philautia) ..

أهواء وأهواء : يجب التمييز بين أهواء وأهواء : ليس في داخل الانسان أهواء فاسدة فقط ، بل أيضاً نوع آخر من العادات السلبية من عواطف ومشاعر ظهرت بعد الخطيئة ولكنها غير فاسدة بحدّ ذاتها : كالجوع والخوف والبرد والحر والرعب ، هذه قد تستخدم للشر او للخير وقد سمح الله بها نسبة لوضع الانسان الجديد بعد خروجه من الفردوس من أجل حمايته. ان يسوع أحس بها إذ أخذ الطبيعة البشرية بكمالها (دون الخطيئة ، دون الاهواء الفاسدة) . لقد جُرّب الرب يسوع عبر المشاعر فقاوم طبيعياً : جاع .. فرأى الشيطان ان يسوع قد جاع اذ انه انسان فحاول استغلال الجوع قائلاً « إن أطعمته يصير عبدي » . فرفض الرب .

قلنا ان هذه المشاعر الطبيعية وقد تستخدم للخير ولخدمة الله فكيف ذلك ؟ الجوع مثلاً يستخدم ضد الشراهة ، والخوف يحوّل لخوف الله ، والبرد يحوّل تسكيناً لأبعاد التجربة الجسدية الخ ... وهنا يظهر دور الإرادة ، دور الانسان .

الاهواء ونحن : الاهواء موجودة فينا بالأساس وليس من انسان يخلو منها في طبيعته . لا بدّ منها في هذا الدهر . فاذا لاحظنا دلائل الأهواء وجذورها فينا ، وصادفناها مراراً بل ليلاً ونهاراً ينبغي ان لا نكتئب ونيأس : هي لنا مسجلة في طبيعتنا (الكبرياء والحسد والشهوة والحزن ..) ، ولكن المهم ان لا تصبح « نحن » ، ان لا نتطابق معها. ينبغي عدم قبولها ، عدم الالتصاق بها « لا يتسلط عليّ أي أثم » (مز ١١٨ : ١٣٣) (الأثم موجود ولكن لا يتسلط عليّ) . في هذا الفصل الدقيق بين الطبيعة والروح تبدأ الحرب. الأهواء قد حطمت بالمعمودية ، المسيح قد حطمها . فلم تعد متسلطة علينا كل التسلط. في مقدورنا الآن أن لا نصغي اليها ولا نلحق بها بل أن نصعدها ونحولها ونجعلها في خدمة الروح .. أي في مقدورنا ادخال حياة المسيح في أعماق النفس ، ادخال قيامة المسيح في قبر نفسنا ، حيث وضعت بذور الموت بالاهواء لأرادتنا وتحرير طاقتها الطبيعية ووضعها في خدمة المسيح .

الهدف الاول : لذلك فالشوط الاول من الطريق ، الباب الاول الذي يدخل فيه الراهب هو التحرر من الاهواء ، ليبلغ منه الى نقاوة القلب وصفائه من كل هوى ، الى اللاهوى apatheia . «طوبى لأنقياء القلوب فانهم لله يعاينون» (متى ٥ : ٨) : ان نقاوة القلب هي أيضاً محبة الله (caritas) (بدل محبة الذات) . الغاية الاخيرة هي المحبة . أما الهدف الأول في طريقنا نحو المحبة فهو التحرر من الأهواء .

الفصل الرابع

استعراض الاهواء

ان الآباء يصفون الاهواء وصفاً « سيستماتيكياً » يبالغون في دقته ، فيجب عدم فهمه في حرفيته الخارجية بل من الداخل . انه وصف صحيح كلياً .

لقد وصف الآباء – وليس من دون اعتبارات رمزية – ثمانية اهواء او رذائل رئيسية هي بمنزلة أساس لكل حركة خطيئة فينا ، وهي : الشراهة ، الزنى ، البخل ، الغضب ، الحزن ، الكسل ، العجب ، الكبرياء .

ان بعض هذه الاهواء تحتاج الى شيء مادي لتتحرك وتظهر . فالشراهة مثلاً يثيرها الطعام (مع العلم بأن هناك ثلاثة أنواع من الشراهة: الى كمية كبيرة من الطعام ، الى أطعمة معينة لذيذة ، الى الأكل خارج مواعيد الطعام) . والبعض الآخر ، وهي الأكثر خطراً ، لا تحتاج الى سبب مادي ، بل هي مجردة عن المادة فالكبرياء لا يثيرها الزاماً سبب مادي او غاية مادية . بل ان كل هوى يحارب بعمل يضاده (الشراهة بالصوم ، الغضب بالوداعة ..) أما الكبرياء فان الاعمال الحسنة نفسها تغذيها . مع العلم بأن هناك نوعاً من الكبرياء بمثابة مرض طفلي ساذج هو

الانشراح والرضى عن الذات عند تحقيق بعض النجاحات الصغيرة في الحياة الروحية . هذا أمر طبيعي لا بد منه وكثيراً ما يخيفنا اكثر من اللازم . ليس هو خطيئة . ليست هذه الكبرياء الأصلية .

ننتقل الآن الى استعراض الأهواء واحداً فواحداً بحسب اسمائها التقليدية وترتيبها التسلسلي النسبي :

آ – الشراهة

الشراهة هي الهوى الاول من حياة الراهب ، تنطلق من واقعه اليومي (من جري نظام النسك والصوم) . الشراهة في العالم نادراً ما تُعدّ خطيئة ، ذلك لانعدام القيود ولان رجل العالم يخلط بين الحياة المادية وبين غريزة البقاء . أما بالنسبة للراهب فالشراهة تصبح فعلاً خطيئة خطرة لانها :

١ – تستعبد الراهب وتسلب منه حريته فيهجس في الأكل على الدوام ويحاول ان يأكل في الخفاء عن اخوته .. ان شيئاً شريراً يدخل هكذا في حياته فيفصله عن الاخوة .

٢ – ان لم يضبط الراهب الشراهة فقد تصبح مصدراً للشهوة والزنى والدعارة ، ان شيطان الزنى يغتنم فرصة تناولنا كمية كبيرة من الطعام فيتسرب الينا متستراً وراء الشراهة .

ولكن الراهب في الدير المشتركة معيشته يلقى حماية ضد الشراهة أكثر من غيره بكثير . فالطعام معد كما ينبغي سواء من حيث النوع والكيفية او الكمية : طعام مغذي وبكمية كافية لشخص طبيعي ، دون

زيادة او نقصان. أما الضعفاء او المرضى فيعد لهم الطعام الذي يناسبهم[1]. ثم ان طاعة الراهب للطريقة في الدير تحفظه كسياج وسور .

وعلى كل حال فان المبدأ العام والمطلق في محاربة الشراهة هو **الاحتراس من الشراهة بصورة دائمة** . يجب عدم « المزح » في تناول الطعام مهما كان قليلاً او تافهاً . بصورة خاصة عندما يدعى الراهب لتناول الطعام خارج الدير يجب ان يحترس من الشراهة . فالافضل ان يأكل أقل من اللازم من ان يأكل كثيراً .

هذا ويجب الا ننسى ان امر الطعام نسبي يختلف من شخص لآخر حسب بنيته ومزاجه وعمره ونوع الافكار التي تداهمه ... (فالراهب ذو المزاج العقلي مثلاً تداهمه الكبرياء أكثر من الشراهة — وهي اكثر خطراً — فيجب ان لا يشغله نسك الطعام أكثر من الضرورة .. وهكذا ..)

٢ — الزنى

ان هوى الزنى والنجاسة والشهوة الجنسية قبيح جداً وخطر جداً للراهب لانه **ينكر ويتهدد كيان الراهب الاصلي الذي هو البتولية** والحياة الملائكية . وهو خطر ايضاً لان الراهب **معرض اكثر من غيره** لأفكار وتجارب الشهوة الجنسية بالنظر لتنحيه وبعده عنها ..

فعليه ان **يحترس كثيراً** ليس فقط من المناسبات بل أيضاً من المطالعات ومجرد الكلمات والافكار التي قد تجلب له الشهوة .

---

١ — ليس الدير مكاناً لقتل البشر وليست هذه غاية النسك !... ولكن ينبغي عدم « الاحتجاج » بضعف ما من أجل تناول طعام خاص أو وافر .

ينبغي ان نذكر دائماً ما قاله الاب بيمين لأحد الاخوة من ان **اللهن بمثابة طاحون** يحتاج الى ان يطحن دائماً شيئاً ، اعني الافكار .. **ان الافكار الرديئة تشبه الهواء** الذي لا يستطيع احد ان يوقفه . ليست الافكار في سلطان ارادتنا — خاصة عند المبتدئين . ان مسؤوليتنا لا تكمن في الافكار التي تداهمنا بل في ما نحن نعمل بها : في قبولها أو محاربتها .

في محاربتنا للشهوة الجنسية ينبغي ان لا نضطرب للافكار بل ان نقاومها ونصلي ونطردها دائماً فيجب ان لا نزدوج في حربنا فنتظاهر بالمقاومة كأن نتداول مع الأفكار الرديئة بحجة طردها (وذلك دون وعي دائم من قبلنا) .. ينبغي بالعكس الارتماء الى فكر آخر نقي طاهر مثة بالمثة ، او اللجوء الى فكرة توبة قوية : ان الآباء يوصوننا ، اذا ما داهمتنا التجربة ، بأن نسجد الى الارض متوسلين « يا يسوع بن الله ارحمني أنا الخاطىء .. » ان السلام سيأتينا فيما بعد متوقفاً على مدى عزمنا وثباتنا وانتباهنا ووضوح جهادنا .. ثم عندما نكون في راحة من التجارب يجب ان نشكر الله ونضاعف الصلاة مداومين على النضال ومحترسين من السلام الغاش .

٣ — البخل

ان هوى البخل والتملك والتعلق بالمال والمقتنيات هوى **يلاحقنا بألف شكل وحيلة** والى ما لانهاية . اننا قد نتعلق ونتمسك بأصغر الاشياء وأتفهها فتحل محل كل ما تركناه وزهدنا به في العالم! فيجب ان لا نرغب في اقتناء أي شيء بصورة دائمة . نعم ينبغي ان يكون لنا ما يلزم للعيش كالثياب وغيرها ولكننا نستعملها فقط دون ان نعتبرها ملكاً لنا . **اذ يجب ان لا نملك شيئاً اطلاقاً** . الا انه يجب **الاحتراس**

من التطرف في هذا المضمار والتعري من الامور الضرورية بخديعة شيطان الهمة الزائدة . الموقف المناسب هو ان اقبل ببساطة باقتناء الاشياء اللازمة حقاً لحياتي وعملي ومطالعتي الخ .. ولكن دون ان أعدّها لي.. — هذا وان الطاعة لطريقة الدير ولأوامر الرؤساء تجعلنا في مأمن من هوى التملك ..

٤ — الغضب

الغضب هوى يستولي بصورة خاصة على الرهبان العائشين حياة مشتركة . ذلك لأن وجود «الآخر» أمامي حاجز بالنسبة لي. فالخطيئة تريد ذاتها وحدها، لا تريد ان تصادف حاجزاً مقابلها. ان وجود الآخر بآرائه وتصرفاته الخ ... ينتصب في طريقي فيحصل الاصطدام ويثار الغضب . اننا مرغمون ان نحسب حساب الآخر ، نحن لا نقبله بواقعه ، نريد ان نلزمه ، ان نفرض عليه وجهة نظرنا فرضاً وبالعنف . انه الغضب . ان الغضب هذا « في بيته » في الدير المشترك المعيشة. انه يحوم على الدوام في شركة الاخوة لأنه من الصعب التوفيق بين ارادات عديدة مختلفة . بل المتوحد نفسه معرض له . ذلك لان الغضب ينتج عن رفض داخلي ، عن موقف رفض، عن النظر في اتجاه واحد هو اتجاهي انا وحسب. ولذلك يحارب الغضب بالاتضاع والانفتاح، بعدم الانزواء على الذات يجب ان أقول لنفسي اني لست معصوماً عن الخطأ... وليس رأي هو المهم.. واذا تغلب رأي اخي على رأيي فأحمد الله على ان أخي أدرك الامور بشكل أفضل مني مع اقراري بأني كنت مخطئاً. ثم اذا سلكنا في عدم امتلاك اي شيء مادي او معنوي (كآرائنا واعتقاداتنا ..) فلا يكون للغضب حينذاك أية مادة يغتذي بها . ان ما يأتي مني لا يجب ابداً ان يفصلني عن أخي . ان الغضب يضر في الشركة أكثر من أي شيء آخر . فقد يفصل ويفرق بين الاخوة .

يروى عن راهبين ساترين في البرية ان احدهما سأل الآخر « كيف يغضب الناس » ؟ فأجابه « بسبب الأملاك » . فاستفسر الآخر: كيف ذلك ؟ فأراد ان يعطيه مثلاً فتناول حجراً في الطريق وأعطاه رفيقه قائلاً : « هذا الحجر هو لك » اجاب نعم . قال : «كلا ليس هو لك بل هو لي اعطني اياه » . فأجاب الآخر فوراً « خذه ... » فلم يحصل الغضب !..

٥ — الحزن

« الحزن » او الضجر والملل والقرف ، « شيطان ملحّ كَلِب » (rageur) ، على حد قول افكريوس . يبدأ أولاً على صعيد الشركة بحزن يبعدنا عن الاخوة : فأقول في نفسي « انهم لا يفهمونني » وانزوي على ذاتي... ثم ينتقل الى حزن اثناء الصلوات والخدمات الليتورجية والقداس الالهي فنؤديها جوفاء خالية من أي معنى وبنوع من القرف.. أنها لا تحرك شيئاً فيّ.. ولا أشتاق للمناولة. أفقد حبي للمناولة وللصلاة الشخصية ... ثم في المرحلة الاخيرة نظن اننا هالكون نهائياً .. وان السماء قد انغلقت دوننا بلا أمل ، فنيأس.. بل نقبل بأن نكون هالكين ولا يهمنا ذلك ... ويملأنا شعور بالفراغ والعدم .. وأحياناً الشيطان نفسه يعذبنا .. وأحياناً أخرى ينتهي هذا كله بالانتحار.. (في حالات التوحد خاصة «في فظاعة العزلة اللامحدودة».. كقول القديس كاسيانوس. ان هوى الحزن يجعل الراهب أحياناً يختبر هذه العزلة الرهيبة في قلايته في الدير المشترك على منوال المتوحد . ولكن الأمر يبقى أسهل احتمالاً في شركة الاخوة) .

اما لمحاربة شيطان الحزن فيجب الاعتراف منذ البادرة الاولى... كما يحسن تغيير نوع العمل الذي نقوم به .. وفي الحالات الاخيرة يوصي

القديس اسحق السرياني بأن « ناموا » .. ناموا في قلاياتكم غير آبهين لشيء . ناموا ولا تتركوا الدير مطلقاً .. بانتظار عبور هذه الحالة .

٦ – الكسل

الكسل شيطان **خطير حقاً ، دقيق غير ظاهر** . يتأتى من ان حياتنا المادية مؤمنة فأعيش في الدير وكأني في فندق – ويا لقباحة هذا الامر !.. – فيتسرب الكسل في كل مظاهره ... وينتج عنه زوال خوف الله شيئاً فشيئاً وزوال ذكر الله وفقدان الشوق الى الكمال الروحي والتقدم ، وروح البطالة .. ويتم الاشتراك في الخدم الليتورجية بشكل روتيني .. ويتولد من الكسل هوى الشهوة والزنى لفراغ الذهن من شيء آخر ، لان الشيطان « يشغل الأيادي البطالة » كما يقول القديس ايرونيموس . فبدلاً من ذكر الله نذكر نجاساتنا .. (وبالعكس عندما نفكر بالله تتلاشى كل الاهـواء والافكار النجسة) . وينتهي الكسل بالضجر والقرف من الحياة الرهبانية واخيراً بالهرب والرجوع الى العالم: لقد أصبحت الحياة في الدير اضاعة للوقت !.

من أجل محاربة الكسل يجب **تنظيم حياة الدير بصورة لا يترك فيها اي وقت للبطالة** ، خاصة للمبتدئين (اعمل كذا ، اقرأ كـذا .. ويحسن ان يمسك دفتراً خـاصاً لكتابة الآيات والافكار التي تعجبه في مطالعته مع التعليق عليها ..) .

٧ – العُجب

العجب او المجد الباطل ، من جهة ، والكبرياء من جهـة أخرى يتجانسان ولكن بينهما فرقاً. فالعجب هو أن **ننسب لذواتنا ولفضلنا**

خلافاً للواقع قسطاً كبيراً مما نحققه في حياتنا مادياً او روحياً . اننا نأخذ لأنفسنا الفضل الذي ليس لنا بل لله. فان كنت مثلاً أصلي حسناً، أو كنت في سلام ، يستولي عليّ العجب !. وأظن اني قد وصلت !هذا هو المجد « **الباطل** » حقاً لأنه غير مبني على حقيقة ويتبنى ما ليس له . (كمن يزين نفسه بريش غيره) .

ان هذا العجب يكاد يكون **لا بد منه في البدء** وذلك بسبب جهلنا للطريق الروحية وبسبب الانشراح الطبيعي الذي يرافق كل نجـاح . أننا ننجح في شيء فننشرح ونظن أننا علة النجاح.. **ولكن الحياة ستعلمنا ان ليس لنا شيء** مما هو لدينا بل أعطينا كل شيء اطلاقاً. اننا في الحقيقة فقراء عاجزون مساكين .. كل شيء من نعمة الله.. انما لنا الجهد والتبني والاقتبال .

لا شك ان للعجب بناتاً وذيولاً .. من بناته **الحسد** خاصة ، فالمبتلى بداء العجب كثيراً ما يكون حسوداً دون ان يدري، اذ يظن ايضاً ان للآخر شيئاً له من نفسه فيحسده كأنه قد سرقه ..

أما الدواء الذي يشفي من العجب والمجد الباطل والحسد .. فهـو **التواضع** ..

٨ – الكبرياء

الكبرياء أخطر من العجب بكثير ، وفيه درجات. **جوهر الكبرياء ان اعد نفسي مركزاً ومحوراً لذاتي ولكوني**، في حين ان مركز حياتنا ووجودنا يجب ان يكون الله . في الدرجة الاولى للكبرياء **لا نحتمل الآخر** ، لا نقبل الآخر كآخر ، لا رأيه ولا حضوره ولا وجوده ..

ثم نتكلم عن أنفسنا كثيراً ونفرض رأينا فرضاً.. ثم نسعى للمسؤوليات والكرامات .. أو نرفض الكرامات بدافع اتضاع غاش (وهذه أخطر الحالات) .. ان الكبرياء تخفي عنا الله تماماً ، تملأنا بذواتنا (بعدمنا) وتقطعنا عن الطاعة وعن الاب الروحي وعن الدير ، وفي النهاية عن الكنيسة والخلاص. الكبرياء أقل خطراً للراهب في ديره منها للمتوحد.

ان محاربة الكبرياء تتم بانفتاحنا للاب الروحي وخضوعنا له والأتضاع في العمل ، والبقاء مع اخوتنا الذين يفاتحوننا بأخطائنا والمحافظة على مكاننا ورتبتنا دون تجاوزهما ، والأمانة للطريقة ..

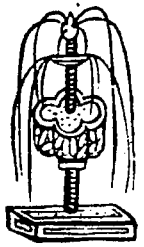

الفصل الخامس

التحرر من الاهواء : مبادىء السير

لقد رأينا في الفصلين السابقين ما هي الاهواء واستعرضناها واحداً فواحداً. والآن نبدأ بالمرحلة الاولى في طريقنا الى الله وهي التحرر من الاهواء .

لقد عالج الآباء موضوع التحرر من الاهواء بحد كلي اذ انهم اعتبروا الاهواء فينا بمثابة حضور كياني للشر . الاهواء قائمة في صميم طبيعتنا تحمل معها العبودية والموت . ولذا يجب ان ننطلق في بحثنا اليوم من الشعور بأن القضية جدية كل الجد .

ولكن حضور الاهواء فينا هو في كيان قد سبق وتحرر بموت المسيح وقيامته ، أعني في كيان قادر على ان يسلك بالمسيح طريق التحرر والكمال ، تلك الطريق ذات المراحل الثلاث[1] والتي نبدأ اليوم بالمرحلة الأولى منها .

مبادىء السير

قبل الإقلاع علينا أولاً ، كما هو الحال في سلوك أي طريق بشري ، الرجوع الى مبدأ السير. بل يتوجب علينا في كل وقت الرجوع الى مبدأ

١ ـ التحرر من الاهواء ـ ثم الاستنارة ـ ثم الاتحاد بالله .

السير وجوهره ، وعدم نسيانه ، وإلا فالكثير مما نعمله ونمارسه في طريقنا يكون غامض المعنى،غير واضح.يجب ان نفهم الحقائق الاساسية الواجب تطبيقها كل حين في سيرنا . انها التالية :

ا – لا ننس ان الجهاد النسكي ضد الاهواء هو جهاد مشترك (synergétique) **بين الحرية البشرية ونعمة الله**،مع العلم بأن النصيب الاول هو لله « الذي يعمل فينا الارادة والعمل »،ولكن دون احتقاره لحرية الانسان وإلا أنكر ذاته في خليقته . سر الله يبقى سر محبة ، فهو سيد لا من الخارج ، كأسياد العالم ، بل من الداخل : الله يجلس لا على كرسي الاستبداد بل على الكرسي الذي في أعماق القلب ،ويقودنا من هناك ، من الداخل ، بالمحبة ،ماحياً ذاته احياناً لكي تزدهر نفسنا...)

ب – لنحترس من فراغ الصبر تشوقاً للنتائج : ان جهادنا لا يثمر بحد ذاته بل تحالفنا مع الله (تحالف حريتنا مع الله) هو الذي يثمر . القضية هي ان نقف بجانب الله ضد أنفسنا من أجل قتل الموت الذي فينا . على هذا المنوال،من خلال ارادتنا المنفتحة لنعمة الله،يعمل الله معنا ويقرر النتائج ووقت النتائج . فعلينا نحن ان لا ننغلق عن الله بممارستنا للاهواء او باهمالنا او بكسلنا .

جـ – لنعرف ان الجهاد ضد الأهواء يتضمن اعمالا محسوسة ، جسدية: نحن كائنات من لحم ودم فلا يكفي الجهاد فكراً مجرداً،ايماناً مجرداً . ينبغي ان يقترن ذلك بافعال – إماتات ، أصوام ، أسهار ، سجدات ، دموع ... – تفعلها النفس والجسد معاً . هذه الاعمال المحسوسة من شأنها ان تفتح قناة للنعمة ، ان تمهد طريقاً للوداعة عوض الغضب ، وللتواضع عوض الكبرياء (السجدات مثلاً تتبعها دموع الانسحاق فتفتح فينا طريق الاتضاع) .. ليس الجهاد النسكي بالتالي

قضية حسن نية وحسن ارادة داخلية وحسب ، بل ممارسات متواصلة: يجب تجسيد الامر .

د – لنحترس ايضاً من العكس : ليس النسك اعمالا فقط ، نسكاً جسدياً وحسب : انما الجهاد الجسدي طريق فقط (« قسطر »)لشيء آخر ، لكمالنا التام . لكي يكون النسك كاملاً يجب ان يجتاح الانسان كله (الانسان الخارجي أول الأمر) وذلك بدخوله فيه ، في مخيلته وعقله . ليس الانسان جسداً اولاً بل هو جسد وروح معاً ، في آن واحد ، يؤلفان وحدة . فمن خلال الجسد ونسك الجسد هناك أيضاً نسك المخيلة والتصور ، الذي يتجاوب مع الجسد ويرافقه متفاعلاً معه في تأثير متبادل ، ونسك العقل والذهن والذكاء ، نسك الوعي والتيقظ[1] ..

هـ – لنعرف ان هذه المرحلة النسكية الجهادية هي مرحلة كل حياتنا ، بل هي حياتنا كلها : كل زوايا حياتنا يجب ان تتصل بارادة التطهر وتصميم التطهر وواجب الكمال . يجب ان لا تكون فينا زوايا « حيادية » جانبية ، وان لا تكون هناك أوقات معينة للنسك لان كل الأوقات أوقات جهاد ويقظة . كل حياتنا داخلة ومشمولة في هذا

---

١ – نلفت النظر الى وجوب عدم فهم مثل هذا التحديد والتصنيف بشكل صلب أو محتم لان الحياة وحدة عضوية لا تحتمل التصنيف الزائد والتمييزات الضيقة . التقسيم جائز وضروري ولكن يجب ان يفسر على ضوء الواقع الاجمالي لان مراحل طريقنا المختلفة تتداخل فيما بينها . بل قد يعطينا الله نعماً هائلة منذ مرحلة النسك والتطهير الاولى ، مع استمرارنا في النسك . هذا سر محبة الله لنا من جهة ، مع حريتنا نحن التي يجب ان تفعل من جهة أخرى .. (أنظر سفر نشيد الانشاد وكيف تتوالى فيه ظهورات الله للحبيبة وغياباته عنها ..) .

الاهتمام : ارضاء الله أم لا . كل شيء يجب ان يكون لمجد الله، جارياً في حضوره تعالى ، من أجل تقدمنا الداخلي ، في كل مكان وزمان . . يجب ان لا ننتظر نجاحاً باهراً ، بل ان لا نتعطش ابداً الى النجاح كنجاح . هناك ولا شك علامات ودلائل للنجاح، ولكن بالرغم من ظهورها ومن يقيننا بالنجاح يجب عدم الرغبة فيه من باب التلذذ والافتخار : هو لله ، « مما لك نقدمه لك » . . انه دخولنا في سر الاله الحي الذي لا نهايةله: فالأفضل ان نتابع طريقنا متعمقين في الصبر والصمت والاتضاع . .

الفصل السادس

التحرر من الاهواء : الايمان والتوبة

بعد مبادىء السير الخطوات الاولى في الطريق؛هذه ايضاً شروط أولية وفي الوقت نفسه تستمر حتى النهاية،شروط أساسية ترافق مبادىء مسيرنا على الدوام اذ لا بد منها في بقية خطوات طريق الكمال .

١ – الايمان

لا نستغربن ذكر الايمان هنا كخطوة أولى ، اذ **كثيراً ما نظن ان الايمان امر حاصل مفروغ منه ، وهذا مع الاسف غير صحيح .** في الحقيقة ليس سوى الايمان يدخلنا ويرافقنا ويدفعنا حتى النهاية في طريق الكمال الى ان يصير محبة ، أي حين يجعلنا حقاً نسير في طريق المحبة التي هي الكمال الاخير . « البار بالايمان يحيا » . . الايمان هو الاساس ، هو اذا جاز القول « مكان » طريقنا ، المكان الشامل ، هو سندنا الأكثر متانة والأكثر نوراً . . .

لقد كتب نيسيتاس ستيتاتوس،تلميذ القديس سمعان اللاهوتي الجديد، يقول : « **أني أعتقد ان لا شيء ينمي روحنا بقوة وسرعة اكثر من الايمان وحده** : ولا أقصد بالايمان فقط الايمان بوجود الله ، بل الايمان القائم في الداخل ذلك الايمان الذي يجعل النفس قادرة ان تؤمن وتشهد

بامكان اكتسابها في هذا الدهر حالة القديسين المغبوطة وانعدام الهوى فيهم ، ومن ثم تسعى حثيثاً نحو علو قداستهم لترث معهم ملكوت الله ، حتى اذا تشددت بالايمان تاقت بحرارة الى حفظ الوصايا غير مرتابة بشيء بل سالكة جهاد القديسين ومسرعة في البلوغ الى كمالهم » . (كتاب « مائة فصل .. ») .

كيف يفعل الايمان في تطهيرنا ؟ : هناك فرق بين الايمان الشكلي الذي لا فعل له في حياتنا ، والايمان الحي الذي يحوّلنا ويغيرنا . في الايمان الحقيقي يكون المرء خاضعاً لايمانه لا الايمان خاضعاً للمرء (يتكيف باهوائه وحالاته النفسية وأفكاره ..) . وعندئذ ، عند خضوعنا للايمان ، يفعل الايمان في تطهيرنا تدريجياً . نحن بالايمان نتغير ونزيد اذ تكون فينا حضرة أخرى غيرنا نحن ، حضرة تأتي من الله ، فتجعلنا نزدهر ونتسع وننمو .. بالايمان نتجاوز أنفسنا ونكبر .

يجب بالتالي ان ننتبه الى ايماننا ولا نُظهر نحوه استهتاراً وخفة : انه علامة سكنى الله فينا. يجب ان أنتبه الى ايماني وان اكتشفه اكتشافاً جديداً كل يوم. ان تلاوتي لدستور الايمان مثلاً تفتح أمامي آفاق الحقائق الالهية واستطيع بها كل يوم اكتشاف ايماني من جديد .

ان الايمان يؤثر على وعي المرء وارادته : فالاهواء تستعبد المرء ، ومن يخضع لها يصبح بصورة ما غير خاضع للعقل ، حيواناً لا عقلانياً (irrationnel) . له عقل ولكنه يجعله في خدمة أهوائه اذ تستعبد الاهواء العقل فيعمل ويفكر في خدمتها : عقلي يبرر أهوائي .. (مثالاً على ذلك أدب أندره جيد وفلسفة جان بول سارتر) . فيصبح الانسان أدنى من الحيوان لأن الحيوان في هذا المضمار بريء وليس الانسان

ببريء[1] . أما الايمان فهو بالعكس يثبت العقل . ويفتح أمامه آفاقاً أخرى . ويلقي فيه بذار زرع جديد نقاوم بواسطته تجربة اشباع الاهواء واخضاع كل شيء لها . الايمان « يرقّي » الارادة ويجعلها نبيلة .

بالايمان ايضاً اعرف اني لست وحدي في حربي : انا لست مغلوباً الى الأبد ، اني اقتدي بالقديسين .. الايمان يعيد الى الانسان ثقته بغاية نضاله وأفعاله ويقوي رجاءه بالله . والله يعضده . اننا نختبر ذلك ، خاصة في بداية الطريق .

فالايمان اذاً يعطينا نظرة جديدة الى العالم : بالوعي والارادة ، بالفكر والعمل .. — هذه هي الخطوة الاولى .

● **ويرافق الايمان ذكر الله** : الاهواء بالنتيجة نسيان الله ، نسيان كلي كما سبق القول : « كل شيء مباح لي ... » اما الايمان فيأتي الينا ذكر الله . يكون أول الأمر ضعيفاً ، بعيداً ، شكلياً .. ولكنه بالممارسة يتقوى حتى يصير ذكراً دائماً . ان ذكر الله الدائم (anamnèse) هو عند الآباء مقياس الايمان بالله وينبوع له في آن واحد : لقد قال الرسل أنفسهم للرب « زد ايماننا » .. وقد وضع الآباء على الرهبان بصورة خاصة ان يذكروا دوماً اسم الرب الذي قال « بدوني لا تقدرون ان تفعلوا شيئاً » : ذلك لان ذكر الرب يجلب فينا حضوره . وهذا معنى صلاة يسوع[2] .. اننا بواسطتها نلتصق بالرب في قلبنا حيث يملك الله عوض الخطيئة . فننال معونة في التجارب ونكتسب عادة جديدة

---

١ - تقول احدى قطع صلوات الكنيسة في كتاب التريودي « اني قتلت عقلي بالنهضات البهيمية » .

٢ - « يا يسوع بن الله ارحمني انا الخاطىء » تقال من القلب على الدوام (أنظر كتاب « سائح روسي على دروب الرب » تعريب أ. جرجي ١٩٦٤ .

(réflexe) . اعني بدل ان نستسلم للتجربة نقاومها بل نمجد الله في شكر وفرح . (حينئذ يقول السلمي، حينئذ عند مشاهدتي امرأة جميلة لا أفكر بالخطيئة بل تلقائياً أمجد الله) .

٢ – التوبـــة

الخطوة الثانية بعد الايمان هي التوبة . والمقصود بالتوبة ، كما نعلم ، **تغيير حالة** المرء (Meta-noia ، أبعد من الذهن) ، تغيير « قلبه » وتحويله من الاهواء الى الله. وكمال الراهب ان يكون كائن التوبة الدائمة.

والخطوة الاولى في التوبة **رجوع النفس الى ذاتها** . ذلك لان الاهواء تخرج النفس الى خارج ذاتها، الى العالم عوض الحياة، الى المعرفة، شجرة معرفة الخير والشر التي أكل منها آدم قبل أكـــله من شجرة الحياة . ان القديس نيكيفوروس يبدأ تعليماته للمبتدئين بقوله : « قبل كل شيء يا اخوتي ارجعوا الى أنفسكم .. » .

أما هذا الرجوع الى الذات **فلن تكون له نهاية** . هو التقدم ، ولا نهاية لهذا التقدم في الذات . ان القديس اسحق السرياني يقول : «التوبة تليق دائماً وتليق بالجميع، بالخاطىء وبالبار، هي كمال المسيحي الاساسي، فلا حد للكمال وليس كمال من هم أكثر كمالاً الا نقصاً . ولذلك لا تنتهي التوبة بالموت ، لا من حيث الزمن ولا من حيث الفعل » .

ذلك لان القديسين يميزون بين حالة التوبة[1] وبين سر التوبة، السر الكنسي الذي ننال به الغفران . فالحالة الداخلية لا تكفي بل يجب من

١ – وهي حالة داخلية ، أمام الخليقة وأمام الله، «خطئت أمام السماء وأمامك»، وبها نؤخذ اكثر فأكثر الى الله ، الى ما لانهاية ، « امتد الى الامام وانسى ما وراء..» ولذلك لا نهاية للتوبة أبداً .

وقت لآخر ان أتقدم الى أحد ، أمام الله ، الى آخر غيري يمثل الله واعترف بواسطته لله لأتثبت من توبتي وأخرج خطاياي. اني أخجل في الاعتراف وهذا نافع لي (سر تجاوز الذات transcendance) .

ويقول الآباء ان **التوبة اسمى الفضائل** . انها تجديد دائم للانسان ، معمودية جديدة . دموع التوبة علامة لحضور الروح القدس . يقول يوحنا السلمي : « الدموع أثمن من ماء المعمودية لانها انما تأتي بوعي كامل وتجدد النفس » . ويقول اسحق السرياني : « من يعرف خطاياه هو أعظم ممن يقيم الموتى » .

وهي حالة داخلية ، أمام الخليقة وأمام الله « خطئت أمام السماء وأمامك » ، بها نجلب أكثر فأكثر الى الله ، الى ما لا نهاية ، « أمتد الى الامام وأنسى ما وراء .. » ولذلك لا نهاية للتوبة أبداً .

قلنا ان التوبة لا نهاية لها فهي **طريق ووسيلة الى الكمال** ، تدفعنا الى الامام ، تمنعنا من التوقف ، كما تمنع عنا اليأس. ان القديس سيصوي الكبير ، بعد حياة طويلة حافلة بالنسك والتوبة ، قال وهو على فراش الموت : « لا أعلم بعد هل بدأت بالتوبة ؟ » . فالتوبة تنافي الركود والتحجر ، تقول فيّ « لم أعمل بعد كل شيء ، التقدم مستطاع ايضاً ، وهو بنعمة الله لا حد له » .

والتوبة تقتل فينا بذور الاهواء . تسحق على الدوام لب الاهواء الداخلي . تلاشي الانانية المركزية فينا ، مـــانعة عنا « اللوسيفرية » المداهمة : التوبة « ارتجـاف النفس أمام أبواب الفردوس » (اسحق السرياني) .

● **وترافق التوبة الدموع** : الدموع موهبة وسر ، وقد علق الآباء

ولادتها الجديدة . انها علامة لا تخطىء تدل على عمق تجديد النفس ، على وصولها الى أعمق طبقة فيها .

الدموع تظهر بعد « نخس » القلب بالندامة (componction) . القلب القاسي المنغلق ، الرافض ، يجب ان « يختن » . وختان القلب رمز يحمل حقيقة بكل معنى هذه الكلمة : فالقلب غير النادم « يتشيأ » (se matérialise) ويتحجر . مركز النفس — او قمتها الرفيعة (la fine pointe de l'âme) ، حيث تنزل نعمة الله — يتقسى ، فتأتي التوبة وتحفر ، وتجتاز كل طبقات النفس الخارجية حتى تصل الى القلب و « تنخسه » ، فيشعر بالوجع والألم لحقيقة الجرح : « أجرح نفوسنا بشوقك (صلاة الساعة السادسة لباسيليوس الكبير) . ثم ان القلب كنز النعمة ومستودعها : « حيث كنزك هناك قلبك أيضاً » . وعندما يتحجر القلب بالأهواء تبقى النعمة موجودة فيه ولكن غير فاعلة ، ولكن عندما تأتي التوبة « ينخس القلب ويتفجر منه ماء النعمة المحيي[1] ويغمر النفس ، ويخرج متسكباً بشكل دموع . ان ظهور هذا الماء سر مرتبط بتكوين الانسان الداخلي الروحي ... وعندئذ لا تنتهي الدموع ... وهي ليست دموع حزن بل دموع سلام وفرح ، دموع نيرة وبدون هوى . « يجب البكاء بالذهن (او بالروح) لا بانفعال الهوى » (القديس نيلوس) .

ولكن قبل هذه المرحلة الاخيرة ترافق التوبة دموع اخرى هي دموع خجل بسبب الخطيئة ، او دموع أسف وندامة ، دموع عاطفة مقدسة تأتينا مع لمس النعمة وتعلن عنها . فيجب ان نحترم كثيراً

١ ـ « من يشرب منه لا يموت الى الأبد » .

لحظات الدموع هذه المباركة الآتية من الله ، التي هي نعمة منه . بل يقول السلمي « النفس غير المحركة بالتوبة غريبة عن النعمة » وان « عدم الاحساس موت للنفس أفظع واخطر من موت الجسد »[1] . ويقول ايضاً ان موهبة الدموع علامة أكيدة على ان القلب قد ذاب بحب الله . وايضاً اننا يسندان لا من أجل العجائب التي لم نصنعها او الرؤى التي لم نرها او اللاهوت الذي لم نتكلم به ، . بل من أجل الدموع التي لم نذرفها على خطايانا . هذا وان الدموع ولا شك لبداية فرح لا حد له : « طوبى للباكين الآن فانهم سيفرحون » . ويقول يوحنا الدمشقي ان التوبة انما هي عودة الطبيعة البشرية الى أصلها بالجهد والألم .

ويحذرنا السلمي ايضاً منبهاً ايانا الى ضرورة التمييز بين الدموع : فهناك دموع غضب ودموع شهوة تأتي من الاهواء . ثم هناك دموع طبيعية ليس فيها هوى او خطأ . وأخيراً هناك الدموع الروحية التي نتكلم عنها . هذا ويجب عدم الخجل من سكب الدموع أثناء الصلاة ، فالتفتيش عن الله ينبغي ان ترافقه دموع دائماً (لنذكر دموع بسكال والتماسه الله بأنين) . ويجوز الاستعانة بالدموع الطبيعية العاطفية للوصول الى الدموع الروحية ، مع الاحتراس من عدم الخلط بينها والظن بأن الاولى نعمة روحية خاصة من الله وعدم الافتخار بها ، وإلا نقع في روحانية عاطفية رخيصة ونظن اننا أصبحنا من الصوفيين . . على كل حال التمييز صعب وقد تكون الدموع الرخيصة مقدسة أحياناً ، من يدري ؟ ومهما يكن من أمر فيجب عدم الاكتفاء بالتفكير المجرد في الحياة الروحية بل عدم الخوف من اتباع طريق الدموع بالرغم من الاخطار المشار اليها . فالاخطار موجودة على كل حال وقد أشار الآباء اليها لا لكي نحجم عن السير بل لكي نسير دون ان نقع او نضل الطريق .

١ ـ المقالة الثامنة عشرة من كتاب سلم الفضائل التي كان لها الوقع الكبير في نفس سمعان اللاهوتي الجديد فتحول بعدها الى طريق القداسة .

الفصل السابع

التحرر من الاهواء : خوف الله ، والاعتدال

في سياق بحثنا للحياة الروحية الداخلية - أي « حياة القلاية » بعد حياة الشركة - بدأنا بالمرحلة الاولى في طريقنا الى الله وهي التحرر من الاهواء ، ورأينا في الفصل الخامس المبادىء العامة للسير ، ثم باشرنا في الفصل السادس بحث الخطوات الاولى في الطريق (١. الايمان ٢. التوبة) ، ونحن نتابع الآن هذا البحث .

٣ – خوف الله وذكر الموت والدينونة

هذه هي الخطوة الثالثة في طريق التحرر من الاهواء : من الناحية العملية ، وبموجب تقليد الكنيسة الروحي ، على الراهب (وهذا يعني على المسيحي) اقتناء خوف الله خوفاً حياً « وتحقيقه » في حياتـــه ، وكذلك إنماء ذكر الموت والدينونة وتحقيقهما في ذاته ، **كوسيلة للتطهر وكدافع روحي الى الامام و « منخس »** .

ذلك لان الامر المتسلط في الواقع على الانسان هو خوف العالم : لدى كل انسان خوف غريزي من العالم ، ان لنا في العالم هموماً خفية تشغلنا ، أموراً نتعلق بها ونخشى فقدانها فينشأ رباط يربطنا بها ، رباط يقوم بين من يسيطر ومن يستجيب لهذه السيطرة . ويحصل ذلك في أشكال مختلفة : فحياتنا في العالم همّ سواء من الناحية المادية الاقتصادية او المعنوية او الاجتماعية . وهذا الهمّ المادي والمعنوي والاجتماعي ، المبني

على ضرورة تأمين بعض الاشياء ، وبعض الأوضاع ... والتمسك بها ، والسعي لتوفيرها ، والخوف من ضياعها ... ، هذا الهم العام الخفي الحقيقي قد يأخذ كل أوقاتنا وكل أيام حياتنا . انـــه يوغلنا في حياة العالم[1] ، يذهب باهتمامنا وبنا دائماً الى الغد ، الى المستقبل . الهم يُبعد يجلب المستقبل الى الحاضر فيطغي المستقبل على الحاضر ، ونقع نحن في نوع من استعباد . يصبح المستقبل هاجساً يحتل فكرنا ويحصره في بعض الاهتمامات . هذا الهم يغلق علينا داخل الزمن كأنه محدود ، يغلق باب الأبدية عن تفكيرنا وحياتنا . فيصبح الانسان كائناً أرضياً وحسب قد أفرغ من كيانه الانساني الاصلي . هذا ما يعبر عنه الفيلسوف الالماني هايدكر بعبارة « الانسان اللاشخصي » Das mann : neutre بدلاً من Der mann . ولذا نخشى عوادي الدهر وأحزانه ، ونخشى الموت وترك العالم ، ونتمسك بالعالم .

أما الراهب الذي يترك العالم فقد تخلى عن خوف العالم . انه **يختبر حماقة الخوف من العالم وبطلانه** (inanité) **ويكتشف الخوف الحقيقي** ، لانه اذ يقف أمام علة العالم ومصدره يخاف لا من فقدانه بل من فقدان الحياة نفسها : « لا تخافوا ممن يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون ان يقتلوها . بل خافوا بالحري من الذي يقدر ان يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم » (متى ١٠ : ٢٨) . هذا خوف عميق ، خوف الله ، وهو يختلف عن خوف العالم : « احزنوا لكن لا كما يحزن باقي الناس ... » (١ تسا ٤ : ١٣) ، خافوا ان تفقدوا الله ان تنفصلوا عنه ، وذلـك بالخطيئة ...

ويؤثر خوف الله فينا بصورة سلبية بادىء الأمر ، فعندما نخاف

---

١ - نحن في العالم ولكن ليس من العالم (انظر يو ١٧ : ١١ و ١٤) .

الله خوفاً عميقاً كهذا نجحد الخطيئة ونرفضها، نضادها ونبعدها ونلاشيها فينا . « بدء الحكمة مخافة الله » . خوف الله يعيدنا الى الهم الحقيقي : الى ابتغاء رضى الله وابقاء الصلة معه . انه أول الأمر خوف بكل معنى الكلمة ، خوف من القصاص . « الويل لكم أيها الكتبة – الويل لكم أيها الاغنياء – أيها الشباعى » (لو ٦ : ٢٤و٢٥) « هناك البكاء وصرير الاسنان » (لو ١٣ : ٢٨) « حيث دودهم لا ينام » (مر ٩ : ٤٤) . خوف من القصاص اذاً، ولكنه ليس قصاص اله شرير بل اله «حاضر»: « مخافة الله طاهرة وحاضرة الى أبد الآبدين » (مزمور ١٨ : ٩) . ولذا فالخوف امام الله يبقى ، ولكنه يتحول . لقد ميز القديس مكسيموس المعترف خوف المبتدئين fobos ، الذي هو خوف منقذ محرر، عن الخوف الآخر ، frictos (Mysterium tremendum, awe) ، الذي هو رعدة مقدسة لا تنافي المحبة والكمال ولا تعارضها . في هذا الخوف الاخير يدرك الانسان البعد اللامتناهي بين الله وبينه ولكنه يدركه بعداً مردوماً بالمحبة . الا انه يبقى قائماً ، بعداً كيانياً . يبقى الانسان لجة مخلوقة تجاه لجة غير مخلوقة « لجة تنادي لجة » . (مز٤٢ : ٧) . ان العدم الذي في الخليقة يرتفع الى الله ، ولذلك يتأمل الانسان الله برعب وارتعاد (épouvante, effroi) . لا أحد طاهر أمام الله. « حتى الملائكة أمامك غير طاهرين » (أيوب ٤ : ١٨) . انه خوف خشية وورع (révérence) يعمل فينا أولاً بصورة سلبية ثم بصورة روحية اذ ينمي فينا محبة الجلال الالهي .

اما ذكر الموت في هذا المضمار فيكسبنا عادة حسنة ومقدسة تجعلنا نعتبر العالم فانياً وننظر اليه بعتق منه . وشعورنا بحضور الله (الذي مات ايضاً) يكمل فكرة الموت فتصير مصدر سعادة وفرح ورجاء .

لذكر الموت في بدء طريقنا قيمة وفاعلية غريبة في ارتقاء النفس:

نتبين عندما، نتبين ان الموت انما هو حقيقة بل الحقيقة الوحيدة الاكيدة التي لا مفر منها ، فيمتد ظل الموت منذ الآن على العالم ، على كل ما ألمسه : قلمي .. ثيابي .. جسدي.. وحينما يداخلنا حس الموت على هذه الصورة لا نعود نتوهم ان كل شيء خالد أبدي، فيعود كل شيء الى قيمته التي هي لا شيء. ان الموت منظم عجيب لقيمة الاشياء ومانع للاوهام... فيجدر بنا التأمل به .

الا ان الموت من جهة ثانية غير موجود بالنسبة لنا . حضوره حضور « غيابي » اذ لو كان حاضراً الآن فيّ فعلاً لما كان له وجود عندي . الموت موجود بالنسبة لي اثناء عدم حضوره هنا. انه موجود بذكره ، بقيمته ومغزاه المقدس .

ولكن الناس يريدون ان ينزعوا عن الموت معناه الروحي وطابعه المقدس (désacralisent) . كل محاولات الناس في العالم (كالموسيقى الحديثة ، واللجوء الى السكر ، وحب السرعة الخ ..) ترمي الى نسيان الموت : لماذا هذا الضيف المزعج في هذه الحياة الجميلة[1] . الراهب بالعكس يعرف الموت ويتبناه ويريد ان يدخله في كيانه il l'intègre dans) (son existence اذ هو كذلك : انه لا يخاف لان يسوع قد غلب الموت . لا يعود الموت يملك ، بل لا وجود للموت منذ يسوع . يسوع المسيح قتل الموت فاصبح انتقالا وسبب فرح . هو فرح لقاء الله . وفي الوقت نفسه سبب رعدة : كيف أقف أمام محكمة الله ! ان ذكر الموت والدينونة يقاوم جاذبية الاهواء ويبطلها : « الله لا يقبل في

١ – في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان يحرصون على اقامة دفن الموتى دون لفت الناس اليه : دون شكل تابوت ، وبعجلة زائدة ، بل يميلون الى حرق الجثة .. عدا عزف الموسيقى في المقابر ..

متكونة الا الاهه » . ذكر الموت والدينونة يفعل كرادع و كحافز في آن واحد . يمنع الاهواء ويدفع الى لقاء الله .

٤ – التمييز او الاعتدال

انها الخطوة الرابعة والمقصود هنا فضيلة التمييز التي بها نميز الارواح والفضائل ونعرف أية فضيلة يجب تطبيقها اذا تعارضت الفضائل فيما بينها. مثلاً: أصلي فيقرع الباب فهل يجب ان أرد الزائر لاني أصلي؟..

تؤلف الفضائل كلاً متماسكاً اذ هي مرتبطة فيما بينها، كما ان الرذائل مرتبطة فيما بينها . ومخالفة أحد بنود الناموس مهما صغر هي مخالفة الناموس كله . **فالتمييز وسيلة كال يكشف لنا طريقة تتميم الفضائل في الصواب والحق** ، يعطيها قوتها ومقياسها الصحيح ، ميزانها . لان الفضيلة هي دائماً مجسدة في واقع معين وليست فكرية مجردة ، فيجب تجسيدها بصورة تؤدي أقصى مفعول بأقل مجهود (optimun) ، وعدم التطرف لا بزيادة ولا بنقصان. يجب تكييفها حسب الظروف والضرورة: فالانبا موسى الحبشي مثلاً كان يخالف صومه من أجل زواره محبة بهم ، والانبا مكاريوس كان اذا قدم له كأس من الخمر يشربه ولكنه مقابل ذلك لا يعود يشرب ماء مدة ثلاثة أيام . في حين ان راهباً آخر وجد في وليمة فطلب خبزاً وماء فقط فقال له أحد الشيوخ الحاضرين : « كان الأفضل لك ان تأكل لحماً في قلايتك ولا تطلب هنا مثل هذا الطلب » .

فضيلة التمييز تكشف لنا الحقيقة . انها الضامن لتطبيق كل الفضائل تطبيقاً صحيحاً وأصيلاً . **فيجب ان لا يتركنا ابداً هم التمييز** في طريق جهادنا الروحي . انه يؤمن لنا سيراً منتظماً ، متواضعاً ، ويحمينا من

الذهاب يميناً ويساراً[1] . **التمييز يقي من التطرف والسقوط** . كم من الرهبان تطرفوا وتفردوا فحققوا بطولات ثم سقطوا سقوطاً مريعاً ... بالتمييز نسلك طريقاً معتدلاً وسطاً ، نصعد مباشرة . انها « الطريق الملوكي » . التمييز للراهب بمنزلة العين والمصباح للجسد : « اذا كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً » (متى ٦ : ٢٣) .

كيف نكتسب فضيلة التمييز : بمحاولة عدم اتباع ارادتنا الخاصة ، لا سيا في البدء بل الرجوع للاب الرئيس والتقيد بالطريقة وبالآخرين : استشارة الاخوة حتى الأصغر سناً (كما يقول القديس بندكتوس في طريقته الحكيمة الشهيرة) ، وعدم التمسك بآرائنا نحن عن الكمال ، وتجنب الهمة الزائدة ، وتجنب الميل الذي فينا لإدانة الآخرين ...

ان التمييز اخ توأم للتواضع فالواحد يجلب الآخر . اذا اعتدلنا باتضاع يتيقظ التواضع ويبدأ فيولد فينا ، ونكتسب رغبة قوية في عدم الاتكال على آرائنا ووسائلنا وتمييزنا . المهم اتباع الطريقة ومحاولة الاتضاع الداخلي : قبول الآخرين ، وتقبل ما يقولون لنا ، وعدم ادانتهم ، ومعاملتهم بالانفتاح والمحبة . حينئذ يأتينا التمييز كنعمة من الله اذا انفتحنا له وليس « كسباً » يكتسب .

---

١ – يروي القديس كاسيانوس انه في احدى سهرات آباء البرية دار الحديث حول اية فضيلة هي الاولى بين الفضائل فصار كل من الآباء الحاضرين يقدم فضيلة على غيرها. فنهم من تكلم عن الصمت ومنهم عن الصوم او عن الفقر ... اما انطونيوس الكبير فبقي صامتاً يسمع فسألوه اخيراً بماذا يحكم وماذا يقول ؟ فأجاب ان كل الفضائل التي ذكرتم جيدة ونافعة ولكن هناك فضيلة تفوقها كلها هي فضيلة التمييز او الافراز لانها تعلمنا كيف نطبق بقية الفضائل . كل الفضائل حسنة ولكن اذا طبقت بافراط تصبح مضرة اما فضيلة التمييز فتنظم سائر الفضائل ولذلك هي الاولى .

الفصل الثامن

التحرر من الاهواء : النسك الجسدي

في طريق الانعتاق من الاهواء التي نتابع بحثها على ضوء الآباء وبعد الخطوات الاولى التي صادفناها في الفصلين السابقين مراحل أخرى نحو الميناء ، ميناء « عدم الهوى » وصفاء القلب apatheia بعد تنقيته من كل عكر . وسنرى الآن كيف تتم مادياً عملية التنقية والتطهير .

الوسيلة الاولى التي يعرضها لنا الآباء والكنيسة في هذا المضمار هي **النسك الجسدي** (صوم، سهر الخ... ascèse) مع العلم بأن ليس من نسك جسدي صرف لان النفس والجسد يؤلفان واحداً ويجب دائماً تصحيح العبارة وتكملتها في ذهننا، ولكننا **نسميه النسك الجسدي لانه يؤكد اولا على التزام الجسد** ، ويحارب الخطيئة بواسطة الجسد ، يحارب الاهواء التي تظهر على سطح الجسد . وهذا الجهاد له تأثير على النفس طبعاً. حياة الراهب تتسم بطابع الحرب وفي هذه الحرب نستعمل الجسد . وللنسك تسميات أخرى فهو التقشف او الاماتة او الضغط (enkratia, contrainte) . فالقديس يوحنا السلمي يقول في وصفه للراهب كناسك محارب : « الراهب ضغط دائم على الطبيعة وسهر مستمر على الذهن » ، أي على كل ما يشمله الذهن من عقل ومخيلة

ومنطق وارادة وملكة اختيار ، لان هذه كلها متداخلة واحدة، وهي نفس واحدة .

وبسبب طابع النضال هذا يتخذ النسك اسم « إماتة » ، **ولكن هذه الاماتة ليست على سبيل القساوة والظلم** ولا هي ميل مرَضي الى تعذيب الذات ، وليست لذة فاسدة في التألم ، ولا هي نوع من احتقار الحياه كما يقول الناس أحياناً . هذه التهم كلها وشاية وافتراء احمق ، والحقيقة ان النسك الجسدي ليس تهديماً، ليس عملاً هداماً ينكر الحياة، ولكنه ينجم عن اكتشاف يسبقه هو اكتشاف الحياة الجديدة ، قيامة المسيح. **لقد اكتشفنا اولا شيئاً افضل ثم تبنينا النسك لا لافناء حياتنا الآنية الحاضرة بل لتكميلها** ، لتقبّل الحياة الجديدة وتمثلها . النسك إذن لا يأتي اولاً بل هو ثانوي في الأهمية وفي الزمن. الايمان يأتي اولاً ثم يأتي النسك فيدل على ظهور حياة جديدة في العالم . انه يعبر فقط ، يحوّل الى أعمال حقيقة اكتشاف الحياة الجديدة. **وهذه الحياة الجديدة هي حياة المسيح ، وهي الاولى.** النعمة تلمسنا أولاً ثم يتم التجديد فينا ويتحقق ذلك لكي نُفرَغ من ذواتنا أولاً وعند ذاك يأتي الروح ويسكن فينا . هذا يفوق ادراكنا ولكنه في الوقت نفسه صورة لهذا العالم بالضبط : يجب ترك القديم من أجل الجديد .

غير ان القديم لا احتقره بل ألبسه الجديد ، أجلّيه[1] . هذه الحياة

---

١ ـ هناك نسك سلبي يختلف عن النسك المسيحي أصلاً : التقشف في الهند أشد من تقشفنا ولكن لا من أجل حياة جديدة تعقبه ، بل هم يفرغون الانسان من كل واقع ، من الواقع غير الكامل ليفسحوا له المجال للفراغ الكبير ، للعدم الكبير ... بينما في المسيحية تأتي النعمة أولاً وهي تفعل فينا (الله يعمل فينا الارادة والعمل) فتزيل الحياة العتيقة وتنبت الجديدة والانسان الجديد. « وتكون لكم الحياة أوفر » (يوحنا ١٠ : ١٠) : « ما لم تره عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كور ٢ : ٩) .

الجديده تبقى متصلة بهذا العالم وبالانسان الحالي ومبنية عليه ومنطلقة منه . لان هذا الانسان صورة الله ، وصورة الله لا تلغى . لا يستطيع الله ان ينكر ذاته ، لا يستطيع الله ان ينكر الانسان دون ان ينكر ذاته . لا يستطيع الله ان يخلص الانسان بدون الانسان . ان خلصه بدون اشتراكه يكون قد أنكره . من هنا ضرورة تعاوننا مع الله في أعمالنا النسكية ومحبتنا له . « يا ابني اعطني قلبك » (أمثال٢٣:٢٦).

ونحن نلبي نداء الله وحسب وليس لنا في هذا اي فضل . لا يمكن ان يكون لنا فضل في ما نعطاه . فالفضل فقط في ان أقبل ما أعطاه. هذا هو الأمر الطبيعي (la normalité) . « مهما فعلتم قولوا نحن عبيد بطالون » (لوقا ١٧ : ١٠) . اللاطبيعي هو الخطيئة ولكن العالم بالعكس يتخذ اللاطبيعي (كل الاهواء) كأنه طبيعي. اما النسك فيعيد الابعاد الحقيقية للامور ،النظرة الصحيحة المطابقة لما هو واجب وطبيعي normal . نحن ليس لنا أي استحقاق من ذواتنا ولكن بما ان المسيح هو فينا فاننا نشاركه حياته عندما ننفتح ونقبل كلامه . لان محبة الله لنا لم تخلصنا فقط بل أتحدتنا معه ، أدخلته فينا[1] .

بهذه الطريقة النسك يصلحنا ويشفينا خطوة بعد خطوة. انه يصلحنا ويشفينا بقيامة المسيح الذي نلنا مواهبه كلها بالمعمودية .

---

١ - ان اكرام العذراء مريم واستشفاع القديسين غير موجهين لشخص العذراء والقديسين الاعتيادي بل لله الذي فيهم ، لانعكاس الله او لجزء الالوهة الذي فيهم اذا جاز القول . الله غير بعيد عنا بل هو فينا، يداخلنا (nous pénètre)،فنمتلىء من أفضاله ، هو اللاأناني ... وهذا معنى العبارة الارثوذكسية : تقديس او تأليه الانسان .

لا نزال نتكلم عن الاماتة الموجهة للجسد ، والجسد المتصل ببقية الاجساد ، بالأشياء المادية .

كل خليقة في ذاتها « اكثر » من ذاتها لانها ترتبط اصلاً بالله . انها اذاً تعرض شيئاً إلهياً ، متصلاً بالله ، له علاقة به ، وتستطيع ان تصلنا بالله . « كل نسمة فلتسبح الله ... الجبال والتلال ... الينابيع ... والبهائم ... الرياح العاصفة المنفذة لكلمته ... » (انظر مزمور١٤٨). كل خليقة اذاً ، على محدوديتها ، متصلة بالله وهي سرّ وبديهة في آن واحد : نراها أمامنا وفي الوقت نفسه تعكس شيئاً آخر ، تكشف آفاق سرّ ... **الا ان الاهواء والخطيئة قد سلبت الخليقة هذا العمق الذي كنا من خلالها نعبر به الى الله .** الاهواء لا ترى في الخليقة أي سر بل ترى المادة المحسوسة فقط . لا ترى كرامة المادة وقيمتها الكرامية بل منفعتها النسبية لنا وحسب . بها نستملك ما هو لله فيصير كل شيء سطحياً وباهتاً (terne) . بالاهواء الناس سطحيون ، يذوقون خليقة الله ثم يملون منها ويضجرون ، متنقلين من شيء الى آخر (انظر الفيلسوف الفرنسي سارتر) . لان لا شيء يرضينا حقاً الا الله وامور الله . الاهواء تلوّث الحقيقة والواقع وتلطخها،تحول كل شيء الى مادة، تحول المادة الى مادة : « ويلي فقد تحول جسدي الى لحم » (كتاب التريودي) . ذلك لان الجسد يحييه الروح ، انه هيئة حيّة ، بينما لا يرى الهوى فيه الا اللحم. الحب الجنسي احتقار لا حب. الحب والبغض فيه متصلان . وكأننا نريد به ان «نحشي» الجسد شيئاً آخر غريباً عنه أصلاً ، لكي نسكره .

فيأتي النسك الجسدي ، الاماتة ، لكيما يعيد النظرة الصحيحة الى

العالم كشيء اكثر مما هو . ان لنفسنا مصيرا آخر ، مصيرا روحيا ، فيجب وضع حد للاهواء : عدم الأكل ، عدم النوم ، إتعاب الجسد ، الاعتدال في كل شيء ، ليس هذا انكاراً للجسد بل تحريراً له من تسلط المادة ، أعني « المادة — العدم » (مادة الاهواء) . بالنسك الجسدي نضع حداً وحاجزاً للسقوط في الهاوية ، هاوية الموت . نعيد الجسد الى الطريق الطبيعي ، طريق « ترويحه » . هذا هو المعنى الروحي للنسك الجسدي .

ويميز القديس مكسيموس المعترف درجات في هذا الترويح هي :

١ — عدم إتيان فعل الخطيئة ، الامتناع عن الفعل المادي الخارجي .

٢ — مقاومة افكار الهوى وإبعادها فلا تعود تجرحني بل أفكر بشيء آخر .

٣ — ضبط الغرائز الطبيعية والميول وترويحها ومنعها من الاتجاه الى الاهواء .

٤ — نزع ذكر الاهواء عنه الذي يأتينا بصورة لا طبيعية ويثير فينا ذكر الرذائل . ان مشاهدة الذهب مثلاً يثير ذكر حب المال : فالذهب يصبح مادة كغيره ، والمرأة اختاً . . يجب ان نقتلع من فكرنا كل فكرة رديئة ونتطهر من الاهواء تطهراً كاملاً . لقد فتح المسيح الفردوس مجدداً والقديسون يحملون الفردوس في دواخلهم . . .

الفصل التاسع

التحرر من الاهواء : اعمال النسك

آ — الصوم

باختصار : هو من اعمال النسك بموجب تقليد مستمر في الكنيسة . وفيه اولاً وجه الوقاية : يقي من الخطايا ، يقي من الشراهة وبالتالي من الشهوة وتوابعها . ثم وجه الشفاء او الاصلاح : يشفي ما هو رديء فينا وما حصل من العطب الروحي (acte réparateur) . ويجب ان لا يُفصل الصوم عن الحياة الروحية : « هذا الجنس لا يخرج الا بالصلاة والصوم » (متى ١٧ : ٢١) ، والمسيح لما صام كان مع الملائكة ، يقول الكتاب (متى ٤ : ١١) . ثم الصوم (في جو من الصلاة والقداسة) يساعد على الفهم الروحي وينير العقل ويرفعه فيؤول بالتالي الى التقدم في طريق الكمال : أمام الصائم الأفق يتضح ويستنير . وفي الصوم أيضاً وجه تكفيري اذا جاز القول : يمكن تقديمه لله من أجل خطيئة ما او من أجل أية غاية أخرى .

وفي ممارسة الصوم يعتمد الآباء مبدأ عدم اضعاف طبيعتنا اضعافاً زائداً ، والا فبسبب الضعف نعود الى كل ما تركناه . يجب عدم التطرف بل سلوك سبيل الاعتدال ولكن يجب ايضاً ان لا ننسى ان بوسعنا ان نصوم اكثر . لاننا عندما نستطيع ان لا نأكل ونأكل نفقد

ذكر النسك عينه وننسى واجب التقدم الروحي. يجب ان نبلغ الى محبة النسك ولذا فمن الضروري حيناً بعد حين ان نذكر ونصوم صوماً اشد. الصوم يكشف ضعفنا وايضاً قوتنا. ولكن لا بد من المحاولة والا فكيف ننجح؟ كيف نستطيع ان ننجح او ان نعرف امكانياتنا في الصوم دون ان نحاول الصيام؟! مع العلم بأن طاقة الجسد في احتمال الجوع هائلة (كما اتضح من خبرة السجناء في الحرب العالمية الثانية). فيجب ان لا نخاف من محاولة معرفة حدودنا — باذن الرؤساء وبدون نسيان الاعتدال. المبدأ هو التقدم في النسك باطراد دون ان نموت[1]. يجب، مع هذا التحفظ، عدم الاعتقاد بأننا بلغنا حدود التقشف الاخيرة، وعدم الشعور بالرضى على أنفسنا بل بالعكس انماء شعور الخجل والتواضع والانسحاق من أجل خطايانا ولعدم تقشفنا كما ينبغي، «فالقلب المتخشع المتواضع لا يرذله الله».

ب — السجدات

الى جانب الصوم الذي هو الجهاد النسكي الاول، هناك السجدات الصغيرة والكبيرة وما شابهها (الركوع) ونقصد بها السجدات الخاصة الانفرادية لا الكنسية الجماعية. بالسجدات نفرض على الجسد نظاماً انضباطياً (discipline) للتخفيف من حركاته وانفعالاته الاهوائية وضبطها. انها بمثابة رياضة نروّض بها الجسد، وقد شبه بولس الرسول المسيحي بمصارع (athlète). لان الجسد في الواقع يعيش حياة غير منتظمة وقد تؤدي انفعالاته وحركاته الى الخطيئة، فيجب تهذيب الجسد في سبيل الغاية الروحية. والسجدات ضرورية لتوفيق الجسد مع الروح.

١ — يروون قصة التركي الذي أراد تعويد حماره على عدم الأكل، ولكنه مات اخيراً جوعاً عندما كان على وشك الاعتياد على عدم الأكل!

لقد حدد الآباء للرهبان وجوب السجود ٣٠ سجدة كبيرة في اليوم على الأقل (في السجدات الكبيرة اليدان والركبتان والرأس تلتصق بالارض metanoia). ذلك باستثناء أيام الآحاد وفترة الخمسين بين الفصح والعنصرة. وقد نسجد في الابتداء بصورة آلية دون ان نشعر بشيء، ثم بالمثابرة تؤثر السجدات في تليين النفس وتحدث فيها شيئاً من الحنو الروحي (attendrissement) مع اعداد الذهن للفهم... هذا وقد سمح الآباء لرهبان الحياة المشتركة بإنقاص عدد السجدات اليومية على ألا تقل عن خمس سجدات كحد ادنى. انها تساعد الحياة الروحية على أي حال. وكذلك السجدات الصغيرة (proskinesis).

ج — السهر

ومن اعمال النسك ذات الاهمية السهر ايضاً. وهو مستمر الينا بموجب التقليد، وذو أهمية خاصة في حياة الراهب. يجب تنظيم وقت النوم، فالنوم ضروري للحياة أكثر من الطعام، خاصة لأعصاب الانسان، ولكنه قد يصبح سبباً لانحراف رذائلي اذ انّ المجرب يستغل ميولنا الطبيعية بالضبط. فقد يصير النوم باباً للكسل والخمول الذهني. فالنوم الزائد يعكر صفاء النفس ويعيق إيقاع (rythme) الحياة الروحية وحركتها الرشيقة (alerte)، والخمول قد يؤدي الى عدم العفة. لان الوعي ينغلق أثناء النوم فتطغى الحياة اللاواعية وفي غياب رادع العقل يستفيق فينا ويعذبنا كل ما يمت الى النفس الحيوانية والاهوائية. فالنوم الكثير يفسح لها مجالاً أوسع.

ثم ان الراهب مبدئياً كائن ملائكي والصوم علامة لكيانه هذا، وكما ان الراهب لا يحيا بالخبز فقط بل يقلل هذا الطعام من أجل الطعام

١ — هذا هو الهدف الاخير، الغاية النوعية، وعلى المرء ان يسمو تدريجياً ودائماً نحو الهدف. يجب ان نموت ونحن ساعون مجاهدون، حتى وان بقيت عظامنا في الصحراء مثل موسى.

الآخر ، من أجل الصلاة والحياة الروحية التي تخلق فينا كياناً جديداً (ontologie nouvelle) هو كيان « الملائكة المتجسدين » ، كذلك فالسهر الرهباني ايضاً يتخذ هذا المعنى الخارجي عينه وهذه الدلالة: يجب ان لا ننام كما ينام بقية الناس في أوقاتهم[1] . اذ على الراهب ان يُدخل الى كيانه كله صحواً روحياً ، ويبعد ثمل النوم ، داحضاً كل خفايا اللاوعي المظلم . يجب ان ننام فقط بالقدر الكافي لحياتنا وجهادنا ، وإلا يصبح النوم حليف الشيطان ضدنا . ان قلة النوم تؤلمنا كقلة الطعام ولكن يجب تنظيم أوقات نومنا وعلاقتنا بالنوم لئلا يتسلط علينا كخوف وشوق .

هذا ولا يخفى جمال الصلاة في نصف الليل . فبها نتغلب على النوم ونهدي نهوضنا الى الله مع الاجواق الملائكية . وهي تدخل النور الى النفس بينما الناس نائمون ، تعطي النفس والذهن شعلة من عالم آخر . السهر ، اكثر من الصوم ، يفتح الذهن وينيره بصورة غريبة .

ثم للسهر النسكي شكل آخر وهو عدم النوم على أسرة ناعمة ، بل على خشب وفراش قليل السماكة .

هـ ـ الصمت

ان الصمت على صعيد حياة الشركة يدل على أوقات الصلاة . ولكن المقصود هنا الصمت على صعيد الحياة الشخصية ، حياة القلاية : ان نتكلم أقل ما يمكن لكي نتجنب خطر الانزلاق الى الكلام البطال والى ادانة الآخرين الخ ... ففي القلاية يبدأ فيظهر الوجه الحقيقي للصمت:

١ ـ هذا هو الهدف الاخير ، الغاية النوعية ، وعلى المرء ان يسعى تدريجياً ودائماً نحو الهدف . يجب ان نموت ونحن ساعون مجاهدون ، حتى وان بقيت عظامنا في الصحراء مثل موسى .

ليس الصمت عدم الكلام وإنما هو « مملكة » ونحن في القلاية ندخل الى الصمت دخولنا الى مملكة . في الصمت مشهد بديع يحجبه العالم ولا يعرفه .

يبدأ الصمت الداخلي بالتخلي عن بقايا الاقوال الهائمة في النفس . فان شقاء الانسان هو في عدم استطاعته البقاء ساعة واحدة مع نفسه . يجب طرد الاقوال الباقية في الذهن وعدم السماح لها بالثبوت . يجب إقامة حاجز في ذهننا بيننا وبين ما رأينا وسمعنا خارجاً (ما قال لي فلان وما قلت له الخ ...) لإقصاء الافكار الآتية الينا عن طريق الكلمات . ثم يجب تجنب وازالة أسباب شرود الذهن وتشتيته (كمطالعة كتاب ثانوي الأهمية مثلاً ...) . قال راهب روماني عاش منذ حوالي مائتي سنة : « كيف يحفظ الراهب نفسه في قلايته صامتاً ؟ يحفظها بتذكره ساعة الموت ودينونة الرب باستمرار ، غير مفكر باي شيء عالمي » .

ان الصمت يبدأ اذاً بذلك الانزواء في داخلنا وجمع الذات وإبعاد كل المسببات المادية الطبيعية للتشتيت الذهني ، والاحتراس من الافكار « العالمية » ، حتى نصل شيئاً فشيئاً الى عادة الصمت . والخطوة الاولى هي التجمع الداخلي ولمّ شمل الذهن . أما الخطوة التالية فمراقبة افكارنا : « يا نفسي اين انتِ الآن وبماذا تفكرين ؟ » كما كان يخاطب ذاته احد آباء البرية بصورة متواترة .

ومن الوسائل النسكية في هذا المضمار الابتعاد عن الدوافع المادية للأهواء : عدم النظر ، عدم مواجهة ما يثير الانفعال الاهوائي (للمبتدئين خاصة) . فان هذه الدوافع يستمر مفعولها في اللاوعي .

يجب ان نبدأ فنقف موقف ونسلك مسلك الراهب الخارجي «المادي»، وبعد ذاك يولد فينا الراهب الذي بحسب القلب . يجب الهرب اولاً من الاسباب المباشرة المؤدية الى التحرك الاهوائي والاخلال بالصمت . ولهذا النسك الجسدي انواع لا عد لها تختلف بحسب مزاج كل واحد وحاجته ، فعلى كل اخ ان يعرف ذاته ويتجنب ما يؤذيه .

الفصل العاشر

التحرر من الاهواء :
الصبر في الاوجاع والمحن

الى جانب اعمال النسك الجسدية نمتلك في طريق التحرر من الاهواء الصبر في الاوجاع والمحن . فالراهب في حياته اليومية يتبنى اوجاعاً خفيفة ، يفرض على نفسه ألماً ما مشروعاً على سبيل النسك . ولكن الله ايضاً يرسل احياناً اوجاعاً او محناً صغيرة يفتقدنا بها ، ويسمح بوجودها او باستمرارها كوسيلة نضالية تسام في تقدمنا وتعمقنا الروحي امامه . هذه المحن قد تكون مرضاً عضوياً جسدياً ... او قد تكون عجزاً نفسانياً ... (كعجز التكلم ، او عجز الاتصال بالآخرين الخ ...) إنها تتخذ أشكالاً متعددة ، كثيراً ما تكون سرية بيننا وبين انفسنا ، وبيننا وبين الأب الروحي . ولنا في الكتاب المقدس مثال عاهة بولس الرسول الذي طلب ثلاث مرات الى الرب ان تفارقه فأجابه الرب : « تكفيك نعمتي » .

اي موقف يجب ان يكون موقفنا تجاه مثل هذه الأوجاع ؟ رجل العالم قد يتذمر ويتمرد على الله بسببها . ولكن على الراهب ان يلاحظ ويتبين المعنى العميق لاوجاعه ونقائصه ومنفعتها الروحية له (مع

... باعتدال و[illegible] ومراجعة الطبيب حين وجود فائـدة في ذلك) .

وهناك اوجاع عميقة ينبغي قبولها بمنزلة مطهرات وقد سماها القديس يوحنا الصليبي التطهيرات «السلبية» (purificationspassives) انها اولاً تطهرنا من الأهواء ... من الغضب ... من الحزن ... وتولد فينا فضيلة الرجاء التي هي تكميل وتعميق لفضيلة الايمان المحورية .

ولهذه الامراض او الاوجاع أيضاً معان وفوائد اخرى : فهي كثيراً ما تقينا من الخطيئة وتحفظنا ، ثم « تكفـّر » عنا ، « تستهلك حصتنا في الجحيم » كما ورد على لسان الآباء . وهي ايضاً تساعدنا على معرفة ذواتنا من خلال رد فعلها فينا وموقفنا منها . وايضاً لان الأوجاع تدفعنا للرجوع الى انفسنا ...

ثم ان الاوجاع والمحن تدخلنا الى سر الالم ، الذي هـو سر الهي حقاً ... انها تعلمنا انه في الألم والوجع يشرق سر المحبة ، سر الغلبة والحيـاة الظافرة . وحينذاك يظفر الرجاء ويغلب العالم ، فنعيش « بالرجاء » بشيء ليس من هذا العالم . إن الرجاء قد تغلب منذ الآن في من يقتنيه ، وهو يحمل اليه يقين الحياة بنعمة الاله الحيّ . انها غلبة على قلق العالم وقلق المستقبل (angoisse) وعلى العجز الناتج عن القلق . الرجاء يذهب الى ما بعد المستقبل ، الى الأبدية .. منذ الآن يفتح الابدية .. لقد تكلم بسكال عن حسن استعمال المرض وألـّف صلاة في ذلك . وان احد رهبان البرية بقي خمس سنوات دون ان يمرض فعاتب الله لأنه « نسيه » على حد قوله .

الصبر على الاوجاع اذاً أمر اساسي في النسك المسيحي . فيجب انْ

نتبين في الأوجاع علامة من الله ونميز ارادته . وقد تتخذ الاوجـاع اشكالاً مختلفة جداً . فالى جانب الامراض الجسدية او العجز النفسي .. هناك مثلاً عدم فهم الآخرين لنا او استغلالهم لنا .. في مثل هـذه الحالة يجب الرجوع الى الذات وتقصي ما اذا كان ذلك متأتياً عنا وبسببنا ... واذا تبين لنا العكس يجب عدم التمرد على مستغلينا بل قبولهم وهذا يقتل فينا شعور الغضب والرغبة في الرد والحزن والقرف . ويقودنا شيئاً فشيئاً الى الوداعة والمحبة ...

الفصل الحادي عشر

التحرر من الاهواء : صحو الذهن او حفظ القلب

في بحثنا للحياة الداخلية لا نزال في طور التحرر من الاهواء وهي المرحلة الاولى في طريقنا الى الله . وبعد الخطوات السابقة (١ ـ النسك الجسدي ٢ ـ الصبر في الاوجاع والمحن) نصل اليوم الى صحو الذهن .

نصل الآن الى قلب الحياة الرهبانية ، الى صميم النسك .. لقد رأينا سابقاً ان غاية الجهاد النسكي انما هي شفاء الطبيعة الانسانية المجروحة واعادتها الى وضعها الاول بواسطة النعمة الالهية . لقد شوهت الخطيئة الطبيعة الانسانية فصار الانسان يجنح الى عدم طاعة الله . أدار آدم ظهره لله مصدره ، واتجه الى « شجرة المعرفة » ، الى الخليقة المنظورة المادية محاولاً اخضاعها له بأكله التفاحة . فحصل جرح عميق بل كسر في طبيعة الانسان أوجدته الاهواء . واستمر هذا التشويه عبر القرون عن طريق الاهواء، فصار الانسان يتعلق بما هو خارجي أكثر من تعلقه بما هو داخلي ، بالحسي بدل الروحي ، بالعالم بدل الله .. ثم يموت. فأتى الرب يسوع وألغى هذه الخطيئة الجدية بتجسده وفدائه ، ونحن بالمعمودية مخلصون منها . ولكن آثارها باقية فينا وهي الاهواء ، حركات الهوى فينا وانفعالنا لها.. **ولذا فغاية النسك اصلاح الطبيعة الانسانية واعادتها**

الى كمالها ووحدتها الاولى . وهو اذاً الطريق الطبيعي للانسان وليس « ضد الطبيعة » ، وذلك حتى من الناحية الواقعية الموضوعية . ـ انه لقلب غريب للواقع اتهام المسيحيين (بل الرهبان) بتحريف الطبيعة الانسانية ، في حين انه بالمسيح يستعيد الانسان نقاوته الاصلية .

هذه النقاوة نبدأ استعادتها على الصعيد الجسدي كما رأينا : بالتعب والصمت والسهر ... أما الآن فنصل الى قلب النسك: الى صحو الذهن وحفظ القلب .. (la garde du cœur, la veille de l'esprit, sobrietas, nepsis) : ذلك لانه لا يكفي (طبعاً) الابتعاد عن الاسباب المادية للخطيئة أو عن التجارب ، كما لا يكفي محاولة عدم الوقوع في الخطيئة وحسب : هذه مرحلة فقط . ولكن يجب الوصول الى أبعد من ذلك ، الى كل ما يريده الله للانسان . **النسك اولا يجب ان يصبح داخلياً** ، ان يقيم داخل كياننا الصميم . لان « من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه » . هذا سر المسيحية نفسه : الفرائض القديمة الخارجية تدخلها المسيحية الى داخل الانسان .

الحياة الاخلاقية والنسكية تبدأ سلبية ، من الخارج ، والفرائض الخارجية حسنة وهذه درجة في الروحانية ، ولكن السر هو في جعل النسك داخلياً وروحياً ، حتى القلب ، من أجل اقتلاع جذور الاهواء نفسها . **لا يكفي ان لا نخطىء بل يجب نزع جذور الأهواء واسبابها** بل الاهواء نفسها وقلبها ضد ذاتها . يجب بالنتيجة التغلب على التجربة عينها والنظر الى الأشياء في طهارتها الأصلية وبراءتها . **النظر مثلاً الى الذهب كإلى الحجر .. الى الامرأة كاخت** .. يجب ان يكون القلب خالياً من ثورة أيّ هوى . بهذا فقط ، يقول الآباء ، يبدأ حقاً طريقنا الى اللاهوى ونقاوة القلب (apatheia) . وقد سمّوا هذه المرحلة صحو الذهن أو حفظ القلب . يجب ان « نختن » القلب كما يقول بولس

الرسول في رسالته الى أهل رومية (٢ : ٢٩) ، ان نطلب مدح الله وليس مدح الناس ، لان اليهودي الحقيقي هـو اليهودي في القلب ، في الخفاء . هناك أخلاق خارجية وأخلاق داخلية . ما هو من خارج فهو مفروض فرضاً أما ما من داخل فمن انسكاب النعمة .

يجب اذاً ان ننزل الى داخلنا ، الى ذلك العالم الذي نجهله ، مع انه أقرب شيء الينا . قال أغسطينوس المغبوط : « ان أردت ان ترى الحقيقة فادخل الى ذاتك » . قليلون هم الذين يلتزمون هـذا الكلام ويتبنونه ، قليلون هم الذين « ينزلون » الى أنفسهم، ولكن هذا لا ينفي صحة ما نقول. نحن من جراء الخطيئة نعرف الخارج أكثر من الداخل. ان كياننا الحقيقي يبقى غريباً عنا وهذا هو سبب ضعفنا الروحي . لا نعرف ماذا يجري فينا وكيف نسلك ونتصرف. ان أي مكسب روحي لا يدوم ويثبت ما لم ينبثق من القلب ويعود الى القلب . اذاً فالوجـه الاول لجهادنا في هذا المضمار هو ذلك التجمع الذهني والقلبي الذي هو بمنزلة حاجز يحـول دون الخطيئة الخارجية ويسمح بدخولنا هـذه المرحلة الجديدة . فالذهن في بدء هذه المرحلة ليس بعد عبداً للاشياء الخارجية يتشتت شارداً في الخارج، بل هو محمي ومحفوظ من هذه الجهة.

ثم يجب العودة بالذهن الى ذاته من أجل جمعه وتركيزه على ذاتـه وحصره في ذاته من جديد : هذه هي الخطوة الاولى للتطهير . لان الذهن ليس فقط عالماً بجد ذاته ، بل هو ينظم ويقرر كل حياتنا . انه مركز الوعي فينا ونحن حاضرون في العالم بالوعي وليس بالغرائز فقط كالحيوانات. انه موهبة عظيمة تتيح لنا ان نوجه أنفسنا بأنفسنا ونوجه الأشياء حولنا في العالم . ولكن الذهن ، بالاضافة الى الوعي ، هو أيضاً مركز حرية فينا ، لأن سر الانسان أعمـق من مجرد الوعي : نحن بوا[illegible]ة الذهن نستطيع ان نعطي قيمة للاشياء وان نحقق هذه القيمة وتحولها الى فعل . « من عمل وعلم فهذا يـدعى عظيماً في ملكوت السموات » (متى ٥ : ١٩) . اذاً فالمرحلة الاولى ، التي هي جمع الفكر والنفس ، تعيد الوعي والحرية الى داخل الانسان وتقودهما من هناك .

ولكن هذه العودة صعبة في بدايتها ولا شك لأن النفس قد اعتادت طويلاً على الشرود والتشتت . اننا نعرف ذهننا لا في ذاته بل بالنسبة للاشياء وفي علاقتها به . الطفل يُنمي عقله أولاً في الاشياء الخـارجية متعلماً اسماءها ويعرف ذاته اول الامر كشيء، كاسم بين سائر الاسماء. انه لا يعي ذاته كشخص الا في الخامسة من عمره. نحن نفكر «شيئياً». القديس غريغوريوس النيصصي يقول ان آدم في الفردوس لم يكن يفكر عن طريق عمليات فكرية (cogitations) يتجزأ فيها ذهنه ، بل كان ذهنه بسيطاً موحداً . وطرق النسك غير المسيحي (اليوغا الهندية مثلاً) تستهدف استرجاع بساطة الذهن ووحـدته ولكنها تسعى الى ذلك بمحاولة « تفريغ » الذهن ، أي ابتداء من الفراغ ، من البداية لا من النهاية كما هو الامر في المسيحية : أعني اننا في المسيحية نموت أولاً بالمعمودية لكي نولد ثانية ونقوم الى الحياة الجديـدة . ومن ثم فالنسك العقلي يُدخل هذه الحياة الجديدة في ذهننا وروحنا . فكما ان الصوم والصمت وغيرهما من أعمال النسك الجسدي يفسحان المكان لهذه الحياة الجديدة كذلك فأن صحو العقل وحفظ القلب يُلبسان نفسنا وحياتنا حياة المسيح الجديدة: «أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح قد لبستم»[1] ..

ما دام صحو الذهن يعني تطهير القلب ، أي الانسان الداخـلي ،

---

١ ـ هذه الامور تبدو الآن بعيدة التحقيق لامكاناتنا ولكن يجب حفظها لنتذكرها فيما بعد ، في حينها. اننا سوف نكتشف فينا امكانات جديدة كلما تقدمنا في الطريق.

فالنسك الخارجي لوحده لا يكفي ، بل قد يصبح خطراً : قد يصنع فريسياً ، وعندئذ فاننا بواسطته نسمّن الانسان الفريسي الذي يختبىء فينا لا أكثر . **لا ليس النسك الخارجي كل شيء ، بل الحياة الروحية تبدأ حقيقة حين نباشر مرحلة تطهير انساننا الداخلي ، « انسان القلب الخفي »** (١ بط ٣ : ٤) .

يجب علينا أولاً ، بالنسك الخارجي ،حماية الذهن من تأثير ما يجري خارجاً حولنا ، ثم الاجتهاد ، بالاختلاء والتجمع الذاتي ، لإعادة الذهن نحو ذاته لكيما ينتبه الى ذاته . ذلك لأن الانسان ، حتى عندما يفكر ، يفكر «خارجياً» اذا جاز القول ، أي استناداً الى مفاهيم معينة وليس هو في داخله ... لكيما تدخل النفس الى ذاتها يجب اعادتها الى اعمق من ذاتها ، **اعني بصورة أعمق من الفكر** . فالفكر يفكر ، يحلل ،يبحث ، (discursif) وهذه حالة ازدواج ، حالة انحطاط نسبة لوضعه الاول. فيجب ارجاع الذهن الى حالة ما قبل التفكير .

ومن اجل الوصول الى ذلك ينبغي الانتباه الى الافكار المارة في ذهننا ومعرفة قيمتها وطبيعتها وجودتها ... ففي تسمية هذه المرحلة « صحو الذهن » او يقظته ، يدخل الانتباه اولاً كأحد المقومات :

آ — **الانتباه** : ان انتباهنا عادة متجه نحو الخارج . اننا لا ننتبه كما نريد . **فالانسان اليوم لا يفكر بقدر ما يُفرَض عليه تفكيره** (بواسطة التلفزيون الصحف والكاليات ...) . فيقتصر دورنا فقط على اعطاء شكل واضح للافكار الآتية الينا من غيرنا .. فالآن يجب على الراهب تركيز نشاطه العقلي وحصره في نقطة رئيسية ، في محرق (foyer) كمحرق المكبر . **يجب ان نعطي ملكتنا العقلية مركز انارة ووضوح وتنظيم**،وهذا المركز العميق للذهن يسمى في التقليد الرهباني «القلب».

والمقصود ليس القلب العضوي بل الجسم الأكثر عمقاً في جسم الانسان ، القلب الروحي . فكما ان القلب العضوي مركز الحياة ونحن نحيا من حياته ، كذلك القلب الروحي بالنسبة لحياة النفس والروح . « القلب عميق ، هو الانسان ذاته » (ارميا ١٧ : ٩) . هذا القلب هو المركز الذي تشتق منه كل قوانا ونشاطاتنا : « أحبب الرب من كل قلبك » . في هذا القلب تسكن نعمة الله ، كما يقول بولس الرسول في رسالته الى العبرانيين : ان يسوع دخل الى داخل الحجاب ، الى قدس الأقداس ، **فالقلب هو في كياننا قدس الاقداس**، النقطة الأكثر عمقاً أو العليا **حيث تسكن نعمة الله** فينا منذ المعمودية. في تلك النقطة من نفسنا التي لا نبلغ اليها عادة ، اذ لا ننزل حتى القلب ، دخل «رئيس الكهنة» (عبر ٦ : ١٩و٢٠)[1] . ان الآباء يرون تقابلاً او تماثلاً رمزياً وسرياً بين الخليقة والانسان . ولذا حين دخل يسوع الى قدس الاقداس ، الى ما وراء الحجاب ، فهو في عرفهم قد دخل ايضاً الى قلبنا ليجمع الذهن المشتت الى ذاته ويعيده الى مركزه في القلب .

ب — **التيقظ تجاه الافكار** : من مقومات صحو الذهن أيضاً التيقظ بازاء عالمنا الداخلي . فان الافكار تتوارد الينا كثيرة ومختلفة دون انقطاع . اننا عادة مستيقظون للخارج وساهون بالنسبة للداخل . **فيجب التيقظ لفحص افكارنا بغية تنمية الصالحة منها وتغذيتها ، وملاشاة الرديئة وابادتها** ، كقول داود النبي : « سأستأصل بالغداة جميع خطأة الارض لأبيد من مدينة الرب عمال الأثم أجمعين » (مزمور ١٠٠ : ٨) ، وكذلك : « طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب الصخرة بهم » (مزمور ١٣٦ : ٩)[2] .

---

١ ـ لا تفهمن هذا القول « مكانياً » بل لننزع فكرة المكان من ذهننا في كل بحث روحي .

٢ ـ الاطفال هي الافكار في بدايتها والصخرة هي ذكر المسيح (تفسير الآباء).

ج – **ذكر الله** : وأخيراً، وهذا هو سر صحو الذهن وحفظ القلب، يجب ان ندخل الى حياتنا الذهنية ذكر الله . لما كانت حياتنا الرهبانية تستهدف إدخال حياتنا في الحياة الواعية ، وكانت هذه الحياة الواعية تقوم بالافكار والكلمات ، اذ نحن نفكر بواسطة الكلمات ، فهناك « اسم فوق كل اسم » ، « تجثو أمامه كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض » (في ٢ : ١٠) ، ولا تستطيع ان تقاومه أية كلمة أخرى : **هو اسم يسوع** . لا بد من اعطاء الذهن شيئاً **يغتذي** به فالصوم والسجدات وغيرها لا تعطيه شيئاً ان لم نعطه معها اسم يسوع .

يجب ممارسة النسك بفهم . فبعد محاربة الافكار السيئة وإبادتها ، والرجوع الى الذات وجمعها ، يجب التخلي عن كل اهتمام والتعري من كل ذكر . يجب ان يصبح الذهن أيضاً فقيراً : « **طوبى للمساكين بالروح** » **للفقراء بالذهن** ، الذين لا يفكرون الا بيسوع ، (يجب التخلي حتى عن ذكرنا نحن) ، « لان لهم ملكوت السموات » ، وملكوت السموات في القلب ، في أعماقه : بتعرية الذهن من كل غنى ونشاط فكري كبير يحصل الذهن على الغنى ، لانه حين « يتنسك » الذهن ويفقر حينذاك فقط يستطيع النزول الى القلب وهناك ، **بهذه البساطة بالضبط، يقتني غنى الملكوت** .

ان لفظة صحو الذهن باليونانية (prosokhy) **مرتبطة ارتباطاً كلياً بلفظة صلاة** (prosephkhy) ، اذ ليست الصلاة بالنتيجة الا الصحو لذكر الله . « اسهروا وصلوا » : لا تلح الروحانية الارثوذكسية كثيراً على التأمل الفكري ، بل الذهن حين « يسهر » ، أي يصحو لا « يتأمل » بالمعنى التحليلي، باحثاً في فكرة او نص ما، بل يلتصق فقط باسم الرب يسوع ، أي « يصلي » . ليس صحو الذهن اذاً منفصلاً عن

الصلاة في وقت من الأوقات . ولكن قد يكون شكل هذه الصلاة متواضعاً جداً في البدء ، مثل صرخات داخلية قصيرة : « يا يسوع ارحمني » أو « يا يسوع » . ثم ينبغي اكثارها تدريجياً حتى يأتي وقت نحفظ فيه ذكر اسم يسوع في الذهن بصورة دائمة تحت الأفكار : مع الافكار الجارية ولكن أعمق منها .. **ان هذا الذكر لا يشتتنا ولكنه يلتصق بأفكارنا** . أن صحو الذهن اذاً يقترن بالنتيجة بالصلاة ، صلاة قصيرة دائمة هي صلاة اسم يسوع .

ونصل الى هذا بمراحل ثلاث :

اولا : الترقب لمعرفة الفكرة الصالحة التي تمر في الذهن و إصعادها حالا « ذبيحة » الى المسيح في موقف شكر داخلي . يجب ان نحمل الفكرة الصالحة باسم يسوع ونقرع بها باب القلب، أي حالة الذهن العميقة التي اذا ما دخلناها نكون كما في حضرة الله ونشعر **بأننا في حضرة الله الدائمة** . ان الله حاضر للقلب ، في داخلنا ، بيننا وبينه ، وليس في التفكير ، لان التفكير (البحث والبرهان والخطاب) يتم في الخارج..

ثانياً : رفض الافكار الرديئة والتطهر منها ، وذلك ليس بأفكار مضادة لها ، « لا تقاوموا الشر بالشر » : **يجب عدم مقاومة الافكار السيئة بتشتيت اخر ، بل برفض الفكرة الرديئة وعدم قبولها من اساسها** بصرخة « يا يسوع ارحمني » ، أو بذكر الموت او ذكر يسوع المصلوب (لنذكر قصة الراهب الذي حمّله الشيخ لحماً على جسده، للعبرة، فصارت تنهشه الطيور) .

ثالثاً : في المرحلة الثالثة نصير حساسين جداً **فنرفض مجرد الايحاءات البعيدة للشر** ، اذ يجب تحطيم رأس الحية .. نشعر بالخطر من بعيد

ذاته .

ان هذا يتطلب تدريباً دائماً على جمع الذات ، مع صلاة قصيرة ولكن متكررة . يجب ان يصل المرء الى استعادة ذهنه . يقول افكريوس ان الذهن الذي يتوحد ويستعيد كماله ، لا يعود يتأثر بشيء وليس هو « نشيطاً » بالمعنى المقبول لهذه الكلمة ، فالذهن البشري صاح ، ليس هو نشيطاً فاعلاً actif ، ولا سلبياً مفعولاً passif ، بل هو صاح ساهر ، مميّز . أما الحالات « الايجابية » و « السلبية » فناتجة عن الخطيئة ، عن تمزق الذهن بسبب الخطيئة .

ويدعى صحو الذهن ايضاً حالة الباب المغلق : ان الحارس واقف يغلق الباب دوماً. ويكون الذهن حينذاك « نقياً » أي فقيراً وعارياً . **منسلخاً عن العالم** . فحين يكتشف القلب الانسلاخ والتخلي عن العالم يصير نقياً مستنيراً. حين نكتسب روح الفقر الذهني يصير الذهن متقبلاً **وشفافاً لأشعة الجوهر الالهي** اللامدرك ، واذا ما نزل الى القلب ينفجر فيه نور الله ويسطع بهاء صورته ومثاله . القضية قضية معرفة ذاتنا كما هي ، على صورة الله ، فاذا ما جعلنا ذهننا هادئاً سالماً غير مضطرب بتأثيرات الخطيئة والاحاسيس الخارجية ، ورأيناه كما هو في الأصل ، استطاع حينذاك مشاهدة النور الالهي ، اذ لا يستطيع معرفة الشيء إلا شبيهه . **«لا احد يستطيع اكتساب المعرفة الروحية ما دام متغلباً للاهواء الجسدية والعقلية»** (القديس كاسيانوس) . « واذا ابصر الانسان نفسه حقيقة كما هي مات رعباً » ...

ان صحو الذهن في الحقيقة حالة يجب ان نكتسبها وان ندوم ونعيش فيها ، وفيها ننال بقية النعم الالهية وانوار المعرفة ، وإن في

أوقات مختلفة . ان صحو الذهن او حفظ القلب هو إعادة ذهن الانسان الى طبيعته الأصلية الحقيقية ، والانسان في هذا العالم يستطيع ان ينال مثل هذه النعمة ويحفظها ، اذا ما انفتح الى نعمة الله .

كنا قد رأينا مراحل الصمت : الصمت أولاً عن الكلام البطال وعن سائر الحواس الخارجية ، ثم الصمت في القلاية عن الذكريات والاهتمامات العالمية ... وأما الآن فالراهب يكتشف وجهاً اخر للصمت اكثر عمقاً ونوراً : لا الصمت كحالة انتقالية موقتة بل الصمت النير كحالة عادية طبيعية للذهن ، حالة الاستكانة والسلام الآتي لا من العالم بل من القلب ، من الداخل . ان الذهن الذي عاد الى كماله ووحدته الأصلية يعيد السلام للانسان كالهدوء الذي يعقب العاصفة على سطح البحر. ان صحو الذهن يعيد الهدوء والسكينة فلا يعود الذهن يضطرب بالأحاسيس والمشاعر الخارجية بل أصبح يطابق كيانه . ليس كيان الذهن ثرثرة بل صمت ، إلا ان مخيلتنا تتكيف بالأشياء التي تتصورها فتصبح « مكوّنة » وفق هذه الصور .

ولنحاول ان نتوغل أكثر ونفهم هذه الحالة . علينا لهذه الغاية ان نتجاوز أنفسنا ، وهذا يتطلب تمريناً .. ان صمت النفس يعني اولا الانسجام الذاتي : كانت النفس قبلاً « مفترقة » (divergente) ، محاربة ، مجزأة ومنقسمة على ذاتها « ضاجّة » (stridente) ، ولكنها في صمت النفس ، عند رجوعها الى ذاتها ، تجد ثباتها وراحتها وتوازنها ، تجد سكونها فيصبح كل شيء فيها سلاماً وانسجاماً. ان النفس المطهّرة ، البسيطة ، الخالية من كل تعكير ، ترى ذاتها وتستريح في ذاتها ، وفي راحتها هذه هي صامتة ، لا تعود تصرخ لا عن طريق الاهواء ولا عن طريق التفكير ، بل قد تصالحت مع نفسها وأصبحت هي ... اننا نحاول بهذه التعابير ان ندرك شيئاً يفوق التعبير . لان صمت النفس هذا

أعمق من صمت اللسان ومن صمت الافكار ، إنه ينجم عن انسجام النفس مع ذاتها . انها صامتة لانها هادئة ، ساكنة . انه « السلام الذي يفوق كل عقل » الذي هو أعمق من كل عقل . السلام لا يستطاع تحليله وفهمه لانه يسبق التحليل ، هو قبل الفكر والتحقيق . وهو حالة نرغب الاحتفاظ بها الى الأبد .

والنفس صامتة ولكنها ليست خرساء صماء . انها تكتشف في شفافيتها الاشعة الالهية التي كانت قد حجبتها عنها الاهواء وأمور العالم. تكتشف وتعكس اشعة الحضرة الالهية واذ تستنير بهذه الحضرة النيرة تطفق تنطق : تصلي وترنم ، تتهلل وتنشد . « الروح » فيها يتهلل . بحضور الله العميم في داخلها تتغير النفس وتتحول ، ولا تستطيع الا عملا واحداً ، هو قول العبادة والتمجيد . هذا هو صوت الصمت ، على صورة ومثال « الكلمة » الذي قبل ان يعتلن كان مخفياً في حضن الآب منذ البدء والأزل .

ولكن كلمتنا نحن تسلك الآن الطريق المعاكس . ان الانسان قد ترك الفردوس ، طُرد من أمام وجه الله ، ولكن لما كان ملكوت الله في القلب فهذا يعني ان الانسان قد طرد من قلبه. ان ذهننا طرد من فردوس القلب أي فصل عن قلبنا ، وهو يتيه في التجوال في اهتمامات الارض مثل شيطان سفر ايوب ، ولا يستطيع الرجوع الى ذاته الا بالمسيح الذي نحن نتبعه . لقد أتى المسيح « من الخارج » اذا جاز القول لكي يجذبنا وراءه الى داخل الآب . فيجب ان نتبع المسيح بذهننا ايضاً في الطريق النيرة المضمونة التي تقود الى مكان القلب ، وذلك باتحاد كلمتنا (ذهننا) بكلمته ، بصلاة اسم يسوع ، في أعماق القلب . واذا ما أقام المسيح ذهننا من جديد فاستقر في مكان السلام ، في الفردوس الداخلي ، « ملكوت الله في داخلكم » ، فالذهن حينذاك يعود ويخرج دون ان يخرج — في حركة محبة نحو القريب ، لكي يدله ايضاً على طريق ذلك الفردوس البهي لانه ليس ملكاً لنا . .

الفصل الثاني عشر

التحرر من الأهواء : الوداعة والاتضاع

هذه هي الخطوة الأخيرة في طريق التطهر من الاهواء : الوداعة والاتضاع معاً : « اني وديع ومتواضع القلب ». في هذه المرحلة نتحد بيسوع ، وانه لمن الصعب جداً التكلم عن هذه الحالة التي هي بمثابة نهاية الطريق ومثل تتويج لكل طريق التطهير . التواضع فضيلة لا توصف ، تجتمع فيها كل الفضائل ، وهي تشملها كلها وتتجاوزها . طريق التواضع فائقة الوصف ، ولكننا بالوداعة نستطيع الاقتراب منها .

« طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض » ، والارض هنا بالمعنى الروحي ، والمقصود انهم يرثون كل شيء . لان الوداعة اذا أقامت في الذهن الذي وصل الى السلام والسكينة بعد مراحل التطهير السابقة ، وخاصة بعد مرحلة الصحو وحفظ القلب ، تحقق اتحاداً بينه وبين طبيعة الله .

لنحلل الوداعة : ان اللاهوى في عرف الآباء يجعلنا من طبيعة الله (connaturel) ، وكما يقول بطرس الرسول « شركاء الطبيعة الالهية » (٢ بط : ١) . اما الهوى فهو بالعكس بمنزلة محاولة الارادة المبنية على الأنانية والعدم لنسيان الله واحلال العدم محله ، فالهوى اذا

لا يستخدم الراهب (او من يلتزم الحياة الروحية) عنفاً معاكساً، لا يقابل العنف الخارجي بعنف داخلي ، بل بالوداعة : «من ضربك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً» . انها الوداعة التي لا تضطرب لهجمات الأهواء ولا تفقد هدوءها وتتغير ، بل تبقى كما هي متماثلة متوازية مع ذاتها (équanimité) . لقد أضحت النفس ممتلئة من ذاتها بل من حضور الله فيها ولذلك لا تعود الأهواء تجرحها وتؤثر فيها . فعندما تنظر الى العالم فهي تنظر نظرة وديعة ، بالرغم من كل مسبة وشتيمة ، لأنها تنظر الى العالم بوضعها هي ومن خلال ذاتها، أعني كعادمة وفاقدة كل هوى . لذلك وبسبب هذه النظرة الوديعة لا تعود الأهواء قادرة ان تقتلها أو تغلبها أو تقلقها . حين نردّ على الأهواء بالأهواء تقلقنا الأهواء . ان الهوى يغلبنا عادة بواسطة هوى آخر ، مثلاً : انْ غضب علينا احد غضبنا عليه . اما اذا لم نرد على الاهواء بالاهواء فالعالم يُغلب وسلسلة الاهواء تنقطع. العالم لا يستطيع شيئاً ضد النفس الوديعة ، لان الشر يغتذي بالشر الذي يثيره، فماذا يقدر ان يصنع أمام الوداعة ؟ ولذا فالنفس لها القول الفصل بالنتيجة ، والنفس الوديعة « ترث الارض ». انها ترث هذه الارض أولاً ، هذا الدهر الذي نعيشه، لان عبارة « ورث الارض » تعني غلبها: « غلبتُ فورثتُ » ... ثم ترث كما هو بديهي الارض الاخرى ، الارض الجديدة المتجلية في القيامة والتي تسميها أناشيد الكنيسة « أرض الوداعة » . لقد قال الرب يسوع « ثقوا فقد غلبتُ العالم » : لقد غلب الرب العالم أي قطع بوداعته تيار الشر الساري في الناس ، ولذا فهذا التيار يتوقف عند الوداعة وينقطع.

وطابع الوداعة الثاني انها لا تفعل شيئاً من ذاتها بل تترك الله يفعل فيها. انها في هذا المضمار تتبع المسيح وتتمثل به حقاً وهو تحديداً

الإله ــ الانسان ، أي الانسان الذي تعمل فيه الألوهة . عندما يكون المرء وديعاً يكون حليف الله . « إتكلْ على الله وهو يُجري » (مز ٣٦ : ٥) . الله هو الذي يحارب عنا ولأجل هذا يقتضي ان نكون ودعاء وودعاء بصورة مطلقة . فاذا حاربنا نحن من أنفسنا ، نفقد محالفة الله لنا ونخسر . اذا حاربنا من أنفسنا ولم نترك الله يحارب عنا فاننا نصبح حلفاء الاهواء وان قاومناها .

ان الوداعة هنا تتصل بالاتضاع، الذي هو الفضيلة الأكثر صعوبة . يقول إسحق السرياني « الكمال لجة من التواضع » ومن الصعب اضافة شيء على هذا التحديد للتواضع . المتواضع يجعل الله يملأه بسهولة وكلياً ، بعكس المتكبر لان الكبرياء تريد دائماً ان ترفعنا ، ولكنه ارتفاع كاذب لانه يقيمنا كحاجز أمام أنفسنا . اننا نحاول أملاء وجودنا كله بكياننا وهذا أمر جنوني حقاً واحمق ، فكأننا نريد ابتلاع كل الوجود . ولكن الى أين يمكن ان تؤدي الكبرياء ؟ الى أين نمد هذا الأنا المحدود الى ما لا نهاية ؟! انها لحماقة . بينما التواضع هو العكس تماماً . انه التنازل والانحاء امام اللانهاية الحقيقية ، لا نهانية الله . وبهذا الانسحاق والانسحاب من أمام الله ، عندما لا نضع بيننا وبينه أي حاجز ، سواء من الارادة او الفكر أو الأهواء ، عندما يصبح الذهن متضعاً ، يجتاحنا الله ، وعندما يجتاحنا الله يرفعنا معه فنصبح الهيين (déiformes) ، مؤلهين . هذا معنى الآية : « من اتضع ارتفع » .. عند ذاك نصل الى نهاية الكمال الذي لا نهاية له . لقد اقتنينا الله ، فهو يحيا فينا ولسنا نحن نحيا من بعد . وليس الكمال كله سوى لجة التواضع هذه التي يهبها الله لنا في آخر هذه الطريق : طريق تطهير القلب التي لا نناضل فيها ونتألم ونبكي الا لنصل الى شاطىء التواضع ، ذلك البحر الذي لا قرار له ..

الفصل الثالث عشر

حالة اللاهوى ، أو الصفاء

في نهاية مرحلة التحرر من الاهواء التي تؤلف أساس كل حياة روحية ، بل تستمر ملازمة كل مراحل الحياة الروحية ، نبلغ الى حالة « اللاهوى » (apatheia) — عدم الانفعال بأي هوى — وتسمى أيضاً نقاوة القلب ، وهي حالة الراهب الذي ناضل وجاهد واجتاز كل مراحل النسك حتى وصل بنعمة الله الى الميناء ، ميناء النقاوة الداخلية والصفاء .

قد تكون هذه الحالة بعيدة المنال (وقد لا تكون) ، ولكن ينبغي لنا على كل حال معرفة ثمار جهادنا منذ الآن وما تؤول اليه بنا المراحل النسكية لكي نستطيع :

١ — ان نتبين مدى تقدمنا في الطريق وعلامات هذا التقدم .

٢ — متى عرفنا جيداً فحوى تلك الحالة ، ان نتحفظ بأشد حرص من بعض الاخطار (اعني الاوهام والطمأنينة الكاذبة والثقة الباطلة بالذات) التي ترافق عادة أوقات السلام الروحي .

في وصفنا لحالة « اللاهوى » لا نقدر ان نعتمد إلا الايحاء والاشارة فقط الى واقع هو موضوع خبرة شخصية : لا نقدر ان نصف

بياض الثلج المعروف [illegible]
بياضاً من الوزة واما الوزة فشكلها كذا وكذا ... ! وكما انه لا بد لنا من رؤية ذلك البياض كذلك لا بد لنا من اختبار تلك النقاوة لنتمكن من فهم فحواها .

ان أول إكليل حقيقي يناله المرء في جهاده النسكي هو الصفاء ونقاوة القلب ، والنقي القلب يستطيع وحده ان يذوق معاينة الله وان يسعى بالتالي نحو الحالة الأخيرة ، التي هي اتحاد مع الله . ولذا يجب ان يكون **الصفاء والنقاء الداخلي موضوع رغبتنا الدائمة وشوقنا اليومي** ، وليس فقط موضوع رغبتنا الحارة كل يوم ، بل مرحلة نبلغها لكي ننطلق منها الى شيء اكثر منها واسمى ، الى الاتحاد بالله .

ولنر الآن كيف وصف الآباء مرحلة صفاء القلب هذه وما هي دلائل البلوغ اليها :

ليس لجهاد النسك كله سوى معنى واحد وغاية واحدة : ان يقتل الموت الذي فينا ويقيم عوضه الحياة في المسيح ، او بعبارة أخرى ان يعتقنا من عبودية الأهواء التي تفسد حياتنا كما رأينا ويؤمّن لنا صفاء الذهن ، بل ان يحرّر الذهن والجسد ويقيم فينا حالة جديدة وحياة جديدة (بالمسيح) . وهذه الحياة الجديدة هي عكس السابقة : هي بالنسبة لنا « كالفيلم السلبي » الذي يحوّله المصوّر الى ايجابي فتعود الأمور الى وضعها الصحيح . هذا تشبيه يطابق وضعنا الى حد ما فقط لاننا في حالة عدم الهوى لا نتغير على صعيد الحياة الخارجية فحسب بل الداخلية ، في الانسان الداخلي . انسان جديد يولد فينا وجسدنا هذا يحييه روح آخر . حياتنا اصبح يحرّكها في داخلنا قلب آخر ، ينعكس فيه العالم والاشياء بصورة مختلفة كل الاختلاف عن الماضي : إن من بلغ

الى صفاء القلب يتحول عن الشر ويتجه الى الخير بالحماس نفسه والفرح نفسه والهمة نفسها التي كان يتحول بها سابقاً عن الخير ويتجه الى الشر . كان تأثره قبلاً بجاذبية الشر « طبيعياً » فيه ، لان الخير لم يكن قائماً في وجداننا بعد ، قبل بزوغ الانسان المسيحي فيه . عندما يستفيق الوجدان المسيحي فينا تقوم المعركة بين الخير والشر ، وفي هذه المعركة نقع في التجربة ، فننتصر احياناً ونسقط احياناً اخرى ، ولكن حين يجاهد الله معنا ، وحين تجعلنا نعمة الله في حالة اللاهوى ونقاء القلب ، فما كان من قبل جهاداً عسيراً يصبح امراً يسيراً وسهلاً ، مستلذاً ونيراً . حينذاك نفهم قول الرب : « احملوا نيري عليكم فإن نيري هيّن وحملي خفيف » . الانسان الآن في حالة قيامة حقاً ، انه منبعث روحياً ويستطيع فهم القيامة لانه انعتق من حالة الموت التي كان فيها ، وهو الآن حيّ ، متجه نحو ينابيع الحياة .

ان دیادوخوس (مطران فوتيكي) يعرّف الفضائل الروحية في مقدمة كتابه « مائة فصل في الكمال الروحي » بصورة تلخّص سرّ حالة الصفاء . فما يقول ان « الايمان فكرة عن الله خالية من أي هوى » ، و « عدم البخل هو الرغبة في عدم الاقتناء بهمة تساوي رغبة الاقتناء عادة » ... انه تغيير الاتجاه كلياً ، فكل النزعات التي كانت تحركنا نحو الشر تحركنا الآن نحو الخير وبالعزم نفسه . وهذا ينطبق على كل الفضائل ، ففي فضيلة الوداعة مثلاً ، عوض اضطراب النفس بالغضب وتحرّكها ضد الآخر بعنف ورغبتها في النصرة عليه تملك المرءَ رغبةٌ معادلة في عدم الانفعال وعدم التوجه ضد الآخر وعدم الغضب عليه . المرء حينذاك ، بصورة تلقائية ، يتجه نحو الله ، نحو الخير ، فيصير وكأن الأهواء لا تعود تمسه او تعرض له .

ولكن حذار ، اذ ينبغي التوضيح ان الاهواء تستمر في وجودها

حتى في تلك الحالة . أسباب الاهواء تبقى والراهب يظل معرضاً لها وللتجارب المحيطة به ، وهو يراها ويتبينها . فليست حالة اللاهوى نوعاً من سحر يحررنا من الاحساس ، وإلا لبطل الامر ان يكون روحياً . الراهب اذاً يبقى محارَباً يواجه التجارب ، ولكن ميزة هذه الحالة الجديدة انه لا يعود يجد صعوبة في رفض مسببات الاهواء والخطيئة ، ويسهل عليه رد التجارب عنه وعدم الاكتراث لها . وهو يفعل ذلك تلقائياً او يكاد .

ويجب ان نعرف أيضاً ان مَن رفعه الله الى حالة عدم الهوى لا يُعصَم من السقوط . انه لا يزال ، كيانياً ، في وضع يستطيع فيه ان يسقط . ليس هو خارج إمكان الخطيئة كالملائكة او الانسان بعد القيامة حيث تكون الخطيئة قد أحرقت . ما دمنا نعيش على الارض فنحن معرضون لخطر السقوط ، بل هذا السقوط تزداد خطورته كلما حصل من ارتفاع أكبر . ولكن هذا الاحتمال يبقى ضعيفاً من الوجهة النفسية والروحية لان جهاد النسك يكون قد حررنا ، ومشاعرنا قد أضحت مماتة فيصير احتمال الوقوع في الخطيئة ضعيفاً جداً .

ولننتقل الآن الى فحوى حالة النقاء الداخلي واللاهوى ومحتواها العميق :

انها اولا بمثابة جمع (synthèse) **سميم وعضوي لكل الفضائل :** فاذا أهملنا أقل فضيلة تعذر علينا بلوغ هذه الحالة ، وعلى من يقتني فضيلة واحدة اقتناء سائر الفضائل : لان من يخطىء في احدى الوصايا فقد اخطأ في الناموس كله . اننا لا نصير متواضعين ما لم نحقق صحو الذهن ويقظته ولا نحقق صحو الذهن بدون تنسك الجسد ولا نستطيع ممارسة تنسك الجسد دونما ايمان وثقة بالله ...

وحالة اللاهوى ثانياً هي نوع من العادة تكسب ذهننا عادات جديدة : فالحياة الروحية قسمها الاكبر عبارة عن عادات على منوال عادات حياة الجسم الطبيعية (كالمشي مثلاً او كالكتابة) . في الحياة الروحية نكتسب عادات روحية نحصل عليها بنعمة الله — اذا بقينا منفتحين دوماً للنعمة الالهية[1] . لذا يجب المثابرة (الضرورية جداً) ، يجب ترك ما هو وراء والتطلع الى الامام . ولذا لا تأتي العادة دفعة واحدة وبصورة مفاجئة . ولذا أيضاً هناك درجات في النقاوة. فنقاوة القلب او اللاهوى ليست حالة واحدة مماثلة في الجميع — كل نجم يختلف عن الآخر — كما انها ليست حالة محدودة ، « منتهية » . الامر المهم ان نتعلم ماهية الحياة الروحية عامة ، ان نعرف كيف تكون الحياة الروحية الاعتيادية بالنسبة لنا .

ثالثاً ، نلاحظ ان الراهب الذي يقترب من « اللاهوى » تسود نفسه حالة سكون وسلام ، حالة طمأنينة هادئة واثقة ، وهذه هي علامات النقاوة الاكثر ظهوراً للخارج . « ثمر الروح السلام ، والوداعة ، والتعفف ... » (غلا ٥ : ٢٢ — ٢٣) . هذا السلام (hysykhis) الذي يرافق صفاء القلب هو اثمن خيرات الراهب وأعزها ، هو الخير الاخير الاسمى . أعني ان الذهن حينذاك ، بل الانسان بكامله ، قد وجد مركز ثقله ، وجد ذلك اليقين الذي يؤمن له السلام الداخلي في وسط القلق الخارجي . لا سلام العالم بل سلام المسيح (في داخله) في

١ — ويمكن النظر الى الطريق كلها من زاوية اكتساب عادات جديدة روحية ، فيفهم النسك حينذاك كجهاد لاكتساب عادة الفضائل : ان عادة ممارسة الفضائل لا تحضر بسهولة ، فيجب ان اعيد اليوم ما نسيته امس وسأنسى غداً ما تعلمته اليوم... سأنسى مثلاً ان اتصرف بتواضع او اسلك بهدوء فتظهر لي اخطائي والمس عيوبي فاعيد الكرة وهكذا . لان هناك عنصر العادة والجهد الذي لا بد منه لاكتساب العادة .

وسط العالم . انه لا يعود يخاف العالم لانه ليس بعد عبداً له. كل الاهواء انما هي علامات للعبودية . لقد بلغ السلام لان ذهنه وإرادته لم يعودا في قبضة الاهواء بل صارا فوقها ، في الله ، مركزين حول اهتمام أعلى . لقد ماتا بالنسبة للعالم والاهواء ولذلك فهما « يستريحان » في الله بسلام : « طوبى للاموات الذين يموتون في الرب منذ الآن » (رؤ ١٤ : ١٣) .

رابعاً ، ولكن هذا السلام « راقص » كما يقول الآباء ، وهذه الراحة راحة ايقاعية (rythmique) ، الراهب فيها يسير ويتقدم ، ولكن في سلام ، دونما مشقة ولا صعوبة . ان من بلغ الى نقاوة القلب لا يشعر بانجذاب او ميل الى الكسل بالرغم من حالة الراحة والسلام . انه يتابع سيره وكأنه لا يعرف ولا يتبين الفضائل التي وصل اليها والظاهرة علاماتها . هو لم يستبدل عبودية الاهواء بعبودية الفضائل . لا يقول « كفى ... لقد وصلت .. » . ولكن التقدم عنده قد تغيرت اسبابه ، فهو لا يعود يتقدم كما في طريق النسك من جراء محاربة الاهواء وبفعل هذه المحاربة . ولكن لأسباب اخرى أعمق واسرع مفعولاً ، اكثر جذرية : ان محرك تقدم المرء الآن هو احساس بلا نهائية الكمال . نحن في هذه الحالة كأننا « مشروقون » (aspirés) ، منجذبون كلياً دون ان تمسكنا وتعيقنا اهواء . فأشعر آنذاك ان السلام الذي في لا نهاية له ، وهو ينتزع مني باستمرار صلاة ملتهبة ، « صرخة » هي دائماً جديدة ، ويغمرني بمعرفة الله معرفة هي دائماً معرفة اخرى جديدة ، ومحبة هي دائماً اكثر محبة واكثر عمقاً وغير كافية . انا أشعر بأني لم ابلغ الكمال : « الويل لي اني رجل خاطىء » (اش ٦ : ٥) . القديسون يشعرون بالبعد بين الله والانسان اكثر من الخطأة ، وكلما اقترب القديس من الله أحس بأنه بعيد منه ... اذاً ليس في هذه الحالة فقدان للتقدم او نقصان فيه ، وانما قد تبدلت طريقة التقدم .

خامسا ، ان من وهبة الله سلام القلب وصفاءه يشعر بانه في علاقة اخرى – في سلام – مع العالم ايضا : انه لا يعود يدير ظهره للعالم . حين كان العالم لي مزدوجاً اي نافعاً وفي الوقت نفسه مثيراً للتجربة والخطيئة وكان ينبغي الابتعاد عن أسباب الأهواء، كان يترتب عليّ التحفظ من العالم والسلوك فيه بحكمة ، لانه من الناحية النسكية لم يكن نافعاً لي . ولكن الامور قد تغيرت الآن : لقد تقهقرت الخطيئة وتحررتُ منها فلا يعود العالم يخيفني بل قد أصبح ،حسب قول الرسول، الطبيعة التي تنتظر العتق وتئن متوقعة الخلاص (رو ٨ : ٢٢) . لقد اصبح العالم صديقاً لي وشفافاً ،صديقاً صداقة فردوسية ، يحمل لي بهاء الفردوس .. ان الانسان الذي وصل الى هذه الحالة يستطيع ان ينقل الفردوس اليه . انه لا يرفض العيش في العالم والحضور فيه ، لان كمال المسيحي انما هو المسيح ، الاله المتجسد في العالم . ولكن على المسيحي الذي يريد الحضور في العالم ان يتحرر اولاً من العالم واهوائه ثم يعود اليه شفافاً ، خالياً من حاجز الاهواء الذي يفرقنا عن الله ويجعلنا عبيداً للعالم. ان حضوراً مثل هذا يكون حينذاك نقياً بالكلية وبالتالي فعالاً بالكلية ، لأنه لا ينسب الى ذاته اي فضل وليس فيه اي كبرياء ، حتى بصورة لا واعية . كل عمل يعود على فاعله ويؤثر بالنتيجة عليه ، فالمرء ، وان كان يعمل من اجل الله ،يستطيع ان يجلب على ذاته نتائج الهوى الوخيمة اذا تخلل نشاطه الهوى . كان في رومانيا راع تقي صار يرى رؤى ويصنع عجائب شفاء ويعظ الناس بكلمة الله ، فكثر زواره ،فبدأ شيئاً فشيئاً يحوّل عطية الله الى دواع للأنانية ، ولما لم يعتن به المسؤولون في الكنيسة استسلم تدريجياً لعادة السكر وسقط ...

هذا لا يعني وجوب الامتناع عن العمل في العالم ، بل اذا عملنا – في الوقت المناسب – فنحن نتطهر ونتحرر ونضع انفسنا تحت تصرف الله مستسلمين له . كل ما صنعه القديسون أنهم ازالوا كل حاجز بينهم وبين الله ، اي بين العالم وبين الله ، فصارت النعمة تعبر من خلالهم الى العالم . اصبحوا أداة للنعمة ، او كأن النعمة قد تجسدت فيهم ، فلم يعد فيهم شيء بشري بالمعنى السلبي للكلمة . كل ما كانوا يعملونه كانوا يعملونه من الله وبالله كأداة طيعة له . يجب اذن ان لا نعتقد ان من بلغ النقاوة يمتنع عن العمل . بل هكذا استطاع القديسون ان يغلبوا العالم ويربحوه – لا هم بل الله بواسطتهم . ولهذا يقول الكتاب ان القديسين « سيدينون العالم » . انهم بوجودهم يظهرونه على حقيقته ، يحكمون عليه حكماً صحيحاً مثالياً ، لا يعروه اي بغض او تحيز ، كحكم الله نفسه . ولهذا ايضاً هم اخذوا العالم على عاتقهم ، على مثال معلمهم يسوع ..

اخيراً يجب رفع الشكر لله والاتجاه اليه دائماً لأنه أنعم علينا بحالة الصفاء واللاهوى هذه التي هي بداية خيرات اعظم . يجب التذكر على الدوام انه هو الذي يعمل فينا ، هو يطهرنا وهو يهبنا سلامه لا سلام العالم . نحن بدونه لا نقدر ان نصل الى شيء ، بل يبقى الهدف خارج إمكاننا . بدون معونة الله ونعمته لا يصل احد الى الكمال . ان نسكنا لا يستحق بحد ذاته حالة اللاهوى ان لم تأت نعمة الله . ولكن النعمة الالهية لا تعطى إلا لمن يعملون ... الله يسعف من يجدّ ويتعب والنسك ضروري . يقول الله في كتاب المزامير :« وجدت داود عبدي فمسحته بدهن قدسي » (مز ٨٨ : ٢٠) . فهناك مثل مشاركة بيننا وبين الله، عمل مشترك (synergie) . « من يطلب يجد ومن يسأل يعطى ومن يقرع يفتح له » (متى ٧ : ٩) . الله مستعد ان يعطينا في كل حين ولكن إن طلبنا وسألنا وقرعنا . والله يريد بذلك ان نضاعف جهودنا وفي الوقت نفسه ان نتعلم الاتضاع . ان مبدأ المشاركة بين الانسان والله حقيقة اختبارية واقعة كل يوم وليس أمراً فكرياً مجرداً . نحن نختبر في

الكثير من الاحيان اننا بمقدار ما نجتهد ونناضل يبتعد عنا النجاح وتضعف النتائج . فيريد الله بذلك إفهامنا اننا لا نملك خلاص انفسنا بانفسنا . ولذا بالضبط يتأخر عن المجيء الينا فلا نحس بحضوره ولا بنعمته .. فنسير وكأننا في ليل مظلم معتم .. وفي الليل نتعرف على حقيقة ذواتنا .. ولكننا نتعرف عليها لا في الحلم او في سرير الكسل والنوم بل في العمل والجد والتعب ... نعم ليس هناك سوى طريقة واحدة للتقدم هي السير ، وايضاً السير ، ودائماً السير .. والسير في الوقت نفسه يعلمنا الاتضاع .

الفصل الرابع عشر

حالة الاستنارة : ما هي

نصل في بحثنا اليوم الى حالة الاستنارة وهي حالة أسمى من حالة اللاهوى . هي مرحلة أخرى في طريقنا تلي الجهاد النسكي التطهيري[1] .

اولا – الاستنارة تلي التطهير

أو يجب مبدئياً ان تليه ، ان يكون التطهير قد سبقها . والتطهير يبدو هنا كعهاد ، كمعمودية ثانية لأن النفس بعد التحرر فقط وبعد الانعتاق من الاهواء تستطيع ان تفهم أمور الله وتختبرها بشكل واضح

---

١ – لنذكر هنا ان مراحل الحياة الروحية متتابعة ولكنها في الوقت نفسه غير منفصلة . الحياة الروحية غير مجزأة بشكل أستطيع معه القول : « لقد انتهيت الآن من طريق التطهر وأدخل في طريق الاستنارة !! » لان المراحل الروحية كثيراً ما تتداخل فيما بينها . ولكننا بهذا التصنيف نميز فقط بين حالات نفسية روحية مختلفة وقد تساهم احداها في نعم تعود لحالات أخرى . وعندئذ تأتي هذه النعم من أجل مساعدة المرء وتشديده وتكون مخففة او « مكيفة » .

ثم لا ننس اننا في طريق ، ولذا فالحالة النفسية الواحدة قد تستمر فينا نامية ومتعمقة بصورة مطردة والى الأبد .

وأخيراً يجب ان نعرف اننا سنصادف في بحثنا أشياء مجردة وغير واقعية في الظاهر ، أشياء تفوق امكانياتنا سواء في الفهم او في التطبيق . ولكن شعور العجز هذا مرتبط بوضعنا الآن وسنعرف في المستقبل باذن الله ان هذه الامور انما هي حقائق تختبر .

ومضمون . لقد كانت معرفتنا لله سابقاً معرفة جهدٍ من أجله وفي سبيله، معرفة تعبٍ ، في الكدّ والتواضع . ولكن من الضروري توسيع هذه المعرفة وتعميقها باستمرار لكي تصير معرفة مباشرة « أولية » لا « مشتقة » كما كانت قبلاً .. ان مرحلة الاستنارة التي تعقب مرحلة التطهير تطابق سر الميرون المقدس الذي يعقب سرّ المعمودية . اذ هناك تطابق بين أسرار الكنيسة المقدسة وحالات النفس الداخلية ، وهذا التطابق مبني على سر المسيح عينه كما حققه هو. فكما ان سرّ المعمودية يمثل موت المسيح وقيامته ، وبالمعمودية « نصطبغ بموت المسيح » أي نموت للعالم ونحيا حياة جديدة ، على هذه الصورة نحيا طريق التطهر والجهاد النسكي حيث نموت ونقوم في المسيح بصورة دائمة متتالية . أما سر الميرون فيمثل موهبة الروح القدس التي تختم النفس بعد المعمودية : انه سر العنصرة الذي تقابله حالة الاستنارة موضوع بحثنا الآن . واما سر الشكر « الافخارستيا » التي نتناوله بعد الميرون فيمثل حالة الاتحاد بالله التي تلي الاستنارة ، والتي تقابل مجيء المسيح الثاني ، حين سنساهم في ملكوته « بأوفر حقيقة » . وهكذا نلاحظ ان حياة الراهب تنبت وتتأصل في أسرار الكنيسة المقدسة من جهة وفي حياة المسيح من جهة أخرى لأن المسيح « يراجع » حياتنا (nous récapitule) . الى المسيح نبلغ أخيراً وفيه نجتمع وبه نتحد. الأسرار المقدسة إذ تؤهلنا أكثر فأكثر لحياة الكنيسة انما تؤهلنا بها للمسيح ، ولذلك يجب ان نريد محبة المسيح فينا لننتقل من مجاهدة الاهواء الى مرحلة الاستنارة .

ثانيا – في الاستنارة ينبع نور الروح فينا

كل الفضائل التي ساعدتنا في اقتلاع الأهواء تساعدنا أيضاً في هذه المرحلة الجديدة في تقبّل مواهب الروح السبع ، وكأن تلك الفضائل انعكاس لهذه المواهب . ولكن الروح القدس بعد تحررنا من الاهواء يصبح ينبع فينا منيراً كياننا من الداخل ، ومعطياً ايانا فهماً جديداً

ورؤية جديدة للعالم . بكلمة واحدة ان الاستنارة تحقق فينا ثمار الروح . لم تعد النفس مظلمة بالأهواء بل أضحت مغمورة بالنور . ليس هذا النور نور التجلي تماماً حيث « يتلألأ الصديقون كالشمس » (مت١٣: ٤٣) ، ذلك النور المؤلّه والالهي الذي يُتحدنا بالله دون وسيط . انما هو نور روحي يظهر بشكل اتساع امكاناتنا في فهم الله ومعاينته من خلال المخلوقات . بعبارة أخرى نستطيع القول ان حالة الاستنارة هي معاينة الله نابعاً في النفس وفي كل مكان كينبوع نور ينير كل شيء . يقول رويسبرك : الرجل الفاضل قد يتذكر الله ويتأمله من خلال الأشياء ، أما القديس فالله هو الذي يريه الاشياء وهو يعاين الله في كل شيء . في مرحلة الاستنارة احساسنا بالله او « حسّ الله » فينا اولي لا نوي ، والواقع المخلوق شفاف . إني ارى الله اولاً فتصبح الاشياء من ثم شفافة . كانت الاشياء سابقاً تدلني على الله بصورة غير مباشرة وتشير اليه ، أما الآن فقد انعكس الأمر وصار الله هو الذي يريني الأشياء في نوره .

ثالثاً – الاستنارة عمل روحي

انها تتحقق في الذهن العميق بصورة واعية ، في وعي روحي. نحن نصير فيها « روحانيين » (pnevmatikoi) اي انها توصلنا إلى مستوى الروح ، تقيمنا على صعيد الروح . هناك اولاً الانسان الجسداني ، ثم النفساني ، واخيراً الروحاني . كانت الاهواء قبلاً تعيق تكامل انسانيتنا بنعمة ايانا من البلوغ الى الانسان الروحاني . كانت الشهوات الانانية و« الانا » المحتكر سياجاً متوسطاً وحائلاً دون ذلك . فلا بد من موت للأهواء والأنا والعالم (« صُلبت للعالم » غلا ٦ : ١٤) من اجل حلول مستوى الروح ، « وتحقيق » حياة الروح فينا . ان صعيد الروح

يعني استطاعـــة الوقوف الدائم في حضرة الله ، لا في حضرة العالم أو « الأنا » بل باتجاه الله . ولقد أحيي الروح فينا ، الروح المتطلع دومـاً الى الله ، فاصبح ينير كياننا كلّه بتعرفه على الله وتبينه اياه هكذا في كل شيء ، فصار الله الكل في الكل .

رابعاً – الاستنارة تجديد للنفس

يصبح الذهن في حالة الاستنارة واعياً ، روحياً ، كما رأينا ، ولكن ليس الذهن العقلي فقط بل الذهن العميق أي كل قوى النفس وملكاتها. ليست المعرفة الجديدة معرفة ذهنية ، كما انه ليست القضية قضية ذكاء. فالاستنارة تشمل وتجتاح كل نفسنا مالئة اياها بالمحبة . ان معرفـة الله الآن اصبحت تعني محبة الله ومحبته بشكل آخر . المعرفة بحافة سلبية ، المعرفة الخالية من المحبة لا تعرف حقيقةً ما تعرف بل تريد الاستيلاء او السيطرة عليه ، بعكس معرفة الاستنارة . فالقديسون المستنيرون الذين يعرفون الله في المحبة يحبون الحيوانات والاشجار وكافـــة المخلوقات ... اذ يرون الله فيها ولا يؤذون احداً أو يستولون على شيء.

خامساً واخيراً – الاستنارة تعود بنا الى معرفة الله عن طريق الخلائق

لم تعد الخلائق تمنعنا وتحجزنا عن معاينة الله بل قد انعكس الامر. لقد أصبحت المخلوقات نيرة شفافة تُعدّ نفسنا وتهيؤها لمعرفة الله معرفة مباشرة ، معرفة الاتحاد ، وتعوّدنا تدريجياً عليها . لذلك يقول الآباء ان التأمل في هذا الكون مرحلة لازمة ، مرحلة تحضيرية لحالة الاتحاد الأخيرة . ان عادة التأمل في الله من خلال عالمه من شأنها ان تعمق فينا شعور المحبة والاحترام المقدس لأعمال الله ، تلك الاعمال التي انما نراها الآن مباشرة ، في الله .

الفصل الخامس عشر

حالة الاستنارة : فحواها

ولكن ما هو فحوى حالة الاستنارة ؟ لنستطيع ان نجيب عن هذا السؤال ونعرف قدر الامكان ما هو محتوى حالة الاستنارة الصميم سنلاحظ فيها عنصرين مميزين ونحللها :

١ – العنصر المميز الاول للاستنارة هو المعرفة الرمزية: اعني بها المعرفة عن طريق الرمز :

الرمز عبارة عن واقع او حقيقة تعني وتحمل حقيقة اخرى أعلى منها وغير حاضرة كما هي حاضرة. الرمز يحقق اتحاداً او يجمع بـين « نظامين » مختلفين للحقيقة : مثلاً العَلَم ، قطعة القماش التي ترمز الى الدولة والوطن . الرمز بمنزلة جسر ، او همزة وصل بـين عالمين ، يتيح حضور الأعلى في الأدنى والعبور من الأدنى الى الأعلى . والرمز أيضاً محدود ومحدّد ولكنه في الوقت نفسه غير متناهٍ ويخفي أكثر مما يعلن ، وعبورنا به نحو الأعلى لا يمكننا استنفاده واستغراقه . انه بمثابة نداء يصور لنا ويوحي شعور اللامتناهي واللامحصور . الرمز لا يستغرق ولا يستوعب ما يرمز اليه والا فقد بطل ان يكون رمزاً. هو يمثل ما يرمز اليه بدون ان يكون إياه . يعبّر عنه ككونه غير قابل ان يعبر عنه .

فجأة للشيء المرموز اليه، لذلك العمق اللامتناهي الذي للحقيقة الاسمى. من الضروري اذاً ان يتسع الذهن بالاستنارة من أجل معاينة حقيقة الرموز . الاستنارة ضرورية من أجل رؤية ذلك البعد الجديد « البعد الرابع » في الكون .

ذلك لان الرمز ليس امراً كيفيا وذاتيا بل هو موضوعي موجود بدقة بالاستقلال عنا وعن تفكيرنا به .

من الصعب جداً تصورنا بعداً رابعاً غير الابعاد الثلاثة التي اعتدنا عليها (طول وعرض وارتفاع) ولكن علم الرياضيات اضطرّ اضطراراً الى ان يتخيل بعداً آخر رابعاً غير ممكن تصوره وذلك لكي يستطيع تفسير الحقيقة الواقعة . نحن نفكر بالأشياء بصورة واقعية لا مجردة ، فنتصور الذرة مثلاً كرة صغيرة جداً مع انها غير قابلة للتصور . اذاً هناك بعد رابع لا يمكن تصوره وانما يشار ويرمز اليه ، الا انه موجود موضوعياً . والبرهان على وجوده تفجير الذرة مثلاً . .

ان الحقيقة تتم اذن في أبعاد أربعة لا ثلاثة . ومشاهدة ما هو أعمق من الواقع (الذرات في هذه الطاولة التي أمامنا مثلاً) أمر حقيقي موضوعي بكل معنى الكلمة بل أكثر دقة وموضوعية من الموضوعي نفسه لانه مشاهدة الحقيقة الأعمق من الحقيقة . ليس الرمز حقيقة « أقل » بل « أزود » . انه يُدخل في حياتنا اليومية ذلك البعد العميق الذي يحمل العالم .

غير ان الرمز لكونه بعداً اساسيا وجوهريا لا يمكن ان يشمله العالم ويحيط به ، بل ان ادراكنا له يقتضي منا التحرر من العالم وتجاوزه.

كما ان الجهاد النسكي التطهيري يحررنا من الاهواء كذلك ان جهادا نسكياً يعلو على الأول يؤهلنا للاستنارة . ان المعرفة الرمزية تفترض وتعني موت الذهن وقيامته : أي يجب ان يموت الذهن للتصورات المادية السابقة وينعتق منها ليدرك الحقيقة الأكثر عمقاً . يجب ان نعتمد نسك الذهن الجديد هذا لنربي فينا وننمي ذلك الحس الجديد وتلك المعرفة الجديدة . ليس الامر أمر « تصديق » ساذج خيالي بل ايمان . ليس توهماً ذاتياً بل توسيعاً للذهن . اننا بالمعرفة الرمزية نفهم ونبصر ما كنا لا نفهم ولا نبصر . انها أشياء جديدة محددة دقيقة نتبيّنها ولم نكن نتبيّنها قبلاً .

اذاً الاستنارة هي اولا المعرفة الرمزية او التأملية، ما يسميه الآباء تأمل الطبيعة والكون لانها تمد وتنقل معرفة العالم المنظور نحو البعد العميق غير المنظور الذي يستنير فيه هذا العالم بنور الله ويصبح شفافا له تعالى .

هذا وليست كل الأشياء رموزاً ، كما ان ليس كل رمز رمزاً بكل معنى الكلمة ، بل هناك سلم للمعاني التي ندركها بالرموز . ففي هذا السلم نصادف أول الأمر طريقة الاستنارة او الكناية في عالم البيان : مثلاً « أنت أسد » بمعنى أنت شجاع . ولكن هذه رمزية ذاتية غير موضوعية ، مبنية على الخيال . — ثم بعد الاستنارة نجد التعبير بواسطة الامثال (allégorie, parabole) التي لا تتناول شيئاً بمفرده بل وضعاً معيناً كاملاً تحلّ محله وضعاً آخر يتعلق به : مثلا عندما يكني الكتاب شعب الله بالكرمة ويصفه على هذا الاساس ويقول : « تعهد هذه الكرمة واصلحها فان يمينك قد غرستها » . ان هذا وصف أو تشبيه يتناول حالة معينة عن طريق المثال ، ولكنه ليس رمزاً بالمعنى المقصود في هذا البحث : انه لا يمثل شيئاً موجوداً فعلاً يرمز اليه

مباشرة . – أما الرمز بكل معنى الكلمة فنصادفه في أعلى السلّم ، في تلك الدرجة الروحية حين يتم اتصال مباشر بين نظامين او عالمين للحقيقة ، أعني حين يتصل المعنيان (الرامز والمرموز اليه) بصورة مباشرة ذات خط واحد لا التباس فيه ، فيكون اتصالاً في الفعل لا في المعنى فقط . وهكذا فان المعرفة الرمزية او الاستنارة هي تأمل الكون أو الحقيقة المخلوقة كحقيقة رمزية تحمل حقيقة أخرى . انها تأمل الطبيعة كواقع مستنير بالله ، يقود الى الله ويهيء ذهننا لتذوق الله ورؤيته بصورة أعمق ، لرؤية الوجه للوجه . انها رؤية عبر الحجاب (حجاب الخليقة) على حد تعبير الآباء ، مع العلم بأن الحجاب قد صار شفافاً ومستضيئاً بالنور الذي يأتيه من هناك . ان ثياب المسيح في حادثة التجلي على جبل ثابور تصير « بيضاء مثل النور » يقول الكتاب . فحتى الحقائق المادية تستضيء وتلمع اذا ما لمستها حقيقة الرب . انها حينذاك تساهم العالم الأسمى . فالاستنارة اذن تعطينا حساً جديداً نحس بواسطته بحضرة الله في الخلائق . اننا بها نتغلب على كافة العالم المادي – بعد ان انتصرنا على اهواء النفس – كما نغلب ايضاً ، في مجال الفهم البعيد ، حدود الذهن والذكاء ونتخطاها .

٢ – العنصر المميز الثاني للاستنارة يتعلق بطريقة عملها (fonctionnement)

الاستنارة تتجه إلى ملكة الفهم وليس إلى أسمى . هي اولاً فهم ومعرفة ورؤية لا عاطفة – مع حضور المحبة الدائم طبعاً . عمل الاستنارة عمل العقل ولكنه يحتوي على شيء جديد وهو اننا لا نعود نميّز بين الذات والموضوع ، بين الذات التي تعرف والموضوع الذي يُعرف . إن المعرفة الاعتيادية تتسم بطابع عدائي الى حد ما (agressif) . عرف وفهم (com-prendre) يعني تناول واخذ اليه ، « استولى » على مفهوم

الشيء (concept) . انها معرفة تستهدف السيطرة على العالم وليست نقية كما يجب . مفهوم الأشياء أمر خارج عنا نواجهه كأعداء الى حد ما (objet = ob - jectum = rejeté) ، وفي اللغة الالمانية تحمل كلمة شيء معنى الخصومة) . اذاً معرفتنا الاعتيادية ليست « مستقيمة » كفاية ، ولذلك ليست هي كاملة . لأن الكذب مهما كان نوعه ومهما صغر يقصي عنا المعرفة الكاملة ويؤول إلى نصف معرفة : ان قول الحية لآدم وحواء في سفر التكوين « تصيران كآلهة » (تكوين ٣ : ٥) قول صحيح الى حدٍ ما : فانهما يصيران كآلهة ، ولكن خارجاً عن الله وليس في الله .. أمّا الاستنارة فهي تؤدي الى المعرفة الكاملة وتلغي ذلك التضاد بين الذات والموضوع ، مع بقائهما واستمرارهما كليهما في الوقت نفسه . **ان المرء المستنير يكتشف فجأة في أعماق الشيء الذي يتأمله نوراً مشتركاً بينه وبين الشيء هو ارادة الله ، هو كلمة الله الخالق الذي « به كان كل شيء »**. إن الاشياء تشترك في الكلمة الخالقة التي فيّ انا ، وبالتالي فأنا أستطيع فهم هذه « الكلمة » التي في الأشياء ، فيستنير كل شيء في رؤيتي وأعاين كل شيء يسبّح ويرنم لله ، فيصبح الكون ذو كصولوجيا كبرى ، كقول المزامير : « كل نسمة فلتسبح الرب » .. طبعاً نحن لا نستطيع تفسير عمل الاستنارة كما نفسر عمل المحرّك مثلاً . ولكننا نعرف اننا بها ننتقل إلى البعد الآخر ، نرى الله كخالق ومدبّر ، كحافظ هذا الكون ، ونرى اننا « به نحيا ونتحرك ونوجد » (اعمال ١٧ : ٢٨) . هذا كل ما يمكن قوله . وأمّا ما تبقى فنختبره شخصياً . إن الآباء والقديسين قد تركوا لنا خبرتهم معبّراً عنها خارجياً ، وعلينا نحن أن ندخلها حياتياً لنفهم هذه الامور ونحياها .

في الاستنارة اذاً علاقة جديدة توحد بين الذات والموضوع بين الذهن والاشياء . الاستنارة في تأمل الخليقة تمثل موت الذهن عن

ذاته وقيامته في الله كما رأينا ، تمثل صلب الذهن . ان كل شيء في هذه الحياة تطبيق لسر الصليب ، ذلك السر المحقق دائماً وفي الوقت نفسه الواجب التحقيق على الدوام . فعلينا ان نرتفع دائماً الى مستوى أعلى من مستوى ذهننا الاعتيادي . يجب عن طريق « موت » الذهن الدائم ، ان نستمر في تعويده على نظام معرفة أخرى مثلما اعتدنا على نظام معيشة مادية أخرى . يجب عن طريق صلب الذهن ان ندخل في حياة الذهن الجديدة التي تحتوي موهبة الروح القدس وتطابق سر الميرون المقدس كما رأينا آنفاً . هذا هو ، في هذه المرحلة ، جوابنا اللازم لله ، الجواب الذي لا بد منه . وعند ذاك ، في المرحلة الثالثة ، مرحلة الاتحاد بالله ، يصبح الله فينا الكل في الكل ، يحيا فينا ويُحب فينا ويعمل فينا الخ .. في تلك المرحلة نمتلىء من الله ونبلغ الى السلام ، السلام الاخير الأسمى . وحينذاك لا يعود العقل يشتغل لكي يعرف ، بل يتحرك مباشرة من الله ويغتذي مباشرة به . انها حالة الحياة الآخرة المعطاة منذ الآن للقديسين الذين حظوا بنعمة الاتحاد الالهي .

ولكن هذه المرحلة الاخيرة تتطلب منا جهداً متواصلا وعملا غير منقطع . ان السلام الذي نعطاه يضطرنا نفسه الى السير أيضاً ومتابعة السير . فهناك مجال أيضاً ودوماً لجهدنا الشخصي . نحن لا نستطيع الوقوف قائلين : « كفى ، لقد عملنا ما كان علينا ان نعمل » !..

الفصل السادس عشر

مجال الجهد في مرحلة الاستنارة

بعد ان حاولنا معرفة فحوى حالة الاستنارة ، ننتقل الآن الى البحث في الجهد اللازم للدخول والتقدم فيها ، الى العمل بعد النظر .

للاستنارة دعامتان ترتكز عليهما أو « مكانان » تغتذي وتنمو فيهما ، هما الخليقة الخارجية والكتاب المقدس .

١ ـ التأمل في الخليقة

المجال الاول لجهدنا في طريق الاستنارة يقوم بيننا وبين الطبيعة المخلوقة . فالخليقة ، العالم الخارجي بمجموعة الوقائع التي يتألف منها والحقائق التي تديره وتسيّره ـ ذلك « الكون » (cosmos) ـ لم يعد بدون معنى لنا ، بل أصبح يستنير عندما نوجه اليه نظرنا المستنير . وذلك لا بفعل الاستنتاج والاستقراء فهذه طريقة عقلية يستطيع استعمالها أي كان ، في حين ان الاستنارة نعمة . ولكننا عندما ننظر الى الكون في حالة الاستنارة لا نعود نرى فيه الاشياء أو الحوادث المادية فقط بل نرى الله معها . انها تقودنا الى ما هو بعدها لا بالاستنتاج والعقل بل بالحدس ، بالمعرفة المباشرة ، بالطريق الأقصر .. انها تقودنا حسب تعليم التقليد والآباء وخبرتهم الى « كلمات » الاشياء (logoi)

او جوهرها الالهي . كلمة الله اساس الكون ومحوره وكل شيء يساهم في الاساس او المعنى الالهي الحاضر في كل واقع وحقيقة . ولذا فاننا في سعينا في مرحلة الاستنارة لا نعود ننظر فقط الى الناحية النفعية أو الفنية أو العقلية للشيء بل نتطلع الى ونرى « كلمة » الشيء الجوهرية التي لا نستطيع التعبير عنها أو تصورها . وهذه الرؤية بالنتيجة هي على حد تعبير القديس مكسيموس المعترف بمنزلة « تناول » أول لكلمة الله ، لجسد المسيح ، تكشف لنا معه سمفونيا داخلية في الكون تسبح الله ، ونبصر تلك « المعاني » الالهية تتلألأ وتسطع فعلاً مثل أنوار . هكذا شاهد القديس بندكتوس الكون كله مجتمعاً في خيط من نور متصل بالله .

اما دورنا في ذلك فهو :

اولا – البقاء في حالة صفاء اي مداومة عمل تنقية النفس لئلا يكون العائق منا وفينا .

ثانياً – التنبه والتيقظ لتأمل الطبيعة على المنوال المذكور اعلاه ، اي ان نكون دائماً في حالة صحو وليس مسدودي العقول ، بل منفتحين ، متأهبين لتقبّل النعمة .

ثالثاً – ان لا نتساهل مع انفسنا ولا نجاريها في نظرتها للاشياء من الزاوية النفعية الانانية المحدودة فحسب بل ان يكون فينا حنين الى المعنى العذري الاول والمعنى « الرحمي » (sens maternel) في كل شيء ، ان نكون في حالة « تواطؤ » مع المعاني العميقة في الكون ليتسنى لنا التقاطها . .

رابعاً – ان ننظر ونتأمل بروح حرة طليقة لا في محجر وانحصار حتى تنفتح لنا الآفاق .

هذا وان تأمل الايقونات المقدسة لمثال بليغ للتأمل المستنير في هذا الصدد ، عندما تنقلنا وترفعنا الى الله .

٢ – التأمل في الكتاب المقدس

المجال الثاني لسعينا في طريق الاستنارة هو الكتاب المقدس . ويجب الملاحظة أولاً بأن الكتاب المقدس في الاساس ليس كتاباً يتضمن تاريخاً او عقيدة أو تشريعاً . . ولكنه يتضمن كوناً (cosmos) اعني عالماً من المعاني الروحية يمثل الخليقة الجديدة القائمة داخل الخليقة العتيقة قيام القلب في الجسد . الكتاب المقدس كلام الله ولقد أكد الرب يسوع ان كلامه لا يزول : « السماء والارض تزولان ولكن كلامي لا يزول » . فالكتاب المقدس اذاً حقيقة مطلقة ، فيه سرّ الله المستتر المسيح حيث كل شيء مجتمع (récapitulé) .

ويجب الملاحظة ثانياً انه الى جانب ضرورة مطالعة الكتاب المقدس باستمرار ، وهذا بديهي ، هناك ضرورة التأمل فيه بصورة معينة لكيما نرى المعنى يشعّ من خلال الأحرف . ان تأمل الكتاب هو « شركة » مع كلمة الله وتناول لها ، انه باب دخول الى سرّ الله ، الى المسيح كعالم جديد . لقد قال القديس ايرونيموس ان جهلنا للكتاب المقدس هو جهلنا للمسيح . ولا يمكن فصل كلمة الله عن الله نفسه ، لأنها هي الله نفسه مبلّغاً الينا .

في الكتاب المقدس درجات من المعاني مختلفة ولكنها غير منفصلة .

أعني اننا في مقطع واحد من الكتاب نستطيع ان نثبين درجات أو مستويات عديدة من المعاني .

فالمعنى الاول هو المعنى الحرفي للنص وهذا أمر واضح لا يحتاج الى تعليق – مثلاً القصة التاريخية لخروج الشعب الاسرائيلي من مصر كما وردت في سفر الخروج .

ثم هناك المعنى غير الحرفي الناجم عن ارتباط الكتاب المقدس ببعضه ، أي عن كل الكتاب ، عن سير الكتاب كله، ذلك السير الحي المتصل الديناميكي . فمن جهة أولى ما يرويه الكتاب المقدس يخص الزمن كله حتى آخر الأزمنة ،ومن جهة ثانية في الكتاب تيارات داخلية تصل وتربط بين مختلف أجزائه ؛ وعلى ضوء ذلك كل العهد القديم هو رمز أو صورة وظلّ (type) للعهد الجديد : هذا هو المعنى الظليّ (typologique) ، أي اننا من خلال المعنى الحرفي للعهد القديم نتبين المعنى الكامل ، « الملء » الذي تحقق في العهد الجديد .. مثلا خروج اسرائيل من أرض مصر الى أرض الميعاد يحوي كل المعاني الظليّة التي تحققت فيما بعد في المسيح واتخذت فيه ملء معناها (عبور البحر الأحمر يرمز الى المعمودية ، والمن الى الخبز السماوي ، وحيّة النحاس الى الصليب ، والعليقة الملتهبة وغير المحترقة الى العذراء مريم الخ ...) . ان مثل هذه الحوادث الظلية هي مراحل مادية في التاريخ ولا شك ولكنها في الوقت نفسه تدفع بالتاريخ الى الامام ..

وهناك اخيراً المعنى الروحي ، المعنى الأعمق الذي انما يقود الى ما وراء هذا العالم والى أكثر من هذا العالم، الى فوق (anagogique). انه المعنى المتصل بالحياة السرية والذي يخصنا دائماً، المعاصر لنا ولحياتنا. فخروج الشعب المختار من مصر هو في هذا الصعيد صورة لتقدمنا

الروحي ولخروجنا الداخلي من عالم الفساد . ولسع الحيّات للشعب في البرية صورة للسع الخطيئة والالواء لنا ، وعامودا النور في الليل والسحاب في النهار هما زيارات الله لنا .. وسفر نشيد الانشاد هو قصة النفس مع الله : بالمعنى الحرفي هو قصيدة عرسية ، وبالمعنى الظلي يرمز الى الكنيسة والى العذراء مريم ، وبالمعنى الروحي يروي اتحاد النفس بالله ، كذلك أسفار الانبياء الخ ... مع العلم بأن تلك المعاني المختلفة هي متداخلة .

كيف يجب قراءة الكتاب المقدس في هذا الصدد

قراءتنا للكتاب المقدس قراءة تأملية ليست مجرّد قراءة بل هي عمل وعمل يتم بحسب منهج معين .

اولا – قبل البدء بالقراءة نتخذ داخلياً موقف صلاة ونضرع الى الله طالبين طلبة القديس اسحق السرياني : « اعطني يا رب ان أدرك القوة الكامنة في الكتاب » .

ثانيا – نباشر القراءة على منوال حوار أي أني أقرأ كلام الله ككلام له وقعه فيّ وفعله وصداه . الحوار يجري فيّ طبعاً . ان الكلمات تدخل في الانسان (بينما الطاولة مثلا لا تدخل في الانسان) وطريقة دخولها هي دائماً طريقة واحدة أعني الحوار .

والحوار هذا مع الله من خلال الكتاب المقدس قضية تمرين ، نحن نتعلمه بالتمرن والممارسة فقط ، فليست هناك « وصفة » طبية نحصل بها عليه بل هو عمل طويل الأمد ، عمل صبور وعنيد . والحوار من جهة ثانية يتضمن جوابنا لله فيجب بالتالي ان يكون جواب انفتاح لكلمته واحترام لها وقبول . ان كلام الله كلام حيّ بل كلام الحياة ،

فيجب ان نقرأه بصورة حيّة وعندئذ نستنير به وتستنير حياتنا كلها..

ثالثاً – نقرأ الكتاب في اطارين اثنين اذا جاز القول (والاطار هنا بمعنى المكان النوعي) ، **اولهما الليتورجيا** . إن الكتاب المقدس معطى لنا في الكنيسة عبر السنة الليتورجية (مثال على ذلك فترة الصوم الكبير أو فترة ما بين الفصح والعنصرة والقراءات الكتابية التي تختص بكل منهما) فيجب فهم الكتاب من خلال الليتورجيا كالانتباه إلى اختيار اناجيل الآحاد وتتابعها والى اناشيد الاعياد المرافقة لها ، والانتقال من رمز الى آخر من رموز وعلامات الخدم الالهية (مثلا صلاة نصف الليل حيث تطفأ الأنوار الجسدية ..)

اما الاطار الثاني فهو الآباء وشروحهم للكتاب ، ورهبان البرية وخبرتهم التي تنير قارىء الكتاب . مثلاً فهمهم وشرحهم لآية المزامير « مصاعد في قلبه .. ينطلقون من درجة الى درجة » (مز ٨٣ : ٧) أو للآية التالية : « يا ليته كان لي جناحان كالحمامة اذاً لكنت اطير واستريح» (مز ٥٤ : ٦). ان جناحي الحمامة متصلان برئتيها بشكل تتنفس معه اثناء طيرانها وترتاح بدلاً من ان تتعب وكذلك نحن نطلب أن نكون لكي نستريح ايضاً في الصلاة المتواصلة بدل أن نتعب .. إنها معانٍ موضوعية وصحيحة بدقة؛ونحن على ضوئها نتجاوز فهمنا الفردي للكتاب ونوجد في تيار الكنيسة الواسع الكبير؛نحيا كاعضاء الكنيسة بمثل هذه النفحات التي عبرت الكنيسة كلها ووصلت الينا ..

رابعاً – نجعل كلام الله داخليا فينا ، يغتذي به ذهننا. «ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله » . كلام الله طعام لروح الانسان والانسان ينمو ويتسع ويتعمق بالضبط عن طريق عملية

جعل كلمة الله داخله (intériorisation) وبدون ذلك لا تفيده مطالعة الكتاب شيئاً بالنتيجة .

واخيراً « نكتسب فكر المسيح » (في ٢ : ٥) مفعول الاستنارة الاخير بعد ممارستنا التأمل في الخليقة وفي الكتاب المقدس كما تقدم اعلاه. اننا نكتسب ذهن المسيح ونتطبع به فننظر الى الآخرين نظرة المسيح اليهم ، نظرة فهم وشمول ، نمتلك ملكة هذا الفهم الجامع وهذا الشمول . الراهب الحقيقي يلخص في ذاته المسيح . الراهب مركز نور لأن حياة المسيح تتحقق فيه دوماً (حياة موت وقيامة) وتجلي حياته . الرهبان مركز لتجلي الحياة ومحل لظهورها وهم يحسبون بركة كبيرة للمنطقة التي يقيمون فيها (ذلك دون اي فضل شخصي لهم) . العالم حولهم يتأثر بمفعول استنارتهم التي هي شهادة للمسيح . اتجاه الرهبان (الذي يلاحظ في الكنيسة الغربية بصورة خاصة) الى مختلف النشاطات الخارجية مظهر ثانوي جداً للحياة الرهبانية وغير مهم البتة. فالعمل الرهباني الاساسي يبقى الاستنارة وإنارة الآخرين . الراهب الحقيقي مركز نور يفيد العالم دون ان يعي ذلك . ولقد قال القديس بارصنوفيوس يوماً في برية مصر (في القرن السادس) « ان العالم انما يستمر في الوجود لأن هناك ثلاثة رهبان يصلون ، واحد في فلسطين الثاني في اليونان والثالث في مصر وهو انا الحقير » ..) . ان كنيسة دون رهبان كنيسة قد نضب فيها الروح وانطفأ النور . المعرفة فيها اصبحت معرفة طبيعية منطقية ولكن النور قد انسحب ، النور غير المنظور ، النور الحلو ، نور المجد . ان الاستنارة هي تذوق مسبق للتجلي الأخير . انه لسرّ مجيد .

الفصل السابع عشر

الاتحاد بالله

وتلي الاستنارة مرحلة الاتحاد بالله وهي المرحلة الاخيرة حيث نتحد بالله اتحاداً ونتغير بهذا الاتحاد (union transformante) وتسمى أيضاً مرحلة المعاينة (vision) .

لن نبحث في هذه الحالة بصورة مباشرة ولكن عن طريق إلقاء بعض النظرات على حياة الصلاة vie de prière وبهذا لا يكون بحثنا بحثاً مدرسياً بل حياً قدر الامكان .

يجب ان نعرف ان حياة الصلاة ليست غاية بحد ذاتها ولكنها بمثابة الروح الذي يحيي كل حياة روحية منذ البدء البسيط المتواضع وحتى أعلى القمم وأسماها ، حتى الاتحاد بالله . ولذا فالطريقة الفضلى لختام هذه الدروس هي ان نتفهم ، في الوقت ذاته ، اعماق حياة الصلاة مع العلم بأن هذا ليس ختاماً بقدر ما هو وقوف عند اللانهائي اذ ليس لحياة الصلاة نهاية .

ثم فالصلاة تتصل بأعمق مشاكل البشر اذ تشمل علاقة الانسان بالله ، بل الشكل الذي تتخذه الصلاة يصبغ في الواقع ولا محالة كل مسألة لأبناء الناس .

يجب ان لا ننسى أولاً اننا انما ندين بكل شيء لصليب المسيح ، ذلك الصليب المسجل فينا بالمعمودية والاسرار الكنسية ، والذي أتى بنا ويأتي ، في مراحل متتالية ، الى رؤية نور وجه الرب ، الى الحياة المنزهة عن الموت . فالصليب قوة تقتلع فينا بادىء بدء جذور الاهواء وتميتها ، كما رأينا ، ثم تحارب الموت في ذهننا وتصل بهذا الذهن الى المعرفة الرمزية المستنيرة ، فيصبح الكون كله رمزاً كبيراً وهمزة وصل يجمعنا بالله ، يصبح مكاناً مستضيئاً بالحضرة الالهية وكأن الذهن يموت بالنسبة لحالته السابقة ليقوم في هذا الفهم الجديد .

نعلم ان الراهب كائن لا يكبر وينمو إلا على الصليب ، وهو بهذا المعنى « مصلوب » . انه مصلوب بصورة سرية ، يعيش في « حالة » صليب ، في ميتات وقيامات متتالية متصاعدة حتى يبلغ الى القيامة التي لا يعقبها موت (القيامة الاخيرة التي يمكن بلوغها منذ هذه الحياة على الارض) . وسير الراهب المتصاعد هذا هو بالضبط قوته ، هو قوة الصليب سلاحاً يرث به مجده وملكه . وهذا هو معنى العبارة الطقسية : « لان لك الملك والقوة والمجد ... » التي عندها نرسم الصليب .

أما الفضائل فهي ثمار نعمة الله ، والنعمة تسبقها دائماً ، هي ثمار قوة الروح القدس التي تتكيف مع المرحلة التي نحن فيها ودرجتها . انها تتخذ من البداية شكلا متواضعاً هو الامتناع عن فعل الشر (هذه فضيلة ونعمة) ، ثم تنمو تدريجياً وتوسع قلبنا وتعمقه وتملأه نوراً وظفراً .

... وحي بقية الفضائل: هي فضيلة الصلاة[1]. بل ليست الصلاة فضيلة بين فضائل اخرى ولكنها علامة حضور بقية الفضائل. ان كل علاقة حقيقية مع الله تتخذ حتماً شكل صلاة مهما صغرت والا فعلاقتي في الواقع لا تكون مع الله ولكن مع شيء آخر، مع «صنم» (هو ميلي او فكرتي أنا) كما يقول القديس غريغوريوس النيصصي. انّ العلامة الاولى لحضوري الحقيقي أمام الله هي اذن اني أصلي. ليس اللاهوتي الحقيقي عالم يبحث عن الله بل هو أولاً انسان يصلي. هناك اللاهوتي «الجالس» أمام مكتبه واللاهوتي «الساجد» أمام الله حسب تعبير الكاتب الألماني هانس فان بلتزار. صحيح ان هناك درجات في الصلاة ولكنها في كل الأحوال اشتراك في الملء نفسه، ذلك الملء الذي سيُكشَف لنا بكامله في الحياة الاخرى. لقد قال القديس غريغوريوس بالاماس: «في الحقيقة ليست كافة الفضائل سوى أدوية لنفوسنا المريضة بالخطيئة، والصلاة وحدها علامة نفس صحيحة،

---

١ - وينبغي هنا الاحتراز من تصنيف الفضائل تصنيفاً كلياً لأن «نظام» الفضائل - أو عالم الفضائل - هو دائماً عالم سري يجب عدم اعتبار التصنيف فيه تصنيفاً حرفياً. ولذا عند اطلاعنا على تحديدات الآباء وتشابيههم في هذا المضمار - مثلاً فضيلة ام، وفضيلة بنت، وفضيلة أسمى وأدنى ... - يجب عدم التعثر بالتناقض الظاهر في اقوالهم، بل النظر الى ما وراء الظواهر. فان اقوال كل منهم هي اقوال القديس الذي اختبر الفضائل كلها ووحد بينها في ذاته وبلغ القمم ونظر الى الوراء فرأى قوة الروح القدس الواحدة الفاعلة في كافة الفضائل وفي كل الطريق، ولذا تبين، من حيث هو، فضائل تشمل غيرها ولكنها تظهر بأشكال فرعية مختلفة. وربما انه تمكن من معرفة المصدر والعلة فما عاد يفسر العلة بالنتائج. فالمحبة مثلاً لم تعد تبدو فضيلة الى جانب فضائل اخرى بل هي اصل وروح [illegible] فضيلة، وليست من فضيلة تستحق هذا الاسم ما لم تكن تحييها المحبة. المحبة هي [illegible] الفضائل - ونذكر هنا كلام بولس الرسول عن المحبة في ١ كو ١٣ - الفضيلة [illegible] بوجود المحبة فقط، وهي على درجات مختلفة متفاوتة بمقدار درجة المحبة [illegible] فيها. التواضع مثلاً هو وجه من وجوه المحبة متجهاً الى الاشياء، هو وجه [illegible] الذات بالغير. فلأنني في حالة الشعور بحقارتي وعدمي ازاء الله ارى قر[illegible] المتضع، أراه في نور الله، في المحبة.

ونحن كلما أصبحنا أصحاء كلما صلينا». ان شفاءنا يبدأ بالصلاة وليست من علامة أخرى للشفاء. لنذكر مثل الابن الشاطر الذي انما عندما رجع الى نفسه وصلى شفي.

١ - ماهية الصلاة وجوهرها

في تعريف الصلاة لا بد أولاً من التنبيه الى وجوب الابقاء على المسافة التي تقوم دائماً بين اللفظة ومعناها أي بينها وبين ما يفوقها ويتجاوزها، وهذا يصح في كل التعاريف والابحاث الروحية، بخلاف العلوم والآداب. ففي بحثنا لجوهر الصلاة وماهيتها نحن لا ندخل حقيقةً في سر الصلاة ولكننا نقترب من محيطه وحسب، لأن الطريقة الوحيدة لمعرفة الصلاة هي ان نصلي. ولكننا نبغي الاستفادة من اختبارات الآخرين التي عبّروا عنها لكي نسلك الطريق الذي سلكوا. (واذا كان في هذا القول تناقض في الظاهر فإن مبادىء ديكارت لا تطبق هنا، والناس السطحيون الخارجيون فقط يتوقفون عند المتناقضات الظاهرة).

نستطيع تقديم تعاريف كثيرة عن الصلاة ولكن التعريف الشامل هو **أن الصلاة لقاء حيّ بين النفس والله** (أو حديث مع الله، أو ارتقاء النفس اليه وفيه أو حوار معه الخ ...). في كل صلاة يقوم حضوران الواحد بإزاء الآخر: انسان واله. أو بالحري حضور واحد هو **حضور الانسان**، لأن الله حاضر بصورة دائمة. **ليست الصلاة في الحقيقة أمراً طبيعياً اعتيادياً**، وليس كل انسان يستطيع أن يصلي: ذلك لأنه غائب، غير حاضر. العالم محاولة كبرى لجعل الانسان لاهياً، غائباً عن نفسه فيتعذّر عليه بالتالي ادراك الله. لنتذكر تعليمات نيكيفوروس للمبتدئين: «**قبل كل شيء يا اخوتي لنرجع الى ذواتنا**».

الابن الشاطر يبدد حياته « خارجاً » ،في « غيابات » ..وعندمايقول: « اعود الى نفسي وأذهب إلى ابي ... » فهذه هي الصلاة قد اكتشفها.

وهذا الحضور غير معقّد . ان الشعور فيه واحد هو شعوراتضاع مع خوف ، يأتي فجأة في شبه استنارة . وحدوثه لمن يعيشون في صخب العالم أصعب احتمالاً من حدوثه للمنزوين المختلين . ولذلك « يكون فرح في السماء بواحد يتوب اكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون الى توبة » (لوقا ١٥ : ٧) . نحن فيه ندرك « مخلوقيتنا » (créaturalité)،نحس اننا خلائق بين يدي الخالق«يداك صنعتاني وجبلتاني »(مز١١٨:٧٣). ان الراهب تعريفاً هو المسيحي الحاضر دائماً لنفسه وحقيقته . هـذا واجبه وهذه أصعب كرامة له : أن يحقق نفسه كخليقة قد اقتُلعت وانتُزعت من صخب العالم وتشتيته لتقف امام الله . « حي هـو الله الذي أنا واقف امامه » (٣ ملوك ١٨ : ١٥) . ولذا فالعلامة الاولية للراهب هي الصلاة والصلاة فقط . وبانقطاعه عن الصلاة يعود فيسقط في العالم الذي خرج منه ، يصبح « غائباً » . ولقد قال القديس يوحنا الذهبي الفم انه من الافضل ان تتوقف الشمس في مسيرها ولا يتوقف الراهب عن صلاته .

ثم ان الصلاة تحقق سر قوتنا الروحية وخلاصنا : « استطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني » (في ٤ : ١٣)وهذا يتم بطريقة وحيدة هي الصلاة لأنها تصلني بالمسيح . عندما نبدأ فنصلي عندئـذ نخلص (طبعاً ليست الصلاة التي تخلص كصلاة ذاك الذي كان « يصلي » وهو يغتسل عند الصباح ثم قال لامرأته « لقد فكرت اثناء صلاتي يا امرأة انه من الموافق ان نبيع بقرتنا الشقراء ! ... »)

ثم الصلاة هي الطريق وغاية الطريق في آن واحد . ان اكتساب اي كمال يتم بالصلاة وفي الصلاة ؛ وعند تعذر النسك والعمل تبقى معي

الصلاة . فالاعميان لما شفيا كان يصرخان « يا يسوع بن داود ارحمنا » . في الصلاة نكون في ذاتنا ، في كياننا ، ونستعيد صحتنا . والراهب تحديداً رجل صلاة . « الصلاة تصنع الراهب ،لا اللباس» . فكل مايفعله الراهب ، كل نظام حياته ، مرتب لأجل تأمين الصلاة ولكي يكتسب الصلاة . ليست غاية الراهب تحقيق الاعمال البطولية او المشاريـع الضخمة بل اللقاء مع الله . لقد قال الرب يسوع « أنا هو الطريق والحق والحياة » ، والصلاة أيضاً تقول ذلك . إنها الطريق الوحيد للحياة في الله . قال المغبوط اغسطينوس « احبب وافعل ما تريـد » ، وقال السائح الروسي « صلِّ وافعل ما تريد » . ان كيان الصلاة لا يتميزعن كياننا الاصلي فنستطيع القول : « نحن ما نصلّي ، أو نحن بقدر ما نصلّي ... »

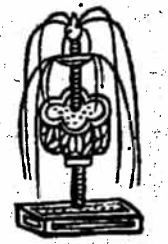

الفصل الثامن عشر

الاتحاد بالله (تابع)

٢ – كيف نعبّر عن الصلاة وكيف نبدأ بها ؟

الصلاة في الواقع وفي معظم الاحيان شيء اصطناعي يصطنعه الناس لله. الناس عادة يخلطون بين الصلاة وبين شكلها الخارجي كالدخول الى الكنيسة او الوقوف أمام ايقونة وتلاوة نصٍّ ما . قد يكون هذا صلاة ولكن جزئياً ؛ وليس هذا كل الصلاة . لا تقتصر الصلاة على العمل الخارجي المؤدى في مكان وزمان معيّنين والاّ لقتلنا الصلاة قتلاً ولاستبدلنا الأمر الحي بشيء مائت، وحدّدناه ووصفناه من الخارج بينما هو حالة نفس داخلية. وحالنا عند ذاك حال مَن يعرّف الفرح بالتصفيق بالايدي ويجبر الناس على التصفيق ليعطيهم الفرح !.. **فالصلاة قبل كل شيء موقف داخلي للنفس التي تعي ذاتها امام الله** : تدرك انها هالكة أو خاطئة ومفعمة بالنواقص والعيوب ، اي تدرك ذاتها كما هي فتتجه نحو الله وترتمي أمامه وفيه . يجب أن لا نظن أن الصلاة مغلقة في وجهنا في الاوضاع والظروف المختلفة التي لا تساعدنا مادياً على ادائها . بل يكفي لكي نصلي أن نعرض نفسنا لله كما هي ، في اي حال كانت عليه. في مثل الفريسي والعشار نلاحظ ان الفريسي كان يتحلى بفضائل حميدة ، لكنه لم يكن يرى نفسه ، لم يكن يصلي بل كان يتبجح امام الله . أما

العشار فلم يكن على مستوى فضائل الفريسي ولكنه كان يرى ذاته خاطئاً بكل نفسه وروحه ويطلب رحمة الله . فكان يضرع تلك الضراعة التي تطورت فيما بعد وصارت ما هو معروف بصلاة يسوع الشهيرة : « ارحمني أنا الخاطىء » . هذا وقد يكون الموقف الداخلي في الصلاة مختلفاً بل على أشكال وحالات لا تعدّ ولا تحصى . يمكن ان تعي مثلاً ان وجودك الآن في الدير يعود الفضل فيه لله وليس لك ، اذ كان يمكن أن تكون الآن في احدى دور السينما أو غيرها .. ولكن الله دفعك لتأتي الى هنا ، وأنت الآن تصلي .. أو في أوقات السفر خارج الدير قد يكون ذكرك لاسم الرب وصراخك نحوه بصلاة قصيرة من عمق النفس أثمن من صلاتك المنتظمة في الدير ... أو تستطيع أن تتوقف عن مطالعتك الثقافية بين الفينة والفينة لتتلو مزموراً او لترسم اشارة الصليب .. وهكذا يتأمن ذكر الله الدائم (anamnèse) في سائر الاوضاع والحالات . لقد قال افغريوس : « يصلي من يقدم بواكير كل افكاره ذبيحة لله » (وبهذه الطريقة يطرد ايضاً الافكار الشريرة حال ظهورها) . فالصلاة اذن هي في كل ما يتضمن ذكر حضور الله .

٣ – بعض اشكال الصلاة

فيما عدا الصلاة الليتورجية (الطقسية) ترد الأشكال التالية للصلاة وهي تساعد على وصفها : **هناك اولا الصلاة الصوتية المبنية على تلاوة نص معيّن** . وهي صلاة المبتدئين في الحياة الروحية ، غايتها تلقينهم عادة الصلاة الصوتية المقروءة وضبطها (وهي تفيد المتقدمين ايضاً بعض الاحيان فيشعرون بحلاوة الكلمات المكتوبة اذ يتجنبون الروتين والسطحية) . ويجب التنويه هنا بالخطر الكبير اللاصق بالصلاة الصوتية الرتيبة والفاقدة الانتباه : كيف يسمعك الله ان كنت لا تسمع ذاتك؟ عندذاك تتحول الصلاة الى دينونة للمصلي والى ألم له (قالت احدى

القديسات : ان الجحيم انما هو عذاب لله اولاً) . اما ميزات الصلاة المتلوة فهي انها تركز الفكر وتثبّته ؛ وتحمل معها جهاداً نسكياً؛ وفيها نوع من التواضع : اني اقرأ صلاة غيري ، صلاة كل الكنيسة ؛ وهي تمرّن الارادة على الثبات والمثابرة. ولا بد أولاً من التمرين لتصير الصلاة شخصية . ولكن التكرارات الباطلة والعديمة الفهم تعيق التقدم الروحي فالصلاة حينذاك ليست صلاة مقروءة وليست صلاة عقلية بل صلاة خارجية قد تصبح آلية وقد توهمنا اننا نصلي في حين اننا لا نصلي . نعتقد ان كمية الصلاة هي المهمة وهو اعتقاد باطل .

ثانياً الصلاة العقلية ، وهي صلاة داخلية تتجاوز الكلمات وتتخلى عنها (ولكن بدون دهش واختطاف) . فيها نصلي دون التفكير في صلاة معينة . هذه الصلاة تحقق صفاء الروح وهدوءه وسلامه وشفافيته أمام الله في تضرع صامت أخرس . هنا يجب ان تبدأ صلاة الراهب .

ثالثاً صلاة القلب وهي أعمق من العقل أو الذهن ، أعمق من مركز الفكر ، اذ تجري في القلب حيث نلتقي مع الروح غير المخلوق ، مع الروح القدس . اننا نصلي وقد تخطّينا الصلاة ، وقد قيل : « الراهب الذي ما زال يعي ذاته يصلي لم يبدأ بعد بالصلاة » .

٤ – **شروط الصلاة الحسنة** (والمقصود بها الصلاة الشخصية لا الطقسية)

آ – الصلاة الشخصية الجيدة تتطلب توفر شرط جوهري جداً يعادل تقريباً « مكان » الصلاة : هو **الصمت** . يجب قبل كل شيء تأمين الصمت في الدير لان الصمت « مكان » الروح والحياة الروحية ، وقبيح هو الدير الخالي من الصمت .

ينبغي أولاً **تأمين الصمت المادي** وبالتالي الامتناع (علاوة على أي نوع من أنواع الضجيج) عن الكلام البطّال الذي هو شيء مقرف اذا صدر عن الراهب . انه بمثابة خطيئة جسدية اذ يعكس كل الغرائز المكبوتة[1] .

ثم ان **الصمت نوع من تهذيب** لا بد للراهب ان يكتشفه ، اذ يقتضي عليه تجنب اقلاق اخوته (وهذا الأمر يتعلق **بالصمت غير المادي**) . عليه عدم ازعاج الأخوة واثارتهم بتصرفاته وحركاته بل التقيد بما يسر الله ويسر اخوته لا ما يسره هو . ان القديس اسحق السرياني المتصوف الكبير يذكر في ارشاداته وتعلياته للرهبان أشياء صغيرة وبسيطة تبدو تافهة (عدم التثاؤب مثلاً أو عدم البصق قدام الآخرين) ولكنها مهمة .

ثم **يجب اسكات الافكار قبل دخول الصلاة**. علينا ألا ندخل الصلاة دون تحضير صغير . لان الصلاة عالم آخر فلا بد قبل دخوله من التهيؤ بعض الدقائق لجلب السلام الى النفس [أما اذا لاحظنا ان الصمت ثقيل علينا فهذا يعني اننا لسنا في انتظام أو سلام مع أنفسنا وان هناك خللاً ما] . **وكذلك ايضاً عند الخروج من الصلاة** اذ يجب اتباعها ببعض دقائق من الصمت كما نتبع استماعنا الى قطعة موسيقية لباخ مثلاً بلحظات صمت وذلك لندخلها الى داخلنا وتصير جزءاً من كياننا . على هذه الصورة الصلاة المرسّخة فينا بالصمت تنشىء شبه طبقة جديدة في كياننا وان كنا لا نعي ذلك في أكثر الاحيان .

---

١ – يروون عن احد المطارنة انه كان يطلع على كل اخبار البلد في دير للتأملين – وعن دير آخر للراهبات يبعد ألف كيلومتر عن باريس أنه كان يحوي كل عناوين العاصمة الكبيرة !.. أما الرحلة الموضوعة الى جانب باب الدير الخارجي فكانت تسمى رحلة « القال والقيل » ...

وفي هذا المضمار من المهم جداً ان نحاول ان تكون فكرتنا الاخيرة قبل النوم وفكرتنا الاولى عند الصباح لله . ينبغي ان نجعل من صلاتنا موقفاً داخلياً دائماً مستمراً لان صلاتنا هي سرّ شخصنا . انها العمل الشخصاني الأكبر ، كمال الراهب الذاتي وهدف كل الحياة الرهبانية وتحقيقها ، وهي مبنية على أسس كيانية اذ انها حضور الانسان الكامل لذاته وأمام الله . بها ننتهي نهائياً من « الغياب » الكبير المسيطر على الناس والعالم حيث الحياة الحقيقية غائبة . وفيها بالعكس يجد « الحضور » أمام الله تعبيره الصحيح وبرهان قيامه .

إلاّ ان الصمت المحيط بالصلاة يجب ان لا يكون صمتاً ثقيلاً مفروضاً ، صمت زعل او كآبة . يجب بالعكس ان تكون الحياة الرهبانية اليومية مشبعة بالصمت من الداخل ، يرافقها طبيعياً ويجعلها سهلة وخفيفة . هذا وان منفعة الصلاة على هذه الصورة تتجاوز الفهم المباشر وتكمن في الصبر والمثابرة اللذين سيكشفانها لنا في حينه في القلب .

ب — ومن شروط الصلاة الحسنة الوقوف فيها موقف احترام وثقة :

احترام عظيم وورع ناجم عن شعورنا بالبعد اللامتناهي الذي يفصل بيننا وبين الله . نحن مخلوقون من العدم ولا نوجد الا في الله ، في الذي هو « كائن » . فيجب ان نصلي دائماً ونحن خاشعون وواعون لهذا البعد (diastasis) . ان عظمة الانسان هي في عدم كونه الها في الاساس . فلا ننسَ اننا لسنا آلهة . أما تجربة الشيطان لآدم وحواء : « تصيران كآلهة » فهي تجربة نسيان وجود الله ، في حين اننا بالانسحاق أمام الله ننال بالعكس نعمة الصيرورة آلهة ، بنعمة الله نصير آلهة . ان اسم رئيس الملائكة « ميخائيل » (ونحن نعرف أهمية الاسم في الكتاب لاسيما اسماء الملائكة التي هي بمثابة أوصاف الهية) يعني في اللغة العبرية « من

مثل الله؟ » وهو في فم رئيس الاجناد السماويين كصرخة الغلبة والظفر : بالله نغلب ، من مثل الهنا ؟ انه لسان حالنا .

ولكن شعور الاحترام العظيم والورع امام الله في الصلاة يؤلف احدى « خشبتي » الصليب فقط . أما الثانية فهي الثقة بالله ، موقف الوثوق الكلي به [con, ri = confiance = الاحتماس مع الكيان مع] . البعد بيننا وبين الله لا يُلغى ولكنه يُعبَر . فبالرغم من ان الله فائق الادراك نحن نعرف ونوقن انه يسمعنا ويستجيب لنا . هو خالقنا وأبونا ، هو صخرتنا ، يقول الكتاب . « الرب يرعاني فلا يعوزني شيء » (مز ٢٣ : ١) .

واذا ما توفر شعورا الاحترام والثقة في الصلاة وتكاملا فان كل صلاة مهما كانت بسيطة ومتواضعة تصبح شيئاً عظيماً ، فريداً ، شيئاً اكثر من بشري : تصبح لقاء مع الله : وبمثل هذه الصلاة يبدأ تاليهنا بصورة سرية ، تقوم فينا حالة جديدة سرية تؤول شيئاً فشيئاً الى كماله ، فيكفي ان نثابر ونستمر ... : « أنا قلت انكم آلهة » (مز ٨١ : ٦) . لنذكر ما حدث للقديس انطونيوس حين سأل الله بعد جهاده ضد التجارب طول الليل : « أين كنت يا الله حين كنتُ أتمرمر ؟ » فأجابه « كنت حاضراً أفرح لجهادك وأراك تنمو وتكبر وتتسع في كفاحك البطولي » . نعم ان الله حاضر في أي صراخ نبعث به اليه ، وقداسة الله الفائقة نحس بها في الصلاة بقدر ما نحس بصغرنا . الصلاة تحقق سر بنوتنا لله : بها نصير ابناء الله ، نصير من « ذريته » ونستطيع ان نصرخ « يا أبا الآب » (غلا ٤ : ٦) . بالصلاة « ننتمي » الى الله ، نصير منه وهو ينزل فينا . لذلك فالموقف الأعمق من الثقة هو موقف الاسلام لله . لا استسلاماً سلبياً بل استسلاماً فاعلاً طوعياً ، حياً ، استسلاماً هو بالعكس ظفر للارادة ، اذ به تغلب ذاتها وتنطلق نحو الآخر . لقد

عاش في رومانيا مؤخرا راهب كان يسال الله بحرارة ان يفعل به ما يشاء وهذه نعمة تدل على الصلاة الكاملة . أما اذا كان الاستسلام في الصلاة سلبياً غير فاعل فلا تكون الصلاة بالضرورة باطلة لان الله يعطيها ثمنها على كل حال ما دامت خروجاً نحوه .

جـ – ثم هناك شروط ذات طابع أكثر رهبانية للصلاة الجيدة :

أولها **نخس القلب**(componction)أي التوبة المتوجّعة والندامة الحزينة ولكن الفرحة في آن واحد (لانها تائبة) . وفي حالة نخس القلب نحن نشعر بديمومة هذا الوضع أي بأنه علينا ان نتغلب على ضعفنا وخطيئتنا الى طول الايام . وهذا الشعور ينحصر بشخص التائب أول الأمر: أتوجع من أجل خطاياي وأفكر في شقائي واتعابي. ثم يتسع حتى يشمل الجميع والعالم كله ، فأتوب من أجل كل العالم . اننا حينئذ نشعر بقوة الصلاة الواسعة اللامتناهية التي لا يضاهيها شيء . ونشعر بقوتها الفعلية كحقيقة أكثر حقيقة من الحقيقة. وتصبح الصلاة حينذاك الشيء الاساسي في هذه الحياة ، ولا شيء آخر يمكنه ان يفوق حقيقتها الجوهرية . انها تبلغ في آن واحد السماوات والارض والاعماق .. (vasticité) ، لأن النعمة قد مسّت القلب ووسّعته الى غير حد . وتمتاز هذه اللحظة بالصفاء والنقاوة . فالشرور والقبائح كلها قد زالت والنفس تشترك في الفرح الأسمى الأخير .. وقد قال اسحق السرياني ان قلب القديس يذرف على الدوام دموع التوبة من أجل كل الخليقة بل يطلب مزيداً من الدموع الغزيرة . انه يبكي بفرح ، ويصلي من أجل الملائكة والبشر والدواب والوحوش ،بل من أجل الشيطان نفسه ...

الى جانب نخس القلب ينبغي الصلاة **بحرارة** : ما دام الراهب لا يعود يصلي من أجل نفسه ولأجل المنافع المادية المشروعة كما يصلي أهل

العالم بل يبدأ صلاته على صعيد المجانية الأعلى من صعيد العالم ؛فلا بد ان يُتم ذلك بحرارة كبيرة تحمل صلاته هذه وتعوّض عن انسلاخه عن العالم .

ويجب أيضاً ان تكون الصلاة **نقية وقصيرة**؛ والصلاة المعلنة المعبّر عنها هي المقصودة هنا(لا الصلاة الصامتة الاخيرة). فهذه الصلاة المتقطعة يجب ان تكون مركزّة ،واضحة ، قوية ، غير متعبة ، نابعة بدون مشقة .ان الصلاة النقية القصيرة هذه تبلغ السماء مباشرة. هي تنطلق من القلب بشكل صرخات قصيرة تحطّم بها كسلنا وفتورنا ونجدد قلوبنا.

ويجب أيضاً ان نصلي **بدموع**، لا بالدموع العاطفية ذات الميوعة بل بدموع الندامة والتوبة التي تتحول الى دموع فرح : « طوبى للحزانى والباكين فأنهم يعزّون » . والمعزي هو الروح القدس الذي يطهرنا بالماء (ماء الدموع) كما في سر المعمودية. ان الروح يرفرف فوق لجة مياه قلبنا ويخلق الخليقة الجديدة فينا على منوال الخلق الأول،لذلك فالبكاء في هذه الحالة يكون بدون جهد بل في فرح ونور . انها تعزية الروح القدس ، ماء المعمودية الثانية ، « سر » التوبة أي تغيير الذهن وابداله بذهن جديد .

الفصل التاسع عشر

الاتحاد بالله (تابع)

٥ – مضمون الصلاة

لقد وصلنا تقليد جميل منحدر من القديس باسيليوس الكبير يقول بوجوب احتواء الصلاة على اربعة اقسام أو عناصر ، هي :

اولا : فعل شكر وحمد ؛ يجب أن تكون الصلاة شكرية .

ثانياً : فعل اعتراف على نحو ما كانت تبدأ به قراءات الجامع المسكونية : « نعترف » أي نقرّ ونؤمن (وليس « نقرّر ») . « من يعترف بي قدام الناس .. » . وهذا الاعتراف يجعل الصلاة انسانية والهية في آن واحد (théandrique) اذ اني لا أقر من ذاتي بل من نعمة الله. الله يعترف فيّ .

ثالثاً : فعل تمجيد وتسبيح يجب أن يتوفر في كل صلاة . التمجيد اختصاص الراهب اذا جاز القول ، أعني التمجيد الكامل على غرار الملائكة : إن « كيان » الملائكة تسبيح وقد صاروا شفافين لله وكمثل لهيب النار . أما نحن فلا نزال كثيفين. الملائكة قد أزالوا كل شيء يقوم بينهم وبين الله ، وهم يَدَعون الالوهة تدخل فيهم ، وهذا هو التمجيد.

الله هو كل شيء فيهم فمن الطبيعي اذاً أن تكون كل كلماتهم تمجيداً و تسبيحاً . أما الراهب فملاك متجسد رسالته أن يحقق منذ الآن وبصورة مسبقة تسبيح يوم القيامة الاخير. ذلك أولاً بتلاوته يومياً مزامير التمجيد والصلوات التسبيحية في الخدمة الطقسية ثم وبصورة أبلغ وأعمق بالتسبيح بفكره وذهنه المشبع والمختمر بالاتجاه الى الله والمشدود اليه تعالى . شعوره بحضرة الله يعبر عنه بتسبيح دائم وهذا الشعور بالذات ينتزع منه نشيد التمجيد .

رابعاً : واخيراً تحتوي الصلاة على فعل طلب والتماس . وذلك ليس على سبيل الانانية أو من باب تحويل الله الى مجرد مصدر عطايا ، ولا بشكل فرض حاجاتنا على الله ، بل من أجل تحقيق ذواتنا كمخلوقين: نحن بحاجة للنعمة والرحمة فنطلبها بحرارة ودموع ، نحارب ونجاهد من أجلها « ضدّ الله » ، على غرار يعقوب الذي تصارع مع ملاك الله طول الليل ولم يتركه قبل أن يحظى ببركته ، وعلى أثر ذلك سمّي «اسرائيل» ومعناه في العبرانية « الذي يحارب ضد الله » .. ويجب أن نعلم أن هذه الصلاة الابتهالية الملحة هي نفسها نعمة لأن تضرّعنا الى الله يوافق إرادته ويحققها ، وليس المهم بالنتيجة « ماذا » نطلب بل « ممن » نطلب : من الله تعالى ، الكيان المطلق الثالوث الواحد الفائق الادراك. ولذا يجب أن لا يطغى عليّ اثناء الصلاة شعور أو تفكير يتناول «ماذا أسأل» بل « من أسأل » . يجب أن تتحول صلاتنا من الشيء إلى الشخص .

٦ – مكان الصلاة ، « أين » يجب أن نصلي

نصلّي اولاً في القلاية . فالقلاية تراث من الآباء وجزء من بريّتهم المزدهرة قد انتقل الينا . هناك تفاعل حي (dialectique) بين الصلاة

والبريه . فالصلاة تقود الى البرية والبرية بدورها تغذي الصلاة . « ياليته كان لي جناحان كالحمامة اذاً لكنت أطير وأستريح اذن لكنت أفر الى بعيد وآوي الى القفار .. » (مز ٥٤ : ٦ ، ٧) : كلام داود هـذا وصف للصلاة الموقّعة rythmée ،الخفيفة ، كطيران الحمامة . لقد رأينا آنفاً أن حركة التنفس عند الحمامة غير منفصلة عـن طيرانها (بخلاف وضعنا نحن في السباحة مثلاً) وانها بالتالي تستريح في طيرانها. هكذا يجب أن تكون « صلاة يسوع » بالنسبة الى الراهب : « أطير واستريح » في عزلة القلاية .. والعزلة الصحيحة تولّد بدورها الصلاة . لذلك كان يعيش الآباء في البرية وكانت البرية تزدهر بصلواتهم كما تقول الطربارية :« البرية غير المثمرة قد أنبعت بمجاري دموعك .. »في القلاية يتوفر الصمت الخارجي والداخلي فيجب افعامها بجوّ الصلاة افعاماً (لهذه الغاية لا يدخل الراهب قلايته الا ويتلو صلاة قصيرة أمام أيقونة العذراء حتى وإن كان يرافقه اناس) . يجب أن تتسم قلايتنا وتُطبع بجو الصلاة وتتصف بالترتيب والنظافة والبساطة لئلا نطرد منها الصلاة.

ويجب أن نصلي ايضاً خارج القلاية .ولكن كيف و« أين» يجب أن نصلي بالنتيجة ؟ : في المسيح ، أي في كل مكان وزمـان . على الراهب أن يحمل الصلاة معه في ذاته اينما حلّ وتوجّه .

٧ – زمان الصلاة

رأينا أن على الراهب أن يصلي في كل مكان لأن « المكان » الأخير – الميتافيزيكي – للصلاة هو المسيح . ولكن عليه ، من أجل الوصول إلى هذه الصلاة ، أن يعمد إلى قلايته حيث يعتاد على الصلاة الداخلية ويكتسب « حسّ » الصلاة وينمّي شعور الصلاة فيه وحبّها . غير أنه إلى جانب الصلاة في القلاية على الراهب أن يمد صلاته و« يوزعها »

على كل يومه وبرنامجه، وذلك في استغاثات قصيرة على الأقل لكيما يقدس عمله ويكرسه لله . لنذكر الطابع المقدس الذي يتسم به العمل الرهباني. انه عمل مقدس لأنه مستقل عنا من حيث غايته وانتاجه . ليس هـو عملاً نفعياً.الراهب لا يعمل لأجل نفسه، انه منسلخ عن عمله وبقدر ما هو منسلخ عنه يتممه بقداسة . الراهب لله وكل ما هو لله مكرس ، أي مفرز . كبواكير الحصاد التي كانت تقدّم لله فتقدس بقية ثمار الارض ، وبالنتيجة على منوال سر الشكر الافخارستي . ثم عمل الراهب مقدس ايضاً بمعنى آخر اذ يجب ان ترافقه الصلاة وتصحبه . قـال القديس انطونيوس الكبير إن الصلاة تساعد على العمل وتزيـل ثقله ، والعمل يساعد ، بدوره ، على الصلاة ويعزز فيها شعور التقدمة والتكريس لله.

فمتى نصلي اذاً ؟ الجواب : على الدوام : « صلوا بلا انقطاع »يقول الرسول (١ تس ٥ : ١٧) . وقد قص الرب يسوع على تلاميذه مثـل قاضي الظلم والمرأة الارملة لكي يعلمهم انه ينبغي ان يصلوا في كل حين ولا يملوا (لو ١٨ : ١) . ان الرب نفسه اذاً أمر بالصلاة الدائمة .

هذا ويجب في هذا الصدد ان نبتدىء بالصلاة في الوقت المعين لهـا دون اهماله او الاستهتار به . وحتى خارج الصلاة الطقسية يجب تحديد اوقات معينة للصلوات الشخصية في القلاية والتقيد بهـا . المهم الثبات والاستمرار في ذلك مهما كانت الصلاة صغيرة (الوقوف مثلاً أمام أيقونة القلاية وتلاوة مزامير لمدة خمس دقائق مع التقيد بالوقت المحدد) . إن الصلاة الدائمة نعمة ولا شك ، ولكن من المهم ايضاً تمرين الارادة على ممارسة الصلاة بتكرار وتواتر مع الاكثار والتطويل التدريجيين. والرب يستجيب .

٨ – بعض الممارسات التي تساعد على الصلاة

آ – **التأمل** (méditation) والقراءة المقدسة: المقصود عادة بكلمة تأمل تركيز الافكار بصورة سيستماتيكية حول موضوع روحي معين من أجل تفهم معانيه وتبنيه . ان مثل هذا التأمل غير وارد في التقليد الآبائي بصورة صريحة . ان الآباء يوصون بالقراءة المقدسة الالهية (lectio divina) أي قراءة الكتاب المقدس والآباء . وكانت غاية القراءة الدخول في حوار مع الكلمة الالهية ومن هنا التأكيد على ضرورة دخول الكلمة فينا ، على وجوب قراءتها كلمة « مسموعة » ، « موجهة الينا » ، كقول كير كغورد . ثم من هنا التأكيد ايضاً على تحقيق سر بنوتنا لله بقراءة الكتاب اذ نسمع فيها صوت كلمة الآب وهي تصلنا بالروح القدس فيتم فينا تدبير البنوة العظيم . ولكنه ابتداء من ظهور الروحانية الكرملية في الغرب في القرن السادس عشر ، وهي تتصف بروح القوة والظفر (conquistador) ، صار الطابع الفردي يطغى على الطابع الليتورجي وينشر الطرق الفردية في الحياة الروحية . فكان « التأمل » المذكور أعلاه الذي يتم على طريقة تتابع الافكار والتصورات . قد تكون هذه الطريقة حسنة ومفيدة بكل تأكيد ولكن لا بد من الحذر في استعمالها لأنها طريقة « مادية » (كتصور جلد يسوع مثلاً ... او قلب يسوع ..) . وعلى كل حال فهي غير مطابقة للتقليد الشرقي .

أما الكتب التي يحسن مطالعتها فهي الكتاب المقدس ومؤلفات الآباء القديسين كما سبق القول . أما الكتب الفكرية فينبغي عدم الإكثار من مطالعتها . هذا واننا نميل عادة الى الافتخار بالقراءة العقلية واستنباط المعاني الدقيقة والفريدة ، ونستلذها ، أو نفتش عن الرمزية بصورة اصطناعية ، وبذا ننكر الكتاب كسرّ ونبتعد عن جوهره . فيجب قراءة الكتاب ونحن مصلون وراغبون في ادراك سرّه وقوته ، وبروح

التواضع ، متخذين من وقت لآخر في نهاية القراءة قرارات أو تصميات عملية تخص حياتنا .

ب – **الخدمة الالهية الليتورجية** ايضاً ينبوع متفجر غزير بمواضيع التأمل: انها تأمل الكنيسة عينه ، اللاهوت جارياً ... فالقوانين والاناشيد المختلفة قد كتبها أعظم القديسين لا قطعاً ادبية بل صلاة مشبعة بالتأمل. انها تشرح سر الله الممتد في خدمة الكنيسة على مدار السنة ، فيجب دخول هذه التأملات الالهية والحظوة بكلمة المسيح فيها (logos) وذلك من خلال معاني الاعياد المتتالية وقوانينها والاناجيل والقراءات الكتابية الاخرى المرتبة والمختارة لها الخ .. (بصورة خاصة في كتاب التريودي والبندكستاري والمعزي والاعياد السيدية في كتاب الميناون).

٩ – صعوبات حياة الصلاة

لكل عمل روحي اخطار وصعوبات تعترضه وهي ناتجة اولاً عن مجرد الانفصال عن العالم ، ثم عن قوة الشر العاملة في الانسان ، الانسان العتيق الذي يقاوم الانسان الجديد . والصلاة بصورة خاصة عمل روحي يُحارَب إلى اقصى حد . العالم في واقعه هو نسيان الله ، يتحقق فيه غياب الله ، بينما الصلاة تستعيد ذكر الله وتحقق حضوره من جديد؛ ولذلك فكل ما حولنا يقاوم الصلاة بكافة الطرق الممكنة وغير الممكنة اذا جاز القول :

آ – **التعب**: وهو حالة نحسّ فيها بصعوبة التزام الصلاة او الاستمرار فيها (lassitude) . هذه الحالة لا تتضمن أي شعور سلبي ضد الصلاة لكننا نميل فيها إلى ترك الصلاة . قد يكون هذا ناتجاً عن تعب جسدي أو – استثنائياً – عن مرض نجهله . ولكن الصلاة في حد ذاتها تُحدث ايضاً تعباً . المبتدئون خاصة يتعبون في الصلاة (ولذا يرتب لهم برنامج

يختلف عن برنامج صلوات الرهبان) . ازاء هذه الحالة يجب أن لا نقلق بل أن نعرف ذواتنا لنعرف سبب التعب . فإذا كنتُ تعباً حقاً أتوقف واستريح . . .

قد يكون التعب ناجماً عن الافراط في العمل العقلي ، بالاضافة إلى اننا عادة نعتقد بإننا نعيش الحياة الروحية متى فهمناها بالعقل ، في حين أن هذه تلذذات عقلية فقط دون مستند فعلي ، فتصبح الصلاة حينذاك غير ذات طعم .

بصورة عامة إذا داهمتنا حالة التعب في الصلاة جيّد ان نتقدم الى سر الاعتراف ونفرض على انفسنا قصاصاً ما لنستعيد نشاطنا . وعلى كل حال فإن التعب من الصعوبات البسيطة القابلة للشفاء عن طريق معرفة الذات واتباع نظام حياة سليم معتدل .

ب – شرود الذهن أو التشتت واستحالة جمع الفكر ، وهو العدو اللدود للصلاة . الصلاة « حضور » بينما تشتت الذهن يبتغي الغياب. إن واجبنا ازاء شرود الذهن أن نحاربه وايضاً نحاربه . وليس المهم أن ننجح في قمعه سريعاً بل المهم جهد القلب الذي يراه الله .ينبغي أن نستعد للصلاة استعداداً مخلصاً قبل دخولها لكي نحقق فينا تلك الرغبة الصادقة في الصلاة . ثم يجب أن نصلي بدون خفّة بل بجد كلي وأن نضرع الى الله ليمنحنا قوة الصلاة. فاذا ما حققنا صفاءنيتنا وقلبنا فان الباقي يحققه الله . ولكن لا بد من صفاء النية واستقامتها (لنتذكر قصة الراهب الذي كان يتعلل بمحاربة الشيطان له أثناء الصلاة فأجاب الشيطان : هذا الراهب أنما يدّعي ذلك ويحتج به في حين انه يُسَرّ بي في سريرة قلبه) .

هذا ولا بد لنا في سعينا لجمع الفكر من ان نتبع الطريقة المؤدية اليه في نمط حياتنا العملي : فالانزعاج من الاخوة مثلاً يعيق جمع الذهن اثناء الصلاة . « اذا أتيت لتصلي وكان لك شيء ضد أخيك فاترك صلاتك. . . » (متى ٥ : ٢٣ ، ٢٤) . اننا ننال الصلاة التي تستحقها حياتنا ، نصلي كما نعيش وعلى الصورة التي نعيش بها. فيجب اذاً تنظيم حياتنا كلها بالنسبة للصلاة بغية تأمين صلاة « مجموعة » .

ثم متى قمنا لنصلي يجب أن نحترز من الصلاة « الآلية » الخالية من الوعي، بل يجب الصلاة بوعي وبشكل ايقاعي. المزامير خاصة يجب ان نقرأها قراءة ايقاعية .

هذا ويقول لنا القديس باسيليوس الكبير أن لا نخاف من شرود الذهن في البدء بل أن نحاربه . أما إذا استمر طويلا فيكون هناك على الاغلب سبب آخر اكثر عمقاً وخطورة ، فيجب حينذاك أن نعترف ونفحص ذواتنا بتدقيق لمعرفة نوع الخلل ومصدره العميق. . . وعلى كل حال فالتشتت من شأنه أن يزيد حرارة الصلاة اذا حاربناه .

ج – الضجر (acédie) أو الملل و « القرف » ، ويسمى ايضاً « شيطان نصف النهار » . انه شيطان غضوب ملحاح (rageur) على حد قول القديس اسحق السرياني، وكأن حرارة الظهيرة تُرخي وتذيب كل شيء . الضجر يقصي الصلاة ويبعد عن المناولة . انه يفعل ضمن اطار الايمان والحياة المسيحية ، فأقول مثلا : « لقد تركني الله . انه موجود ولكنه تخلى عني ، والاخوة لا يستطيعون مساعدتي . . . » . وبازاء هذه الحالة يوصي القديس اسحق السرياني بالنوم: كلْ واشرب ونم كما تشاء ، ولكن لا تترك قلايتك (او ديرك) حتى يعبر الشيطان . .

الفصل العشرون

الاتحاد بالله (تابع)

١٠ – قمم الصلاة أو الاتحاد بالله

هذه هي المرحلة الاخيرة في الحياة الروحية ، المرحلة القصوى ، نبحثها الآن بعد التنقية واللا هوى والاستنارة ، وسنحاول أن نتكلم فيها قدر الامكان وباختصار استناداً الى أقوال الآباء .

الاتحاد بالله هو الرغبة الكيانية عند الانسان ، ما يقوم عليه ، ما يصبو اليه في الأساس . ان اتحادنا الآن بالله هو بالايمان وبالاسرار الكنسية . أو هو بالنسبة لغير المؤمنين في ارادة الله الخالق . وهذا الاتحاد المتفاوت في الدرجات غير كامل . « لقد خلقتنا يا رب لنكون لك ولذا لن تجد قلوبنا راحة الا فيك .. » (المغبوط اوغسطينوس). لذلك فالاتحاد بالله يصير عند الراهب الهدف الطبيعي أو البحث الطبيعي عن الله .

ويتم هذا الاتحاد المنشود – بكلمة واحدة – عن طريق الصليب كما سنرى ، بل ليس هو سوى تحقيق سر الصليب في حياة الانسان ، وكأننا به نصل إلى القيامة منذ الآن دون المرور بالموت. وهذا التحقيق يدخل طبعاً في اطار حياة الصلاة لأن الصلاة هي الطريق الوحيد

(الطريق والغاية) : فهناك في سلم الصلاة صلاة أخيرة قصوى تبلغ بنا إلى الاتحاد بالله فتكف عن أن تكون صلاة ومع ذلك هي صلاة إذ لا توجد علاقة أخرى غيرها ممكنة بين الله والمخلوقات .

من صفات هذه الحالة : أولاً المعاينة الالهية المغبوطة (vision béatifique et béatifiante) التي لا يمكن التعبير عنها ولا يسوغ الكلام فيها : « ما لم تره عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على بال انسان، ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩) .

صفة أخرى : قبل الآن كنا نتعاون مع النعمة ، نتنبه ونعمل لكي ننفتح للنعمة ونتركها تجتاحنا وتملأنا اكثر فاكثر . اذاً كان الروح لا يزال نشيطاً عاملاً ، يموت لكي يقوم . أما في حالة الاتحاد الالهي فيبطل كل عمل وكل نشاط . لقد أصبح الله كل شيء فينا ، وهو الذي فينا يعمل . انساننا الداخلي صار في وضع مطاوع ، مستسلم ، وذلك لا كالعوبة بيد آخر بل لانه وجد الموافقة الكاملة مع الله (concordance) فلا يقاومه قط[1] . صار مفعماً الوهة[2] .

قال القديس مكسيموس المعترف ان يوم الجمعة الذي يعني يوم التهيئة (paraskivi) يقابل مرحلة التنقية ، ويوم السبت الذي يعني استراحة

١ – يقول مكسيموس المعترف أن هناك سنة اخيرة يترتب بموجبها على كل ما هو غير خالد أن يموت لينال القيامة ، لأن العنصر المائت لا يستطيع البقاء مع العنصر غير المائت . ويعني أن النشاط المخلوق الطبيعي فينا لا يستطيع الاستمرار فينا مع اللا مخلوق المعطى لنا كنعمة . فاما أن يضحي الانسان بذاته سرياً في الله اذا شاء أن يحيا به أو أن يقتل برفضه . لا بد من اختيار احد موتين : إما الموت المؤدي الى الحياة أو الموت المؤدي الى الموت Une mort est à choisir : soit la mort vers la vie , soit la mort vers la mort .

٢ – ولذا فمن خلال الانسان يعتلن الله ...

وتتركز أكثر فأكثر ، نقية كل النقاوة ، في الملء الفريد الذي هو اسم يسوع . فلا يستطيع ان يردد إلاّ مجرد هذا الاسم وحده ، الذي يحمل كل حبه بل كل محبة الله المسكوبة في قلوبنا بروحه القدوس . ان صلاة القلب هذه كنوع من افخارستيا تجسد دعوة الراهب الاسخاتولوجية وتقوده الى فرح المجيء الثاني ، الى غبطة الاتحاد بالله .

على ضوء هذا نفهم لماذا يقال للراهب ، عند تسليمه المسبحة وتقليده الاسكيم الرهباني ، في اللحظة الاولى لميلاده الثاني : « أيها الأخ ، خذ سيف الروح الذي هو كلمة الله لكيما تصلي دون انقطاع ، لانه ينبغي لك ان يكون اسم الرب يسوع المسيح على الدوام في ذهنك وفي قلبك وعلى شفتيك قائلا : « ربي يسوع المسيح بن الله ارحمني أنا الخاطىء » ...[1]

١ ـ يبقى القسم الثالث والأخير من الباب الثاني ، وهو ، بعد حياة الشركة وحياة القلاية ـ حياة الراهب في الكنيسة ، اي الحياة الليتورجية ، فنرجو الرجوع في هذا المضمار الى مؤلفات الدير التي سبقت وبحثت هذه الناحية ، وهي : كتاب « العبادة المسيحية » للارشمندريت الياس رئيس دير مار جرجس دير الحرف (صدر عن مكتب التعليم الديني في مطرانية طرابلس وتوابعها للروم الارثوذكس عام ١٩٦٥) ، كتيب « من أجل فهم الليتورجيا وعيشها » (منشورات النور) ومقال « الانتماء الى الكنيسة بالطقوس » للارشمندريت الياس مرقص (مجلة النور العدد ٦ من عام ١٩٦٧) .

الفهرس

	الصفحة
المقدمة	٣
التأمل والعمل	٥
طابع الشهادة في الحياة الرهبانية	٨
الباب الاول : التأمل	١٣
الفصل الاول : معنى الحياة الرهبانية	١٥
الفصل الثاني : كيفية التزام الراهب في الحياة الرهبانية	٢٣
الفصل الثالث : نذر العفة او البتولية	٢٩
الفصل الرابع : نذر الفقر	٣٤
الفصل الخامس : نذر الطاعة	٤٠
الفصل السادس : نذر الصبر	٤٦
الفصل السابع : تحقيق المبادىء الرهبانية	٥١
الباب الثاني : العمل	٥٩
القسم الاول : الحياة المشتركة	٦٠
الفصل الاول : أسس الحياة المشتركة	٦١
الفصل الثاني : قوام الشركة الرهبانية	٦٨
	٢٣٣

الصفحة

الفصل الثالث : الشركة الرهبانية والطاعة ٧٦
الفصل الرابع : الحياة المشتركة كواسطة لمعرفة الذات ٨٤
الفصل الخامس : علاقة الراهب مع اسرته الرهبانية ومع العالم ٩١
الفصل السادس : في بعض الاخطار التي تعترض الحياة الرهبانية المشتركة ١٠٠

القسم الثاني : حياة القلاية

الفصل الاول : حياة الراهب الداخلية : معناها ومحتواها ١٠٩
الفصل الثاني : بعض التحديات والتميزات الإيضاحية ١١٥
الفصل الثالث : طبيعة الاهواء ١٢١
الفصل الرابع : استعراض الاهواء ١٢٦
الفصل الخامس : التحرر من الاهواء : مبادىء السير ١٣٥
الفصل السادس : » » : الايمان والتوبة ١٣٩
الفصل السابع : » » : خوف الله ، والاعتدال ١٤٦
الفصل الثامن : » » : النسك الجسدي ١٥٢
الفصل التاسع : » » : أعمال النسك ١٥٧
الفصل العاشر : » » : الصبر في الأوجاع والمحن ١٦٣
الفصل الحادي عشر : » » : صحو الذهن أو حفظ القلب ١٦٩
الفصل الثاني عشر : » » : الوداعة والاتضاع ١٧٧
الفصل الثالث عشر : حالة اللاهوى ، أو الصفاء
الفصل الرابع عشر : حالة الاستنارة : ما هي
الفصل الخامس عشر : » » : فحواها
الفصل السادس عشر : مجال الجهد في مرحلة الاستنارة

الصفحة

الفصل السابع عشر : الاتحاد بالله ٢٠٦
ماهية الصلاة وجوهرها ٢٠٩
الفصل الثامن عشر : الاتحاد بالله (تابع) ٢١٢
كيف نعبّر عن الصلاة وكيف نبدأها ٢١٢
بعض اشكال الصلاة ٢١٣
شروط الصلاة الحسنة ٢١٤
الفصل التاسع عشر : الاتحاد بالله (تابع) ٢٢٠
مضمون الصلاة ٢٢٠
مكان الصلاة ٢٢١
زمان الصلاة ٢٢٢
بعض الممارسات التي تساعد على الصلاة ٢٢٤
صعوبات حياة الصلاة ٢٢٥
الفصل العشرون : الاتحاد بالله (تابع) ٢٢٨
قمم الصلاة أو الاتحاد بالله ٢٢٨

الفهرس ٢٣٢